المملكة العربية السعودية

وزارة التعليم

الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة

(٠٣٢)

كلية الدعوة وأصول الدين

قسم العقيدة



أعمال القلوب عند الشيخ عبد الرحمن السعدي رحمه الله

(ت١٣٧٦هـ)

جمعًا ودراسة

رسالة علمية مقدمة لنيل درجة العالمية (الماجستير)

إعداد الطالب

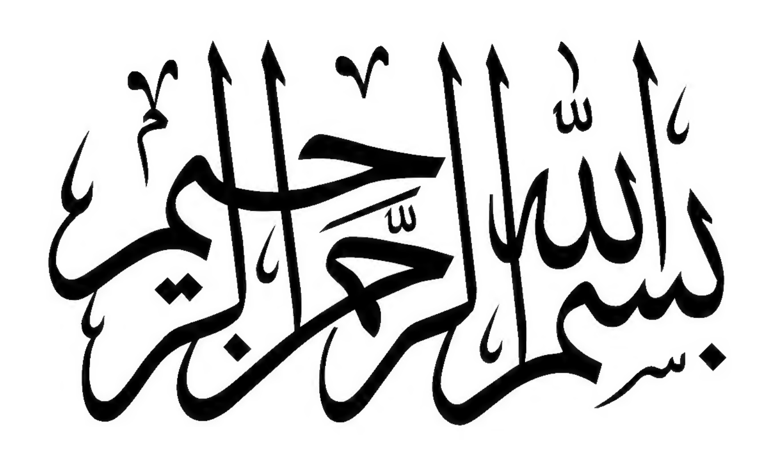
عبد الله بن عبد الرحمن بن ناجي الرحيلي

المشرف

د. ذياب بن مدحل العلوي

العام الجامعي

١٤٣٦ / ١٤٣٧ هـ


بسم الله الرحمن الرحيم

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة:

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحد لا شريك له وأشهد أن محمدا عبده ورسوله.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ آل عمران: ١٠٢

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴾ النساء: ١

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا (٧٠) يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴾ الأحزاب: ٧٠ - ٧١

أما بعد[1]:

فإن من أصول أهل السنة والجماعة التي تميزوا بها واتفقوا عليها أن الإيمان قول وعمل، قول القلب واللسان وعمل القلب والجوارح، يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية. وأصل الإيمان في القلب، كما قال تعالى: ﴿ ...أُو۟لَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ... ﴾ المجادلة: ٢٢

وقد صح عن النبي ﷺ أنه قال: «ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح

---

(١) هذه خطبة الحاجة التي كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعلمها أصحابه، وقد أخرج الحديث النسائي في سننه، كتاب النكاح، باب ما يستحب من الكلام عند عقد النكاح (٦/٨٦)، وأبو داود في سننه، كتاب النكاح، باب في خطبة النكاح (٢/٢٣٨) وغيرهما، وقد توسع الشيخ الألباني في تخريج الحديث في رسالته: (خطبة الحاجة) وصححه.

الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب»[١].

فبهذا تُعلم منزلة القلب من الجسد، وأنه سيد أعضائه، بصلاحه يصلح الجسد كله، وبفساده يفسد كله.

وإن "مدار التقوى على إصلاح القلوب، فمتى صلح القلب بالإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره، وصحح ذلك بالمعرفة وحسن الاعتقاد ثم توجه القلب إلى ربه بالإنابة والقصد وحسن الانقياد، فإن الجوارح كلها تستقيم على طريق الهدى والرشاد، فصلاح الجوارح ملازم لصلاح القلوب"[٢].

وأعمال القلوب هي أصل من أصول الدين والإيمان، وهي مقصودة ومرادة لذاتها، والجوارح في ذلك لها تبع؛ فالمدح والذم، والثواب والعقاب هو للقلب أصل وللجوارح تبع.

وأعمال الجوارح لا تكون إيمانًا بدون إيمان القلب، وأعمال القلوب أفرض من أعمال الجوارح، ومستحبها أحب إلى الله من مستحبها.

والقلوب هي محل نظر الرب من العبد، قال ﷺ: (إن الله لا ينظر إلى أجسادكم ولا إلى صوركم ولكن ينظر إلى قلوبكم)[٣]

وأصل التقوى في القلوب قال تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَـٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ ﴾ الحج: ٣٢، وقال ﷺ: «التقوى هاهنا» ، وأشار إلى صدره ثلاث مرات[٤] .

"والأعمال إنما تتفاضل ويعظم ثوابها بحسب ما يقوم بقلب العامل من الإيمان والإخلاص"[٥]، وكذا التفاضل بين الناس إنما يكون بما يقوم في قلوبهم من أعمال، قال

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الإيمان، باب فضل من استبرأ لدينه (١/ ٢٠) ح:(٥٢)، ومسلم في صحيحه، كتاب المساقاة، باب أخذ الحلال وترك الشبهات، (٣/ ١٢١٩) ح:(١٥٩٩).

(٢) المجموعة الكاملة لمؤلفات الشيخ عبد الرحمن السعدي (٢١ / ٢٠٥)

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم ظلم المسلم، وخذله، واحتقاره ودمه، وعرضه، وماله، (٤/١٩٨٦)، ح:(٢٥٦٤).

(٤) المصدر نفسه.

(٥) بهجة قلوب الأبرار للشيخ عبدالرحمن السعدي ص٢٦

تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ ﴾ الحجرات: ١٣، والتقوى إنما هي في القلب.

والعبودية التي خُلق العباد من أجلها منقسمة على القلب واللسان والجوارح، وأهمها : عبودية القلب.

وعليه فمعرفة حقيقة أعمال القلوب وبيان أحكامها وأدلتها من الكتاب والسنة أهم من معرفة أحكام الجوارح؛ إذ هي أصلها، وأحكام الجوارح متفرعة عنها.

ومن هنا كان الاهتمام بإصلاح القلوب وتصفيتها من فاسد العقائد، وتنقيتها من رذيل الأخلاق والعوائد، وتحليتها بالعقائد السليمة، والأخلاق القويمة، من أهم مهمات الأنبياء وكذا شأن أتباعهم من الأئمة والعلماء.

وقد مكث النبي ﷺ في مكة ثلاث عشرة سنة يدعو إلى توحيد الله وتطهير قلوب العباد مما علق بها من اعتقادات خاطئة في ربهم عز وجل.

وقد كان للمصنفين كتابة في هذا الموضوع قديمًا وحديثًا، كتبت طائفة منهم بحق، وكتبت أخرى بخلاف ذلك.

وممن كتب فيه رسائل نافعة، ودوّن فيه وقفات ماتعة، وتأصيلات بارعة: الشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدي رحمه الله.

فله رحمه الله كلمات متينة، وجمل عميقة في تقرير معنى عبودية القلب لله، إخلاصًا ومحبة وخوفًا ورجاء وتوكلًا. . . . وغير ذلك من أنواع العبودية لله، وقد غلب حديثه عنها – رحمه الله – في عدد من رسائله ، مع ما تعرَّض له في الحديث عنها في تفسيره.

وفي جمعها وترتيبها والربط بينها فائدة عظيمة لإبراز جهد الشيخ في الباب أولًا، وللتذكير بشيء من معاني العبودية والأعمال القلبية ثانيًا، وللتحذير مما قد يخل بكمال الإيمان بالله أو نقضه بالكلية ثالثًا.

ولأهمية الموضوع في نفسه من جهة، وأهمية كلام الشيخ عبد الرحمن السعدي في هذا الموضوع وتفرق كلامه فيه من جهة أخرى، أحببت أن يكون بحثي لنيل درجة الماجستير بعنوان:

((أعمال القلوب عند الشيخ عبد الرحمن السعدي رحمه الله: جمعًا ودراسة))

أجمع فيها ما تفرق من كلامه فيه، ضامًّا النظير إلى النظير، مُعملًا قلم الدراسة والتأصيل، دراسة تفي منه بالمقصود، وتبرز ما تميز به من جهود، والله المستعان وعليه التكلان.

أسباب اختيار الموضوع

دعا لاختيار هذا الموضوع عدة أسباب، منها:

١- أهمية الموضوع في ذاته؛ إذ إن الفقه في مثله نافع بإذن الله في إصلاح القلوب من أدوائها الشبهاتية والشهوانية، والناس بعامة وطلاب العلم والباحثون بخاصة بحاجة ماسة إليه في كل عصر، والحاجة إليه في هذا العصر أشد؛ لتماوج فتن الشبهات، وتزين فتن الشهوات.

٢- أن الكتابة في مثل هذا الموضوع فيها إبراز لجهود علماء أهل السنة في هذا الباب، وجهودهم في هذا الباب تحتاج إلى مزيد عناية واهتمام.

وقد ظن بعض الجهلة أن هذا الباب لم يكتب فيه إلا المتصوفة ونحوهم من المخالفين، التي لا تخلو كتبهم -في الغالب- من الانحراف عن هدي الكتاب والسنة.

٣- أن لأئمة الدعوة النجدية عمومًا وللشيخ عبد الرحمن السعدي خصوصًا جهودًا عظيمة في هذا الباب تأصيلًا ودراسة ووعظًا، ولم تُجمع تلك الجهود في مصنف مستقل، صغيرًا كان أم كبيرًا.

وإبراز جهود أحد منهم له أهميته التي لا تخفى.

٤- أن الشيخ عبد الرحمن السعدي تميَّز عن غيره بكثرة كلامه في أعمال القلوب وأهميتها وبيان حاجة العبد إليها وتعلقها بالإيمان، وفي أفراد الأعمال القلبية، وتفسيره مليء بذلك، بل إن أهم ما يميز تفسيره عن غيره هو طرقه لهذه الجوانب

الإيمانية والأعمال القلبية، في مظان الآيات التي تشير إلى أعمال القلوب وفي غير مظانها.

٥- وجود الرغبة في قراءة كتب الشيخ عبد الرحمن السعدي، وقد بلغ مجموعها ستة وعشرين مجلدًا، وقد طبَّقت شهرتها الآفاق، واعتنى بها العلماء والحذاق، راجيًا المثوبة من الرب الكريم، وطالبًا أن يحصل لي بسبب قراءتها الانتفاع العظيم، في العلم والتعليم؛ وذلك لتميز الشيخ بالدقة في الفهم، والبراعة في الاستنباط، مع السهولة في العبارة، والجزالة في اللفظ.

٦- أن هذه الدراسة تأتي استكمالًا للدراسات في أعمال القلوب عند علماء آخرين من أهل السنة، كالإمام أحمد بن حنبل وابن تيمية وابن القيم وابن رجب -رحمهم الله-؛ إذ كُتب عن منهج كل منهم وجهوده في تقرير أعمال القلوب.
وقد تميز الشيخ السعدي بوفرة كلامه في هذا الباب وكثرته، لا سيما في تفسيره؛ إذ تعرَّض فيه لجميع الآيات التي تناولت أو أشارت إلى أعمال القلوب، وبسط الكلام فيها بسطا لا تجده عند غيره.

٧- وهي كذلك استكمالًا للدراسات التي كتبت عن جهود السعدي في بعض جوانب العقيدة، كرسالة (الشيخ عبد الرحمن السعدي وجهوده في توضيح العقيدة) للشيخ أ. د. عبد الرزاق البدر، ورسالة (جهود الشيخ عبد الرحمن السعدي في الرد على المخالفين) للباحث محمد شرفي، وكلاهما مسجلتان في قسم العقيدة بالجامعة الإسلامية.

واستكمالًا للدراسات التي كتبت عن جهود الشيخ عبد الرحمن السعدي في فنون العلم، إذ كتبت رسائل متنوعة في جهوده، مثل:

- (الجهود العلمية والدعوية للشيخ عبد الرحمن السعدي)
- (الشيخ عبد الرحمن السعدي مفسرا)
- (أثر علامة القصيم على الحركة العلمية المعاصرة)
- (استنباطات الشيخ عبد الرحمن السعدي من القرآن)
- (الشيخ عبد الرحمن السعدي منهجه وأثره في الدعوة إلى الله)

وغيرها.

الدراسات السابقة

لم أجد -حسب اطلاعي- رسالة جامعية تناولت جهود الشيخ عبد الرحمن السعدي في مسألة أعمال القلوب بالجمع والدراسة، وسأذكر بعض الرسائل التي لها صلة بموضوع البحث مع بيان الفارق بينها وبين موضوع البحث:

١- الشيخ عبد الرحمن السعدي وجهوده في توضيح العقيدة، رسالة مقدمة من شيخنا أ. د. عبد الرزاق بن عبد المحسن البدر؛ لنيل درجة الماجستير في كلية الدعوة وأصول الدين بالجامعة الإسلامية في قسم العقيدة.

وقد تعرَض الشيخ رحمه الله لجهوده العقدية المتعلقة بأنواع التوحيد الثلاثة، وكذا رده على المخالفين، وكانت هي أكثر موضوع الرسالة، ولم يتعرَض لذكر جهوده في أعمال القلوب بالتفصيل، وإنما عرض في سياق حديثه عن بعض أنواع العبادة لذكر الإخلاص والتوكل والمحبة والخوف، ومجموع ذلك كان في نحو عشر صفحات.

وله العذر في ذلك؛ إذ إن جمع كلامه في أعمال القلوب يحتاج إلى بحثٍ مستقل. فموضوعه في جهود الشيخ ومنهجه في مسائل العقيدة إجمالًا، وموضوعي في جمع كلام له متفرق في مسألة منها على وجه الخصوص.

وقد استشرت فضيلته في الكتابة في هذا الموضوع فأفاد بأهميته وأن جمع كلام الشيخ السعدي في أعمال القلوب يناسب أن يكون رسالة علمية.

٢- أعمال القلوب وأثرها في الإيمان رسالة مقدمة من الباحث محمد دوكوري محمد؛ لنيل درجة الدكتوراه في كلية الدعوة وأصول الدين بالجامعة الإسلامية في قسم العقيدة.

٣- أعمال القلوب، حقيقتها وأحكامها عند أهل السنة والجماعة وعند مخالفيهم، مقدمة من الباحث د. سهل بن رفاع بن سهيل الروقي العتيبي؛ لنيل درجة

الدكتوراه في كلية التربية بجامعة الملك سعود بقسم الدراسات الإسلامية شعبة العقيدة وهي مطبوعة.

وهاتان الرسالتان بحثتا الموضوع بشكل عام، ورسالتي تبحث الموضوع من خلال كلام الشيخ عبد الرحمن السعدي، وإبراز جهوده فيه، وقد اطلعت على الرسالتين ووجدت النقل فيهما عن الشيخ السعدي قليلًا؛ وإذا ذُكر كلامه فإنما يُذكر على وجه الاستشهاد كما يُنقل عن غيره من العلماء، من غير عناية بما تميز به الشيخ من التقرير والتأصيل، وثمة مباحث كثيرة في أعمال القلوب لم ينقلا فيها عن الشيخ السعدي مع كثرة كلامه فيها؛ مما يؤكد أهمية إفراد جهود الشيخ في رسالة مستقلة.

وقد اقتصر د. سهل العتيبي -وفقه الله- على أعمال القلوب التي هي أركان للعبادة وأعمال القلوب التي هي شروط للشهادتين، فيصير مجموع ما ذكره من أعمال القلوب عشرة أعمال، وفي هذه الرسالة ذكر لتسعة عشر عملًا قلبيًّا.

وقد تقدم ذكر بعض الرسائل العلمية التي تناولت جهود بعض العلماء (الإمام أحمد، ابن تيمية، ابن القيم، ابن رجب) في أعمال القلوب في أثناء الحديث عن أسباب اختيار الموضوع.

خطة البحث

قسمت البحث إلى مقدمة وتمهيد وأربعة فصول وخاتمة.

المقدمة: وذكرت فيها أهمية الموضوع وأسباب اختياره والدراسات السابقة وخطة البحث والمنهج المتبع فيه.

التمهيد: وفيه مبحثان:

المبحث الأول: ترجمة موجزة للشيخ عبد الرحمن السعدي رحمه الله.

المبحث الثاني: نبذة عن جهود أهل السنة في التأليف في أعمال القلوب.

الفصل الأول: حقيقة القلب وأقسامه وأمراضه:

وفيه مبحثان:

المبحث الأول: حقيقة القلب، وفيه مطلبان:

المسألة الاول: حقيقة القلب لغة.

المسألة الثاني: حقيقة القلب شرعًا.

المبحث الثاني: أقسام القلوب وأمراضها.

وفيه تمهيد وأربعة مطالب:

التمهيد في بيان انقسام القلوب

المسألة الأول: القلب السليم حقيقته وصفاته وعلاماته

المسألة الثاني: القلب الميت حقيقته وصفاته وعلاماته

المبحث الثالث: درجات الناس في أعمال القلوب

وفيه ثلاثة مطالب:

المسألة الأول: السابق للخيرات

المسألة الثاني: المقتصد

المسألة الثالث: الظالم لنفسه

الفصل الرابع: دراسة لأعمال القلوب على وجه التفصيل:

وفيه تسعة عشر مبحثًا:

المبحث الأول: الإخلاص

المبحث الثاني: المحبة

المبحث الثالث: الخوف والخشية

المبحث الرابع: الرجاء

المبحث الخامس: الصدق

المبحث السادس: التوكل

المبحث السابع: الصبر

المبحث الثامن: الرضا

المبحث التاسع: اليقين

المبحث العاشر: التفكر

المبحث الحادي عشر: التوبة

المبحث الثاني عشر: الخشوع

المبحث الثالث عشر: التقوى

المبحث الرابع عشر: المراقبة

المبحث الخامس عشر: الزهد

المبحث السادس عشر: الورع

المبحث السابع عشر: الذكر

المبحث الثامن عشر: الشكر

المبحث التاسع عشر: الحياء

الخاتمة، وفيها أهم النتائج والتوصيات.

الفهارس:

١-فهرس الآيات

٢-فهرس الأحاديث

٣-فهرس الآثار

٤-فهرس الأعلام

٥-فهرس المصادر والمراجع

٦-فهرس الموضوعات

منهج البحث

- جمع المادة العلمية من كلام الشيخ السعدي ﷺ المبثوث في كتبه.
- نقل كلام الشيخ السعدي من كتبه والسعي لحصر كلامه في الباب.
- دراسة الأعمال القلبية من كلام الشيخ عبد الرحمن السعدي ﷺ تتمثل في الآتي:

١- التعريف بالعمل القلبي

٢- أهمية العمل

٣- ذكر الأدلة عليه من الكتاب والسنة

٤- ثمرات العمل القلبي وآثاره

٥- ذكر أقسام وشروط العمل (إن كان للعمل أقسام وشروط)

٦- قد أتعرض في بعض الأعمال لجوانب أخرى في حال وجود كلام للشيخ السعدي فيها، لكن الأربعة الأوَل مُلتزَمةٌ في كل عمل.

- عزو الآيات إلى مواضعها من كتاب الله بذكر اسم السورة ورقم الآية مع كتابتها بالرسم العثماني.
- نقل الأحاديث النبوية من مراجعها الأصلية كما وردت مع العزو إلى مصدرها في الحاشية، وذكر حكم العلماء على تلك الأحاديث إلا ما كان في الصحيحين؛ لإجماع الأمة على تلقيهما بالقبول.
- عزو الآثار الواردة في البحث إلى مصادرها.
- ترجمة الأعلام غير الصحابة وغير المشهورين الوارد ذكرهم في البحث ترجمة موجزة.
- نقل أقوال العلماء من مصادرها الأصلية ما أمكن.
- شرح غريب الكلمات والمصطلحات العلمية مع التوثيق.

- تعريف موجز بالفرق والبلدان والأماكن الواردة في البحث.
- الالتزام بعلامات الترقيم وضبط ما يحتاج إلى ضبط.
- وضع فهارس خادمة للبحث حسب ما هو مبين في الخطة.

شكر وتقدير

في ختام هذه المقدمة وفي كل حين أحمد الله تعالى وأشكره على جزيل نعمه ، وتوالي مننه ، وأسأله المزيد من فضله وإحسانه، حيث منَّ علي بإتمام هذا البحث.

وهذا البحث هو جهد المقل، فإن وفقت فمن الله تعالى وحده، وإن قصَّرت فمني ومن الشيطان، والله ورسوله بريئان.

ثم إنني أشكر من كان له الأثر البالغ في وصولي لهذه المرحلة – بعد الله تعالى – وهما والداي الكريمان، فاللهم اجزهما عني خير الجزاء وأوفاه وأفضله، وارحمهما كما ربياني صغيرا، ورعياني كبيرا.

ثم إنني أتقدم بالشكر الوافر لهذه الجامعة المباركة – الجامعة الإسلامية – ، وأخص كلية الدعوة وأصول الدين ممثلة في فضيلة عميدها أ.د. سعود بن عبد العزيز الخلف ، ورئيس قسم العقيدة فيها فضيلة أ.د. سليمان بن سالم السحيمي، وفضيلة أ.د. صالح بن محمد العقيل الرئيس السابق للقسم، وأعضاء قسم العقيدة؛ لإتاحتهم الفرصة لبحث هذا الموضوع.

وأعطف بالشكر الجزيل والامتنان العميق لفضيلة شيخي الفاضل د. ذياب بن مدحل العلوي الذي أشرف علي في هذا البحث، وكان لتوجيهه وإرشاده أثر كبير علي في إتمام البحث، وقد أفدت منه علما وخلقا وسمتا، فاللهم اجزه عني خير الجزاء، وبارك في علمه وعمله وعمره، وأصلح ذريته، وأقر عينه بخيري الدنيا والآخرة.

ثم إنني أشكر صاحبيْ الفضيلة، أستاذيْ الفاضلين عضوي لجنة المناقشة:

فضيلة الشيخ د. أحمد بن عبد الله الغنيمان، وفضيلة الشيخ د. عارف بن مزيد السحيمي على تقبلهما النظر في الرسالة وتقويمها، وإبداء الملحوظات عليها، فجزاهما الله خير الجزاء، وجعل ما بذلاه في ميزان حسناتهما.

وأشكر أيضا من أعان على إتمام البحث بأي نوع من أنواع الإعانة، فأشكر فضيلة د. عبد الكريم بن عيسى الرحيلي، وأشكر زوجي أم تميم (فجزى الله من وصل إلينا إحسانه، القليل والكثير، أفضل الجزاء ، وتقبل الله سعيهم وضاعف لهم الأجور،

ونحمد الذي أوصل إلينا على أيديهم من الخير والفضل حمدا كثيرا طيبا مباركا، لا يعد ولا يحصى؛ فإنه تعالى المنعم المطلق على الجميع، أنعم بالأسباب ومسبباتها ، ﴿ رَبِّ أَوْزِعْنِيٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَصْلِحْ لِى فِى ذُرِّيَّتِىٓ إِنِّى تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٥﴾ ﴾ الأحقاف: ١٥.

وأوزعني أن أشكر المحسنين والمرشدين ومن انتفعت بهم مشافهة ومكاتبة، أو استفدت من كتبهم؛ فإن شكرهم من شكره، فـ"من لم يشكر الناس لم يشكر الله"[١] [٢]

والحمد لله أولا وآخرا على توفيقه وفضله، وأستغفره من تقصيري، وله سبحانه الفضل والمنة من قبل ومن بعد فهو المنعم المتفضل وحده لا شريك له، وله الحمد كثيرا دائما لا شريك له.

وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

---

[١] أخرجه الترمذي في سننه، كتاب البر والصلة، باب ما جاء في الشكر لمن أحسن إليك (٤٠٣/٣) ح(١٩٥٥) .

[٢] قاله السعدي رحمه الله في الرياض الناضرة (مجموع المؤلفات ١٤٨/٢٢)

التمهيد : وفيه مبحثان :

المبحث الأول : ترجمة موجزة للشيخ عبد الرحمن السعدي – رحمه الله – .

المبحث الثاني : نبذة عن جهود أهل السنة في التأليف في أعمال القلوب .

المبحث الأول : ترجمة موجزة للشيخ عبد الرحمن السعدي – رحمه الله –

أولا : نسبه:

هو العلامة الورع الزاهد، الفقيه الأصولي المحقق المدقق الشيخ عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله بن ناصر بن حمد آل سعدي. من النواصر من بني عمرو أحد أفخاذ بني تميم، من بني عمرو أحد البطون الكبار من قبيلة بني تميم الشهيرة[1].

ثانيا: مولده :

ولد في مدينة عنيزة في القصيم، وذلك بتاريخ ١٢ المحرم سنة ألف وثلاثمائة وسبع من الهجرة النبوية.

وتوفيت أمه سنة ١٣١٠هـ وله أربع سنوات، وتوفي والده سنة ١٣١٣هـ وله سبع سنوات، فعاش يتيم الأبوين[2].

ثانيا : نشأته:

نشأ يتيم الأبوين، وعطفت عليه زوجة والده وكفلته وأحبته أكثر من حبها لأولادها وصار عندها موضع العناية والرعاية، فلما شب صار في بيت أخيه الأكبر حمد بن ناصر، فنشأ نشأة صالحة كريمة.

وكان والده قد أوصى به إلى ابنه الأكبر حمد فقام برعايته وتربيته خير قيام، وكان حمد رجلاً صالحاً ومن حملة القرآن ومن المعمرين.

و كان الشيخ منذ نشأته صالحاً مثاراً للإعجاب محافظاً على الصلوات الخمس مع الجماعة، واشتهر منذ حداثته بفطنته وذكائه ورغبته الشديدة في طلب العلم وتحصيله[3].

([1]) علماء نجد (٢١٨/٣)

([2]) سيرة العلامة السعدي (ص٩)

([3]) علماء نجد (٢١٩/٣).

ثالثا: أخلاقه :

(له أخلاق أرق من النسيم وأعذب من السلسبيل لا يعاتِب على الهفوة ولا يؤاخذ بالجفوة، يتودد ويتحبب إلى البعيد والقريب، يقابل بالبشاشة، ويُحَّيِ بالطلاقة، ويعاشر بالحسنى ويجالس بالمنادمة، ويجاذب أطراف أحاديث الأنس والود، ويعطف على الفقير والصغير ويبذل طاقته ووسعه، ويساعد بماله وجاهه وعلمه ورأيه ومشورته ونصحه بلسان صادق، وقلب خالص، وسر مكتوم، ومهما أردت أن أُعدد فضائله ومحاسنه في مجال الأخلاق الكريمة والشيم الحميدة التي يتحلى بها فإني مقصر وقلمي عاجز، ولا يدرك هذا إلا من عاشره وجالسه؛ لذا فإن الله سبحانه أعطاه محبة في القلوب وثقة في النفوس، فأجمعت البلاد على وده، واتفقت على تقديمه، فصار له زعامة شعبية، فإشارته نافذة وكلمته مسموعة وأمره مطاع)[1] . هكذا وصفه تلميذه عبد الله البسام.

رابعا : طلبه للعلم وحرصه عليه:

كان ابن سعدي . رحمه الله . قد استرعى أنظار الناس منذ حداثة سنه بذكائه القوي، ورغبته الشديدة في طلب العلم وتحصيله، فأوقف لذلك حياته في طلب العلم، فكان لا يشغله عنه شاغل ولا يصرفه عنه صارف، فكان همه في حياته الاستفادة العلمية وحفظ الأوقات في ذلك.

وأول ما قام به من طلب العلم، مبادرته لحفظ كتاب الله، فبدأ بحفظ القرآن من سن مبكرة، حتى أتقنه وأتمه وحفظه عن ظهر قلب في الحادية عشرة من عمره، في مدرسة الشيخ سليمان بن دامغ لتحفيظ القرآن بأم خمار، ثم شرع بعد ذلك في تحصيل سائر العلوم الشرعية.

فأخذ في طلب العلم وتحصيله وتلقيه عن علماء بلده وغيرهم ممن قدم إليه، وشغل أوقاته في ذلك، ورحل إلى العلماء المجاورين لبلده، وانقطع للعلم وتحصيله حفظاً وفهماً ودراسة ومراجعة واستذكاراً وتطبيقاً.

([1]) المصدر نفسه (٣/٢٤٥)

وكان يواظب على دروس العلماء، وعلى من يشعر أنه له منه أدنى فائدة طارحاً التحيز والترفع، وواصل وثابر، وبذل جهده في سبيل ذلك حتى نال في صباه ما لا يناله غيره في زمن طويل، من علوم كثيرة وفنون مختلفة[1].

خامسا : شيوخه:

لقد تلقى الشيخ أنواع العلوم على كثير من العلماء، منهم:

١. الشيخ إبراهيم بن حمد بن جاسر، ولد في بريدة سنة ١٢٤١هـ، وتوفي في الكويت سنة ١٣٤٢هـ.

٢. والشيخ محمد بن عبد الكريم بن إبراهيم بن صالح الشبل. ولد في عنيزة سنة: ١٢٥٧هـ، وتوفي سنة ١٣٤٣هـ .

٣. والشيخ عبد الله بن عائض العريضي الحربي، ولد في عنيزة سنة: ١٢٤٩هـ، وتوفي سنة ١٣٧٥هـ.

وأخذ عنه الفقه وأصوله وعلوم اللغة.

٤. والشيخ صالح بن عثمان بن حمد بن إبراهيم القاضي، ولد في عنيزة سنة: ١٢٨٢هـ. وتوفي سنة: ١٣٥١هـ.

سادسا : تلامذته:

من أبرزهم:

١. الشيخ محمد بن صالح العثيمين.

٢. والشيخ عبد الله بن عبد الرحمن البسام.

٣. والشيخ عبد الله بن عبد العزيز العقيل.

٤. والشيخ عبد العزيز بن محمد السلمان.

---

(1) المصدر نفسه (٣/٢٢٠)

سابعا: مؤلفاته:

للشيخ رحمه الله عدد كثير من المؤلفات والشروح، ومن أبرزها:

١- (تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنَّان):

٢- (تيسير اللطيف المنَّان في خلاصة تفسير القرآن):

٣- (القواعد الحسان لتفسير القرآن):

٤- (المواهب الربانية من الآيات القرآنية):

٥- (فوائد مستنبطة من قصة يوسف عليه السلام)

٦- (الدلائل القرآنية في أن العلوم النافعة العصرية داخلة في الدين الإسلامي)

٧- (بهجة قلوب الأبرار وقرَّة عيون الأخيار في شرح جوامع الأخبار)

٨- (طريق الوصول إلى العلم المأمول بمعرفة القواعد والضوابط والأصول)

٩- (القول السديد في مقاصد التوحيد)

١١- (الأدلة القواطع والبراهين في إبطال أصول الملحدين)

١٢- (تنزيه الدين وحملته ورجاله مما افتراه القصيمي في أغلاله)

١٣- (الدرة المختصرة في محاسن دين الإسلام)

ثامنا: ثناء العلماء عليه.

أ. قال الشيخ عبد الرزاق عفيفي:

"إن من قرأ مصنفات الشيخ عبد الرحمن بن ناصر بن سعدي رحمه الله وتتبع مؤلفاته وخالطه، وسبر حاله أيام حياته، عرف منه الدأب في خدمة العلم اطلاعاً وتعليماً، ووقف منه على حسن السيرة وسماحة الخلق، واستقامة الحال، وإنصاف إخوانه وطلابه من نفسه، وطلب السلامة فيما يجر إلى شر أو يفضي إلى نزاع أو شقاق فرحمه الله رحمة واسعة"[1] .

---

[1] مقدمة كتاب حكم شرب الدخان لابن سعدي ص٣.

جـ. وقال الشيخ محمد حامد الفقي:

"لقد عرفت الشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدي من أكثر من عشرين سنة فعرفت فيه العالم السلفي المحقق، الذي يبحث عن الدليل الصادق، وينقب عن البرهان الوثيق، فيمشي وراءه لا يلوي على شيء...... عرفت فيه العالم السلفي الذي فهم الإسلام الفهم الصادق، وعرف فيه دعوته القويمة الصادقة إلى الأخذ بكل أسباب الحياة العزيزة القوية الكريمة النقية ... "[1].

تاسعا: وفاته:

أصيب عام ١٣٧١هـ بمرض ضغط الدم، وتصلب الشرايين فكان يعتريه مرة بعد مرة وهو صابر عليه، وكانت أعراض المرض تبدو عليه بعض الساعات في الكلام فيقف ولو كان يقرأ القرآن ثم يتكلم.

فاهتمت به الحكومة، حيث أرسل له الملك سعود رحمه الله طائرة خاصة، وفيها طبيبان، قررا بعد الكشف عليه سفره للعلاج في لبنان وصحباه في السفر.

فسافر إلى بيروت في عام ١٣٧٣هـ وبقي هناك شهراً، يعالج حتى شفاه الله، ونصحه الأطباء بالراحة وقلة التفكير والاجهاد. واجتمع في سفره هذا بعدد من العلماء، وتعرف بجملة من الفضلاء، منهم الشيخ العلامة محمد ناصر الدين الألباني.

ثم رجع إلى عنيزة فباشر فيها أعماله، ولم يصبر على ترك العلم فقام فيها تعليماً وإمامةً وخطابةً وتأليفاً وبحثاً؛ لأن هوايته العلم وكان يقول إن راحتي في مزاولة عملي.

فصار المرض يعاوده ثم يشفى، ولا يصده عن الخروج، ويحدث معه رعدة وسكتة لا يقدر معها على الكلام وتبقى دقيقة واحدة ثم تزول بدون تألم سوى برد يتلوه عرق.

وفي شهر جمادى الآخرة سنة ١٣٧٦هـ اشتد عليه المرض أكثر مما كان وصار معه مثل البرد.

وفي ليلة الأربعاء ٢٢ من الشهر المذكور، وبعد فراغه من الدرس اليومي المعتاد، وبعد فراغه من صلاة العشاء، أحس بثقل وضعف في الحركة فأشار إلى أحد تلاميذه

---

[1] سيرة الشيخ عبد الرحمن السعدي، جمع محمد حامد الفقي /٢٨.

بأن يمسكه ويذهب معه إلى البيت ففعل وهرع معه أناس من الحاضرين، فلم يصل إلى البيت إلا وقد أغمي عليه، ثم أفاق بعد ذلك فحمد الله وأثنى عليه، وتكلم مع أهله الحاضرين بكلام حسن طيب، ثم عاوده الإغماء مرة أخرى فلم يتكلم بعد ذلك.

فلما أصبحوا صباح الأربعاء دعوا الطبيب فقرر أن معه نزيفاً في المخ، وإن لم يتدارك فوراً فإنه يموت.

فأبرقوا لابنه وللملك فيصل . لما كان وليا للعهد . فأصدر أمره الكريم عاجلاً بكل ما يلزم فقامت طائرة خاصة وفيها طبيب مخ ومهرة من الأطباء والعلاجات إلى مدينة عنيزة وكان فيها ابنه عبد الله.

ولكن الجو كان ملبداً بالغيوم والرعد والبرق والعواصف الشديدة وفيه أمطار قد تتابعت أكثر من شهر، تهدمت منها البيوت ونزلت أخشاب سطوح المساجد، فلم يساعد الجو على هبوط الطائرة. فتلقت المكالمة وهي في الجو بوفاته فرجعت من حيث أتت.

حيث إنه توفي رحمه الله قبل طلوع فجر يوم الخميس الموافق ٢٣ جمادى الآخرة سنة ١٣٧٦هـ، عن تسع وستين سنة.

وصُلي عليه بعد صلاة الظهر في الجامع الكبير[1].

---

(1) وفي سيرة الشيخ عبد الرحمن السعدي اقرأ :

١ – أثر علامة القصيم الشيخ عبدالرحمن بن ناصر السعدي على الحركة العلمية المعاصرة، للشيخ أ.د. عبدالله بن محمد بن أحمد الطيار.

٢ – الشيخ عبدالرحمن السعدي وجهوده في توضيح العقيدة، للشيخ أ.د. عبدالرزاق بن عبدالمحسن البدر.

٣– مقدمة مجموع مؤلفات الشيخ عبدالرحمن السعدي.

المبحث الثاني: نبذة عن جهود أهل السنة في التأليف في أعمال القلوب

اهتم أهل العلم من أهل السنة بالمسائل المتعلقة بالإيمان، ومنه الأعمال القلبية، وكان من آثار هذا الاهتمام أنه لم يخلُ مصنَّف في العلم من بحث له أو إشارة إليه، وقد أخذ هذا الاهتمام صورا شتى، منها:

١- المصنفات في التفسير: حيث يتعرَّض المفسر عند تفسير الآيات الواردة في الأعمال القلبية إلى بيان أهمية العمل، وربما ذكر شيئا من أحوال السلف مع العمل القلبي.

ومن ذلك ما ذكره ابن جرير الطبري رحمه الله في تفسير قوله تعالى: ﴿ قَدۡ أَفۡلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴾ الشمس: ٩، يقول: "قد أفلح من زكى نفسه، فكثر تطهيرها من الكفر والمعاصي، وأصلحها بالصالحات من الأعمال..."[١] .

ثم روى عن السلف من الآثار ما يؤيد ذلك.

٢- المصنفات في الحديث: فالمصنِّفون من أهل السنة في الحديث والسنن أفردوا كتبًا في الإيمان –الذي أصله عمل القلب- وفي عدد من الأعمال القلبية كالخوف والورع.

ومن ذلك عَقدُ البخاري رحمه الله بابًا في الإيمان في صحيحه، ثم ذكر أبوابًا في عدد من الأعمال القلبية فيه، كالمحبة والحياء والخوف والتوكل والصبر.

٣-المصنفات في الإيمان: ومن صور العناية بهذا الباب أيضًا توالي المصنَّفات في الإيمان عند السلف رحمهم الله تعالى، فذكروا فيها شعبه واستدلوا لها موردين الآيات والأحاديث على مسائل الإيمان وشعبه.

ومن ذلك كتاب الإيمان لأبي عبيد القاسم بن سلام، والإيمان لابن أبي شيبة، والمنهاج في شعب الإيمان للحليمي، وغيرها.

---

(١) تفسير الطبري (٢٤/٤٥٦) .

ومن كتب من المتأخرين على هذا النحو: ابن تيمية رحمه الله، وله في ذلك: الإيمان الكبير، والإيمان الأوسط والاستقامة.

والشيخ عبدالرحمن السعدي في رسالته: التوضيح والبيان لشجرة الإيمان.

وهذه المؤلفات اهتمت بالإشارة إلى الأعمال القلبية ضمن موضوعات متعلقة بالإيمان، ولم تكن مستقلة في باب أعمال القلوب.

أما ما صنفه العلماء في أعمال القلوب خاصة فيمكن جعله على قسمين:

١- مصنفات مفردة في عمل من أعمال القلوب

ومن أوائل من صنف على هذا النحو ابن أبي الدنيا[(١)] رحمه الله، حيث كتب رسائل مختصرة متفرقة في عدد من الأعمال القلبية، منها:

الإخلاص والنية، والتوبة، والتوكل على الله، وحسن الظن بالله، والرضا عن الله بقضائه، والزهد، والشكر، والصبر والثواب عليه، والقناعة والتعفف، ومحاسبة النفس، والوجل والتوثق بالعمل، والورع، واليقين، وغيرها.

من الكتب التي أفردت في أعمال القلوب عند المتقدمين كتاب الزهد للإمام أحمد، جمع فيه من زهد النبي صلى الله عليه وسلم والأنبياء عليهم السلام، إلى زهد الصحابة الكرام رضى الله عنهم، وزهد غير الصحابة رحمة الله عليهم.

وكتاب الزهد لابن المبارك وكتاب الزهد لهناد بن السري.

---

(١) هو عبد الله بن محمد بن عُبيد بن سفيان بن قيس، الأموي، أبو بكر بن أبي الدنيا، البغدادي. الحافظ، المحدث، صاحب التصانيف المشهورة المفيدة، قَالَ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ: كَتَبْتُ عَنْهُ مَعَ أَبِي، وَقَالَ أَبِي: هُوَ صَدُوْقٌ. وَقَالَ الخَطِيْبُ: كَانَ يُؤدِّب غَيْر وَاحِدٍ مِنْ أَولاَد الخُلَفَاء.

وكان من الوعاظ العارفين بأساليب الكلام وما يلائم طبائع الناس. صنّف الكثير حتى بلغت مصنفاته ١٦٤ مصنفاً منها: العظمة؛ الصمت؛ اليقين؛ ذم الدنيا؛ الشكر؛ الفرج بعد الشدة وغيرها. مولده عام ٢٠٨ ووفاته ببغداد عام ٢٨١. انظر: سير أعلام النبلاء ٣٩٧/١٣ وتاريخ بغداد ١٠ / ٨٩ .

قال ابن تيمية: "وَالَّذِينَ جَمَعُوا الْأَحَادِيثَ فِي (الزُّهْدِ وَالرَّقَائِقِ) يَذْكُرُونَ مَا رُوِيَ فِي هَذَا الْبَابِ، وَمِنْ أَجَلِّ مَا صُنِّفَ فِي ذَلِكَ وَأَنْدَرِهِ (كِتَابُ الزُّهْدِ) لِعَبْدِ اللَّهِ بْنِ الْمُبَارَكِ[1]، وَفِيهِ أَحَادِيثُ وَاهِيَةٌ، ...وَأَجْوَدُ مَا صُنِّفَ فِي ذَلِكَ: (الزُّهْدُ) لِلْإِمَامِ أَحْمَدَ، لَكِنَّهُ مَكْتُوبٌ عَلَى الْأَسْمَاءِ، وَزُهْدُ ابْنِ الْمُبَارَكِ عَلَى الْأَبْوَابِ، وَهَذِهِ الْكُتُبُ يُذْكَرُ فِيهَا زُهْدُ الْأَنْبِيَاءِ وَالصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ"[2].

وهكذا فعل شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في رسائل له، منها:

قاعدة في الصبر والشكر، ورسالة في التوبة، وقاعدة في المحبة، ورسالة في التوكل.

ولابن القيم عدد من المؤلفات على هذا النحو، ككتابه: عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين.

ولابن رجب رحمه الله عدد من الرسائل في أعمال مفردة، منها: التخويف من النار والتعريف بحال أهل البوار، والذل والانكسار للعزيز الجبار، وكلمة الإخلاص وتحقيق معناها، وشرح حديث ما ذئبان جائعان، والمحجة في سير الدلجة، واستنشاق نسيم الأنس من نفحات رياض القدس، وغيرها.

ولابن عثيمين رحمه الله من ذلك: فوائد التقوى من القرآن الكريم.

٢- مصنفات في عدد من أعمال القلوب

---

[1] هو الإمام الحافظ شيخ الإسلام، عالم زمانه، طلب العلم وهو ابن عشرين سنة. وكان أوَّل شيخ لقيه: الربيع بن أنس، وأكثر من الترحال والتطواف، وقضى حياته في طلب العلم وفي الغزو وفي التجارة. ولد عام ١١٨هـ، وتوفي عام ١٨١هـ

وكان قد جمع الحديث، والفقه، والعربية، وأيام الناس، والشجاعة، والسخاء، وغير ذلك من خصال الخير.

قال نوفل: رأيت ابن المبارك في النوم، فقلت: ما فعل الله بك؟ قال: غفر لي برحلتي في الحديث، عليك بالقرآن، عليك بالقرآن.

خلّف عدة مصنفات، منها: الزهد والرقائق؛ الجهاد؛ البر والصلة. وجزء من مسنده.

انظر: سير أعلام النبلاء (٧/٣٩١)

(٢) مجموع الفتاوى (١١ / ٥٨٠)

ومن هذه المصنفات: قوت القلوب لأبي طالب المكي[١] ، وإحياء علوم الدين للغزالي[٢] ، وهذان المصنفان فيهما فوائد في أعمال القلوب؛ لكنها لا تخلو من أحاديث موضوعة، وعقائد فاسدة، كما قد بيَّنه شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في تقويمه لهذين

---

[١] هو محمد بن علي بن عطية الحارثي، أبو طالب: واعظ، فقيه. من أهل الجبل (بين بغداد وواسط) نشأ واشتهر بمكة. وسكن بغداد فوعظ فيها، فحفظ عنه الناس أقوالا هجروه من أجلها. وتوفي ببغداد. له قوت القلوب في التصوف، قال الخطيب البغدادي: صنف كتاباً سماه: قوت القلوب. على لسان الصوفية ، ذكر فيه أشياء منكرة مستشنعة ، قال لي أبو طاهر محمد بن على بن العلاف: كان أبو طالب المكي من أهل الجبل ... وقدم بغداد فاجتمع الناس عليه في مجلس الوعظ فخلط في كلامه ، وحُفظ عنه أنه قال: ليس على المخلوقين أضر من الخالق. فبدعه الناس وهجروه وامتنع المكي من الوعظ.

(تاريخ بغداد ٨٩/٣).

ونقل كلام الخطيب مقراً له الحافظُ ابن حجر في كتابه "لسان الميزان" وقال: ذكره النديم في مصنفي المعتزلة. توفى في جمادى الآخرة من سنة ست وثمانين وثلاثمائة.

(لسان الميزان: ٣٠٠/٥)

[٢] الغزالي : هو محمد بن محمد بن محمد بن أحمد الطوسي المعروف بالغزالي ، ولد بطوس سنة (٤٥٠هـ) وكان والده يغزل الصوف ويبيعه في دكانه بطوس .

كان متكلما ثم صار باطنيا ثم تحول إلى التصوف.

قال عنه الذهبي: " الغزالي الشيخ الإمام البحر حجة الإسلام أعجوبة الزمان زين الدين أبو حامد محمد بن محمد بن محمد بن أحمد الطوسي الشافعي الغزالي صاحب التصانيف والذكاء المفرط تَفَقَّه ببلده أولاً ثم تحول إلى نيسابور في مرافقة جماعة من الطلبة فلازم إمام الحرمين فبرع في الفقه في مدة قريبة ومهر في الكلام والجدل حتى صار عين المناظرين ... "

كان قليل البضاعة في الحديث وعلومه ، لا يميز بين صحيح الحديث وسقيمه ، ذكره عنه شيخ الإسلام ابن تيمية – رحمه الله — وقال ابن تيمية عنه : " ولهذا كان أبو حامد مع ما يوجد في كلامه من الرد على الفلاسفة ، وتكفيره لهم ، وتعظيم النبوة ، وغير ذلك ، ومع ما يوجد فيه من أشياء صحيحةٍ حسنةٍ بل عظيمة القدر نافعة ، يوجد في بعض كلامه مادة فلسفية وأمور أضيفت إليه توافق أصول الفلاسفة الفاسدة المخالفة للنبوة ، بل المخالفة لصريح العقل ، حتى تكلم فيه جماعات من علماء خراسان والعراق والمغرب ، ...) العقيدة الأصفهانية ص١٦٩

وقال شيخ الإسلام رحمه الله أيضا : " ... وإن كان بعد ذلك رجع إلى طريقة أهل الحديث وصنف إلجام العوام عن علم الكلام " مجموع الفتاوى ٧٢/٤ .

وانظر: سير أعلام النبلاء ٣٢٣/٩ .

المصنِّفين[١]

ومن أهم المصنفات في هذا الباب: التحفة العراقية في الأعمال القلبية، وأمراض القلوب وشفاؤها، وكلاهما لشيخ الإسلام ابن تيمية، ومع كون الثاني فيه حديث عن قسوة القلوب وعلاجها إلا أنه أوضح فيه عددًا من الأعمال القلبية كالزهد والورع والصبر والرضا.

ومن أوسع المصنفات في هذا الباب: مدارج السالكين لابن القيم ﷺ.

---

[١] فقال: "أَمَّا (كِتَابُ قُوتِ الْقُلُوبِ) و(كِتَابُ الْإِحْيَاءِ) تَبَعٌ لَهُ فِيمَا يَذْكُرُهُ مِنْ أَعْمَالِ الْقُلُوبِ: مِثْلَ الصَّبْرِ وَالشُّكْرِ وَالْحُبِّ وَالتَّوَكُّلِ وَالتَّوْحِيدِ وَنَحْوِ ذَلِكَ.

وَأَبُو طَالِبٍ أَعْلَمُ بِالْحَدِيثِ وَالْأَثَرِ وَكَلَامِ أَهْلِ عُلُومِ الْقُلُوبِ مِنْ الصُّوفِيَّةِ وَغَيْرِهِمْ مِنْ أَبِي حَامِدٍ الْغَزَالِيِّ، وَكَلَامُهُ أَسَدُّ وَأَجْوَدُ تَحْقِيقًا وَأَبْعَدُ عَنْ الْبِدْعَةِ مَعَ أَنَّ فِي (قُوتِ الْقُلُوبِ) أَحَادِيثَ ضَعِيفَةً وَمَوْضُوعَةً وَأَشْيَاءَ كَثِيرَةً مَرْدُودَةً.

وَأَمَّا مَا فِي (الْإِحْيَاءِ) مِنْ الْكَلَامِ فِي الْمُهْلِكَاتِ، مِثْلُ الْكَلَامِ عَلَى: الْكِبْرِ وَالْعُجْبِ وَالرِّيَاءِ وَالْحَسَدِ وَنَحْوِ ذَلِكَ فَغَالِبُهُ مَنْقُولٌ مِنْ كَلَامِ الْحَارِثِ الْمُحَاسَبِيِّ فِي (الرِّعَايَةِ)، وَمِنْهُ مَا هُوَ مَقْبُولٌ وَمِنْهُ مَا هُوَ مَرْدُودٌ وَمِنْهُ مَا هُوَ مُتَنَازَعٌ فِيهِ. و(الْإِحْيَاءُ) فِيهِ فَوَائِدُ كَثِيرَةٌ؛ لَكِنْ فِيهِ مَوَادُّ مَذْمُومَةٌ فَإِنَّهُ فِيهِ مَوَادُّ فَاسِدَةٌ مِنْ كَلَامِ الْفَلَاسِفَةِ تَتَعَلَّقُ بِالتَّوْحِيدِ وَالنُّبُوَّةِ وَالْمَعَادِ فَإِذَا ذَكَرَ مَعَارِفَ الصُّوفِيَّةِ كَانَ بِمَنْزِلَةِ مَنْ أَخَذَ عَدُوًّا لِلْمُسْلِمِينَ أَلْبَسَهُ ثِيَاب الْمُسْلِمِينَ.

وَقَدْ أَنْكَرَ أَئِمَّةُ الدِّينِ عَلَى أَبِي حَامِدٍ هَذَا فِي كُتُبِهِ، وَقَالُوا: مَرَّضَهُ (الشِّفَاءُ) يَعْنِي شِفَاءَ ابْنِ سِينَا فِي الْفَلْسَفَةِ، وَفِيهِ أَحَادِيثُ وَآثَارٌ ضَعِيفَةٌ؛ بَلْ مَوْضُوعَةٌ كَثِيرَةٌ، وَفِيهِ أَشْيَاءُ مِنْ أَغَالِيطِ الصُّوفِيَّةِ وَتُرَّهَاتِهِمْ، وَفِيهِ مَعَ ذَلِكَ مِنْ كَلَامِ الْمَشَايِخِ الصُّوفِيَّةِ الْعَارِفِينَ الْمُسْتَقِيمِينَ فِي أَعْمَالِ الْقُلُوبِ الْمُوَافِقِ لِلْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، وَمِنْ غَيْرِ ذَلِكَ مِنْ الْعِبَادَاتِ وَالْأَدَبِ مَا هُوَ مُوَافِقٌ لِلْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ مَا هُوَ أَكْثَرُ مِمَّا يَرِدُ مِنْهُ فَلِهَذَا اخْتَلَفَ فِيهِ اجْتِهَادُ النَّاسِ وَتَنَازَعُوا فِيهِ" مجموع الفتاوى (٥٥٢/١٠)

الفصل الأول

الفصل الأول : حقيقة القلب وأقسامه وأمراضه :

وفيه مبحثان :

المبحث الأول : حقيقة القلب .

المبحث الثاني : أقسام القلوب وأمراضها .

المطلب الأول : حقيقة القلب لغة .

يطلق القلب في اللغة على الفؤاد ، وعلى رد الشيء من جهة إلى جهة.

قال ابن فارس[1] : " القاف واللام والباء أصلانِ صحيحان: أحدهما يدلّ على خالِص شَيءٍ وشَرِيفِه، والآخَرُ على رَدِّ شيءٍ من جهةٍ إلى جهة.

فالأوّل القَلْبُ: قلب الإنسان وغيره، سمِّي؛ لأنَّه أخْلصُ شيء فيه وأرفَعُه. وخالِصُ كلِّ شيءٍ وأشرفُه قَلْبُه "[2].

ويرِد القلب في القرآن على معان ثلاثة[3] :

١-العقْل، وذلك في مثل قوله تعالى: قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴿٣٧﴾ ﴾ ق: ٣٧ .

٢- الرأي والتدبير، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ﴾ الحشر: ١٤

٣- حقيقة القلب الذي هو في الصّدر؛ قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴿٤٦﴾ ﴾ الحج: ٤٦

---

(١) هو الإِمَامُ، العَلاَّمَةُ، اللُّغَوِيُّ، المحَدِّثُ، أَبُو الحُسَيْنِ أحمد بن فارس بن زكرياء القزويني الرازيّ، أبو الحسين: من أئمة اللغة والأدب. وَصَاحِب كِتَاب مقاييس اللغة، والصاحبي، توفي ٣٩٥ . انظر ترجمته في (السير ١٠٣/١٧) و(الأعلام للزركلي ١٩٣/١)

(٢) مقاييس اللغة (١٧/٥).

(٣) بصائر ذوي التمييز، (٢٨٩/٤) وانظر رسالة القلب في القرآن للدكتور بليل عبدالكريم.

المطلب الثاني : حقيقة القلب شرعا .

يطلق القلب على معنيين:

١-القلب الحسي وهو العضو اللحمي الصنوبري الشكل، الموجود في أيسر صدر الإنسان.

٢-والقلب المعنوي الذي هو لطيفة ربانية روحانية، لها تعلق بالحسي.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية : " لفظ القلب قد يراد به المضغة الصنوبرية الشكل التي في الجانب الأيسر من البدن التي جوفها علقة سوداء كما في الصحيحين عن النبي صلى الله عليه وسلم { إن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح لها سائر الجسد وإذا فسدت فسد لها سائر الجسد }[١] . وقد يراد بالقلب باطن الإنسان مطلقا فإن قلب الشيء باطنه كقلب الحنطة واللوزة والجوزة ونحو ذلك ومنه سمي القليب قليبا لأنه أخرج قلبه وهو باطنه"[٢]

وقال ابن القيم رحمه الله : "ويطلق القلب على معنيين : أحدهما أمر حسي وهو العضو اللحمي الصنوبري الشكل المودع في الجانب الأيسر من الصدر وفي باطنه تجويف وفي التجويف دم أسود وهو منبع الروح والثاني أمر معنوي وهو لطيفة ربانية رحمانية روحانية لها بهذا العضو تعلق واختصاص وتلك الحقيقة هي حقيقة الإنسان"[٣]

ومن المصطلحات المرادفة للقلب في القرآن الكريم[٤] :

أ- الفؤاد:

وإطلاقه على المعنوي لا على الجارحة، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ

---

[١] أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الإيمان، باب فضل من استبرأ لدينه (١/ ٢٠) ح:(٥٢)، ومسلم في صحيحه، كتاب المساقاة، باب أخذ الحلال وترك الشبهات، (٣/ ١٢١٩) ح:(١٥٩٩).

[٢] مجموع الفتاوى (٩/٣٠٣)

[٣] التبيان (٦٢٦)

[٤] انظر : القلب في القرآن للدكتور بليل عبدالكريم.

عِلْمٌۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴿٣٦﴾ ﴾ الإسراء: ٣٦

ب- اللُّبّ:

وهو القلب الخالص.

وورد لفظ اللبّ في القرآن الكريم في صيغة الجمع المضاف لاسم الإشارة، **قَالَ تَعَالَىٰ:** ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي ﴿١١١﴾ ﴾ يوسف: ١١١

ج- الأبصار:

وهي البصيرة، وقد وردت بصيغة الجمع في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُوْلِي ٱلْأَبْصَٰرِ ﴿١٣﴾ ﴾ آل عمران: ١٣ قال الراغب: : "يقال لقوَّة القلب المدركة: بصيرة، ولا يكاد يقال للجارحة: بصيرة، وقلَّما يقال: بَصُرت في الحاسَّة، إذا لم تضامّه رؤية القلب"[١] .

د- الصدر:

وهو أعلى ومقدَّم كل شيء وأوله، **قَالَ تَعَالَىٰ:** ﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴿١﴾ ﴾ الشرح: ١

---

[١] المفردات (ص٥٩)

المبحث الثاني: أقسام القلوب وأمراضها

وفيه تمهيد وأربعة مطالب:

تمهيد: بيان انقسام القلوب

- **المطلب الأول:**

القلب السليم: حقيقته وصفاته

- **المطلب الثاني:**

القلب الميت: حقيقته وصفاته

- **المطلب الثالث:**

القلب المريض: حقيقته وصفاته

- **المطلب الرابع:**

أمراض القلوب: حقيقتها وأقسامها وخطورتها

تمهيد

في بيان انقسام القلوب

دلت النصوص الشرعية على انقسام القلوب باعتبارات مختلفة، فبالنظر إلى أصحابها تنقسم القلوب إلى: قلوب المؤمنين، وقلوب الكافرين، وقلوب المنافقين.

ومن جهة حالها التي تكون عليها تنقسم إلى: قلب سليم، وقلب ميت، وقلب مريض.

ومما يدل على ذلك قوله تعالى: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٖ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلۡقَى ٱلشَّيۡطَٰنُ فِيٓ أُمۡنِيَّتِهِۦ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلۡقِي ٱلشَّيۡطَٰنُ ثُمَّ يُحۡكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ﴿٥٢﴾ لِّيَجۡعَلَ مَا يُلۡقِي ٱلشَّيۡطَٰنُ فِتۡنَةٗ لِّلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ وَٱلۡقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمۡۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَفِي شِقَاقِۭ بَعِيدٖ ﴿٥٣﴾ وَلِيَعۡلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤۡمِنُواْ بِهِۦ فَتُخۡبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمۡۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴾ الحج: ٥٢ – ٥٤.

قال الشيخ عبد الرحمن السعدي رحمه الله: "ذكر الله في كتابه عدة آيات فيها وصف القلوب بالمرض وبالعمى وبالقسوة، وبجعل الموانع عليها من الران، والأكنة والحجاب، وبموتها وبحيرتها، فاعلم أن القلب يكون صحيحًا ويكون مريضًا، ويجتمع فيه المرض والموانع من وصول الصحة، وقد يكون لينًا وقد يكون قاسيًا"(١).

قال شيخ الإسلام رحمه الله: "جَعَلَ اللَّهُ الْقُلُوبَ ثَلَاثَةَ أَقْسَامٍ: قَاسِيَةً وَذَاتَ مَرَضٍ وَمُؤْمِنَةً مُخْبِتَةً؛ وَذَلِكَ لِأَنَّهَا إمَّا أَنْ تَكُونَ يَابِسَةً جَامِدَةً لَا تَلِينُ لِلْحَقِّ اعْتِرَافًا وَإِذْعَانًا أَوْ لَا تَكُونُ يَابِسَةً جَامِدَةً.

فـ(الْأَوَّلُ) هُوَ الْقَاسِي وَهُوَ الْجَامِدُ الْيَابِسُ بِمَنْزِلَةِ الْحَجَرِ لَا يَنْطَبِعُ وَلَا يُكْتَبُ فِيهِ

---

(١) تيسير اللطيف المنان (مجموع المؤلفات ٣/٢٩٧)

الْإِيمَانُ وَلَا يَرْتَسِمُ فِيهِ الْعِلْمُ؛ لِأَنَّ ذَلِكَ يَسْتَدْعِي مَحَلًّا لَيِّنًا قَابِلًا.

و(الثَّانِي) لَا يَخْلُو إمَّا أَنْ يَكُونَ الْحَقُّ ثَابِتًا فِيهِ لَا يَزُولُ عَنْهُ لِقُوَّتِهِ مَعَ لِينِهِ أَوْ يَكُونَ لِينُهُ مَعَ ضَعْفٍ وَانْحِلَالٍ، فَالثَّانِي هُوَ الَّذِي فِيهِ مَرَضٌ، وَالْأَوَّلُ هُوَ الْقَوِيُّ اللَّيِّنُ، وَذَلِكَ أَنَّ الْقَلْبَ بِمَنْزِلَةِ أَعْضَاءِ الْجَسَدِ كَالْيَدِ مَثَلًا فَإِمَّا أَنْ تَكُونَ جَامِدَةً يَابِسَةً لَا تَلْتَوِي وَلَا تَبْطِشُ أَوْ تَبْطِشُ بِعُنْفِ فَذَلِكَ مِثْلُ الْقَلْبِ الْقَاسِي أَوْ تَكُونَ ضَعِيفَةً مَرِيضَةً عَاجِزَةً لِضَعْفِهَا وَمَرَضِهَا، فَذَلِكَ مِثْلُ الَّذِي فِيهِ مَرَضٌ أَوْ تَكُونَ بَاطِشَةً بِقُوَّةِ وَلِينٍ فَهُوَ مِثْلُ الْقَلْبِ الْعَلِيمِ الرَّحِيمِ فَبِالرَّحْمَةِ خَرَجَ عَنْ الْقَسْوَةِ وَبِالْعِلْمِ خَرَجَ عَنْ الْمَرَضِ؛ فَإِنَّ الْمَرَضَ مِنْ الشُّكُوكِ وَالشُّبُهَاتِ؛ وَلِهَذَا وُصِفَ مَنْ عَدَا هَؤُلَاءِ بِالْعِلْمِ وَالْإِيمَانِ وَالْإِخْبَاتِ"[1].

وقال ابن القيم رحمه الله: "وقد ذكر سبحانه أنواع القلوب في قوله: ﴿ لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَفِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا۟ بِهِۦ فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْ ... ﴾ فذكر القلب المريض وهو الضعيف المنحل الذي لا تثبت فيه صورة الحق والقلب القاسي اليابس الذي لا يقبلها ولا تنطبع فيه، فهذان القلبان شقيان معذبان، ثم ذكر القلب المخبت المطمئن إليه، وهو الذي ينتفع بالقرآن ويزكو به"[2].

فانقسام القلوب أمر بيَّنته النصوص، وهو أيضا يُستفاد من النظر إلى حال الإنسان مع الإيمان بالله؛ فأهل الإيمان الكامل هؤلاء هم أصحاب القلوب السليمة، وأهل العصيان من المؤمنين هم أصحاب القلوب المريضة، وأما الكفار فهم أصحاب القلوب الميتة.

---

(١) مجموع الفتاوى (١٣/٢٧١)

(٢) شفاء العليل (١٠٦)

المطلب الأول:

القلب السليم: حقيقته وصفاته

حقيقة القلب السليم:

ورد ذكر القلب السليم في القرآن في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ الشعراء: ٨٨ – ٨٩.

وقد جاء في كلام أهل العلم بيان لمعنى القلب السليم، فقد قال شيخ الإسلام ﷺ: "وهذا هو القلب السليم الذي قال اللَّه فيه: ﴿إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾، وهو سلامة القلب عن الاعتقادات الفاسدة، والإرادات الفاسدة، وما يتبع ذلك ..."[(١)].

وقال ابن القيم ﷺ: "هو السليمُ من الآفات التي تعتري القلوب المريضة، من مرض الشبهة التي توجب اتباع الظن، ومرضِ الشهوة التي توجب اتباع ما تهوى الأنفس، فالقلبُ السليمُ الذي سَلِمَ من هذا وهذا"[(٢)].

وقد عرفه الشيخ عبد الرحمن السعدي ﷺ بقوله: "والقلب السليم معناه: الذي سلم من الشرك والشك ومحبة الشر والإصرار على البدعة والذنوب، ويلزم من سلامته مما ذكر اتصافه بأضدادها من الإخلاص والعلم واليقين ومحبة الخير وتزيينه في قلبه وأن تكون إرادته ومحبته تابعة لمحبة الله وهواه تابعًا لما جاء عن الله"[(٣)].

قال الشيخ عبد الرحمن السعدي ﷺ: "فأما القلب الصحيح فهو السليم من جميع الآفات، وهو القلب الذي صحت وقويت قوته العلمية، وقوته العملية الإرادية، وهو الذي عرف الحق فاتبعه بلا تردد، وعرف الباطل فاجتنبه بلا توقف، فهذا هو القلب الصحيح الحي السليم، وصاحبه من أولي النُّهى وأولي الحجا وأولي الألباب وأولي

---

(١) مجموع الفتاوى (١٠/٣٣٧)

(٢) الروح (ص٢٤٤)

(٣) تفسير السعدي (مجموع المؤلفات ٢/٨٢٧)

الأبصار، والْمُخْبت لله والمنيب إليه"[١].

وقال رحمه الله في بيان أوسع لمعناه: "والجامع لمعناه أنه سليم من الشرور كلها ومن أسبابها، ملآن من الخير والبر والكرم، سليم من الشبهات القادحة في العلم واليقين، ومن الشهوات الحائلة بين العبد وبين كماله، سليم من الكبر ومن الرياء والشقاق والنفاق وسوء الأخلاق، وسليم من الغل والحقد، ملآن بالتوحيد والإيمان والتواضع للحق وللخلق، والنصيحة للمسلمين والرغبة في عبودية الله، وفي نفع عباد الله"[٢].

وأصل سلامة القلب أن يكون قائمًا بحقوق الله وحقوق المخلوقين، قال الشيخ عبد الرحمن السعدي رحمه الله: "فالإنابة هي انجذاب القلب، وإقباله التام على الله، ويتحقق ذلك بالإخلاص لله في كلِّ ما يأتي العبد وما يذر، في معاملته لله والقيام بعبوديته، وفي معاملته للخلق والقيام بحقوقهم. فأصل استقامة القلب بهاذين الأمرين، فإن المنيب المخلص لله تعالى قد استقام على الصراط المستقيم، وقد تواطأ ظاهره وباطنه على الخير المحض، وقد سهلت عليه الأعمال بما في قلبه من قوة الإنابة، وما يرجو من ربه من جزيل الثواب"[٣].

صفات القلب السليم:

جاء في النصوص بيان صفات القلب السليم الصالح الحي، منها:

١- الخشوع:

قال تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ ...﴾ الحديد: ١٦.

قال الشيخ عبد الرحمن السعدي رحمه الله: "أي: ألم يجئ الوقت الذي تلين به قلوبهم، وتخشع لذكر الله، الذي هو القرآن، وتنقاد لأوامره وزواجره، وما نزل من الحق

---

(١) تيسير اللطيف المنان (مجموع المؤلفات ٣/٢٩٧)

(٢) تيسير اللطيف المنان (مجموع المؤلفات ٣/٢٠٦)

(٣) فتح الرحيم الملك العلام (مجموع المؤلفات ٣/٨٢٤)

الذي جاء به محمد ﷺ؟

وهذا فيه الحث على الاجتهاد على خشوع القلب لله تعالى، ولما أنزله من الكتاب والحكمة..."[١].

٢- الإنابة:

قال تعالى: ﴿...وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ﴾ ق: ٣٣.

قال الشيخ عبد الرحمن السعدي رحمه الله: "أي: وصفه الإنابة إلى مولاه، وانجذاب دواعيه إلى مراضيه"[٢].

٣- الوجل:

قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ ...﴾ الحج: ٣٥.

قال الشيخ عبد الرحمن السعدي رحمه الله: "أي: خافت ورهبت، فأوجبت لهم خشية اللّه تعالى الانكفاف عن المحارم"[٣].

قال الشيخ عبد الرحمن السعدي رحمه الله: "﴿ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾، أي: خوفًا وتعظيمًا، فتركوا لذلك المحرمات، لخوفهم ووجلهم من الله وحده"[٤].

٤- الإخبات:

قال تعالى: ﴿...فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْ ...﴾ الحج: ٥٤.

قال الشيخ عبد الرحمن السعدي رحمه الله: "أي: تخشع وتخضع، وتسلم لحكمته"[٥].

---

(١) تفسير السعدي (مجموع المؤلفات ١١٥٣/٣)

(٢) تفسير السعدي (مجموع المؤلفات ١١١٢/٢)

(٣) تفسير السعدي (مجموع المؤلفات ٧٥٣/٢)

(٤) تفسير السعدي (مجموع المؤلفات ٤٩٩/٣)

(٥) تفسير السعدي (مجموع المؤلفات ٧٥٩/٢)

٥- اللين:

قال تعالى: ﴿ ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ كِتَٰبٗا مُّتَشَٰبِهٗا مَّثَانِيَ تَقۡشَعِرُّ مِنۡهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمۡ وَقُلُوبُهُمۡ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهۡدِي بِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٍ ﴾ الزمر: ٢٣.

قال الشيخ عبد الرحمن السعدي رحمه الله: "﴿ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمۡ وَقُلُوبُهُمۡ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِ ﴾، أي: عند ذكر الرجاء والترغيب، فهو تارة يرغبهم لعمل الخير، وتارة يرهبهم من عمل الشر"(١).

٦- التقوى:

قال تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمۡ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقۡوَى ٱلۡقُلُوبِ ٣٢ لَكُمۡ فِيهَا مَنَٰفِعُ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى ثُمَّ مَحِلُّهَآ إِلَى ٱلۡبَيۡتِ ٱلۡعَتِيقِ ﴾ الحج: ٣٢ - ٣٣.

قال الشيخ عبد الرحمن السعدي رحمه الله: "فتعظيم شعائر الله صادر من تقوى القلوب، فالمعظم لها يبرهن على تقواه وصحة إيمانه؛ لأن تعظيمها تابع لتعظيم الله وإجلاله"(٢).

٧- الهداية:

قال تعالى: ﴿ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۗ وَمَن يُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ يَهۡدِ قَلۡبَهُۥۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ﴾ التغابن: ١١.

قال الشيخ عبد الرحمن السعدي رحمه الله: "فإذا آمن أنها من عند الله، فرضي بذلك، وسلم لأمره، هدى الله قلبه، فاطمأن ولم ينزعج عند المصائب، كما يجري لمن لم يهد الله قلبه، بل يرزقه الثبات عند ورودها والقيام بموجب الصبر"(٣).

---

(١) تفسير السعدي (مجموع المؤلفات ٣/٩٩٩)

(٢) تفسير السعدي (مجموع المؤلفات ٢/٧٥٣)

(٣) تفسير السعدي (مجموع المؤلفات ٣/١١٨٨)

٨- الطمأنينة:

قال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطۡمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكۡرِ ٱللَّهِۗ أَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ ﴾ الرعد: ٢٨

قال الشيخ عبد الرحمن السعدي رحمه الله: "ثم ذكر تعالى علامة المؤمنين فقال: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطۡمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكۡرِ ٱللَّهِ ﴾، أي: يزول قلقها واضطرابها، وتحضرها أفراحها ولذاتها"[١].

وقال رحمه الله: "﴿ لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيّٗا ﴾، أي: حي القلب واعيه، فهو الذي يزكو على هذا القرآن، وهو الذي يزداد من العلم منه والعمل، ويكون القرآن لقلبه بمنزلة المطر للأرض الطيبة الزاكية"[٢].

(١) تفسير السعدي (مجموع المؤلفات ٣/٥٨٨)

(٢) تفسير السعدي (مجموع المؤلفات ٣/٩٦٦)

المطلب الثاني:

القلب الميت: حقيقته وصفاته

حقيقة القلب الميت:

جاء في القرآن وصف القلب بالموت في آيات كثيرة، منها:

- ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَـٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ...﴾ الأنعام: ١٢٢.

"أي: ﴿أَوَمَن كَانَ﴾ من قبل هداية الله له ﴿مَيْتًا﴾ في ظلمات الكفر والجهل والمعاصي، ﴿فَأَحْيَيْنَاهُ﴾ بنور العلم والإيمان والطاعة، فصار يمشي بين الناس في النور، متبصرًا في أموره، مهتديًا لسبيله، عارفًا للخير مؤثرًا له، مجتهدًا في تنفيذه في نفسه وغيره، عارفًا بالشر مبغضًا له، مجتهدًا فيتركه وإزالته عن نفسه وعن غيره"[١].

- وقال تعالى: ﴿فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ ...﴾ الروم: ٥٢.

- وقال تعالى: ﴿...وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِى ٱلْقُبُورِ﴾ فاطر: ٢٢، "أي: أموات القلوب، أو كما أن دعاءك لا يفيد سكان القبور شيئًا، كذلك لا يفيد المعرض المعاند شيئًا، ولكن وظيفتك النذارة، وإبلاغ ما أرسلت به، قبل منك أم لا"[٢].

- قال ابن القيم رحمه الله: " القلب الميت الذي لا حياة به فهو لا يعرف ربه ولا يعبده بأمره وما يحبه ويرضاه بل هو واقف مع شهواته ولذاته، ولو كان فيها سخط ربه وغضبه فهو لا يبالي، إذا فاز بشهوته وحظه رضي ربه أم سخط فهو متعبد لغير الله: حبًّا وخوفًا ورجاء ورضا وسخطًا وتعظيمًا وذلًّا، إن أحب أحب لهواه، وإن أبغض أبغض لهواه، وإن أعطى أعطى لهواه، وإن منع منع لهواه، فهواه آثر عنده وأحب إليه من رضا مولاه، فالهوى إمامه والشهوة قائده والجهل سائقه والغفلة مركبه ... فمخالطة صاحب هذا القلب سقم، ومعاشرته سم، ومجالسته هلاك"[٣].

---

(١) تفسير السعدي (مجموع المؤلفات ٢/٣٨٨)

(٢) تفسير السعدي (مجموع المؤلفات ٢/٩٥١)

(٣) إغاثة اللهفان (١/٩)

وهذا النوع عبر عنه السعدي رحمه الله بالقلب القاسي فقال: "وأما القلب القاسي فهو الذي لا يلين لمعرفة الحق، وإن عرفه لا يلين للانقياد له، فتأتيه المواعظ التي تلين الحديد وقلبه لا يتأثر بذلك، إما لقسوته الأصلية أو لعقائد منحرفة اعتقدها ورسخ قلبه عليها، وصعب عليه الانقياد للحق إذا خالفها، وقد يجتمع الأمران، وأما الران والأكنة والأغطية التي تكون على القلوب فإنها من آثار كسب العبد وجرائمه، فإذا أعرض عن الحق وعارض الحق، وجاءه الحق فردَّه وفتح الله له أبواب الرشد فأغلقها عن نفسه عاقبه الله بهذا العمل بأن سدَّ عنه طرق الهداية التي كانت مفتوحة له ومتيسرة، فتكبر عنها وردَّها، فطبع على قلبه وختم عليه، وأحاطت به الجرائم ورانت عليه الذنوب وغطت قلبه، وجعلت بينه وبين الحق حجابًا وأقفلت القلب"(١).

صفات القلب الميت:

وصف الله تعالى هذا القلب بصفات، منها:

١- القسوة:

قال الشيخ عبد الرحمن السعدي رحمه الله: "﴿...وَٱلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ...﴾ الحج:٥٣، أي: الغليظة، التي لا يؤثر فيها زجر ولا تذكير، ولا تفهم عن الله وعن رسوله لقسوتها"(٢).

وقال تعالى: ﴿...وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً...﴾ المائدة: ١٣، "أي: غليظة لا تجدي فيها المواعظ، ولا تنفعها الآيات والنذر، فلا يرغبهم تشويق، ولا يزعجهم تخويف، وهذا من أعظم العقوبات على العبد، أن يكون قلبه بهذه الصفة التي لا يفيده الهدى، والخير إلا شرًّا"(٣).

وقال تعالى: ﴿...فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ...﴾ الزمر: ٢٢، "أي: لا

---

(١) تيسير اللطيف المنان (مجموع المؤلفات ٣/٢٩٧)

(٢) تفسير السعدي (مجموع المؤلفات ٣/٧٥٩)

(٣) تفسير السعدي (مجموع المؤلفات ٣/٣٢٧)

تلين لكتابه، ولا تتذكر آياته، ولا تطمئن بذكره، بل هي معرضة عن ربها، ملتفتة إلى غيره، فهؤلاء لهم الويل الشديد، والشر الكبير"[١].

٢- الختم:

قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ ءَأَنذَرۡتَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تُنذِرۡهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ۝٦ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ وَعَلَىٰ سَمۡعِهِمۡۖ وَعَلَىٰٓ أَبۡصَٰرِهِمۡ غِشَٰوَةٞۖ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ﴾ البقرة: ٦ - ٧.

قال الشيخ عبد الرحمن السعدي رحمه الله: "أي: طبع عليها بطابع لا يدخلها الإيمان، ولا ينفذ فيها، فلا يعون ما ينفعهم، ولا يسمعون ما يفيدهم"[٢].
"وإذا ختم على قلبه انحسم الأمر كله وانقطع"[٣].

٣- الطبع:

قال الشيخ عبد الرحمن السعدي رحمه الله: "﴿ كَذَٰلِكَ يَطۡبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ ﴾ الروم: ٥٩، فلا يدخلها خير ولا تدرك الأشياء على حقيقتها بل ترى الحق باطلًا والباطل حقًّا"[٤].

٤- القفل:

قال تعالى: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلۡقُرۡءَانَ أَمۡ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقۡفَالُهَآ ﴾ محمد: ٢٤.

قال الشيخ عبد الرحمن السعدي رحمه الله: "أي: قد أغلق على ما فيها من الشر وأقفلت، فلا يدخلها خير أبدًا"[٥].

---

(١) تفسير السعدي (مجموع المؤلفات ٣/٩٩٨)
(٢) تفسير السعدي (مجموع المؤلفات ٣/١٠٧)
(٣) تفسير السعدي (مجموع المؤلفات ٣/١٠٤٨)
(٤) تفسير السعدي (مجموع المؤلفات ٣/١٠١٠)
(٥) تفسير السعدي (مجموع المؤلفات ٣/٧٥٩)

٥- عليها أكنة:

قال تعالى: ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ ۖ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا ۚ وَإِن يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا بِهَا ۚ حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴾ الأنعام: ٢٥.

قال الشيخ عبد الرحمن السعدي رحمه الله: "﴿ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً ﴾، أي: أغطية وأغشية لا يفقهون معها القرآن بل يسمعونه سماعًا تقوم به عليهم الحجة"(١).

٦- عليها غلاف:

قال تعالى: ﴿ وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ ۚ بَل لَّعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ ﴾ البقرة:٨٨، "أي: عليها غلاف وأغطية، فلا تفقه ما تقول"(٢).

٧- عليها الرين:

قال تعالى: ﴿ كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ المطففين: ١٤.

قال الشيخ عبد الرحمن السعدي رحمه الله: "وأما من أنصف، وكان مقصوده الحق المبين، فإنه لا يكذب بيوم الدين، لأن الله قد أقام عليه من الأدلة القاطعة والبراهين الساطعة، ما يجعله حق اليقين، وصار لقلوبهم مثل الشمس للأبصار، بخلاف من ران على قلبه كسبه، وغطته معاصيه، فإنه محجوب عن الحق"(٣).

٨- الزيغ:

قال تعالى: ﴿ ...فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ ... ﴾ آل عمران: ٧.

قال الشيخ عبد الرحمن السعدي رحمه الله: "أي: ميل عن الاستقامة بأن فسدت

---

(١) تفسير السعدي (مجموع المؤلفات ٣/٣٦٥)

(٢) تفسير السعدي (مجموع المؤلفات ٢/١٣٠)

(٣) تفسير السعدي (مجموع المؤلفات ٣/١٢٤٧)

مقاصدهم، وصار قصدهم الغي والضلال وانحرفت قلوبهم عن طريق الهدى والرشاد"[١].

وقال تعالى: ﴿...مِنۢ بَعۡدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٖ مِّنۡهُمۡ...﴾ التوبة:١١٧، "أي: تنقلب قلوبهم، ويميلوا إلى الدعة والسكون، ولكن اللّه ثبتهم وأيدهم وقواهم. وزَيْغُ القلب هو انحرافه عن الصراط المستقيم، فإن كان الانحراف في أصل الدين، كان كفرًا، وإن كان في شرائعه، كان بحسب تلك الشريعة التي زاغ عنها، إما قصر عن فعلها، أو فعلها على غير الوجه الشرعي"[٢].

قال الشيخ عبد الرحمن السعدي رحمه الله: "﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ﴾ أي: انصرفوا عن الحق بقصدهم ﴿أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡ﴾ عقوبة لهم على زيغهم الذي اختاروه لأنفسهم ورضوه لها، ولم يوفقهم الله للهدى، لأنهم لا يليق بهم الخير، ولا يصلحون إلا للشر"[٣].

---

(١) تفسير السعدي (مجموع المؤلفات ٢/٢٠٩)

(٢) تفسير السعدي (مجموع المؤلفات ٣/٥٠٢)

(٣) تفسير السعدي (مجموع المؤلفات ٣/٧٥٩)

المطلب الثالث:

القلب المريض: حقيقته وعلاماته

حقيقة القلب المريض:

تقدم عند الكلام عن القلب السليم أن صحة القلب هي سلامته من جميع الآفات، صحَّت قوته العلمية فعرف الحق واتبعه، وصحَّت قوته العملية الإرادية، فعرف الباطل واجتنبه.

ومرض القلب هو اختلال إحدى القوتين، وينتج عنه إما شبهة تخالف خبر الله، أو شهوة تخالف أمره.

قال الشيخ عبد الرحمن السعدي رحمه الله: "وأما القلب المريض فهو الذي انحرفت إحدى قوتيه العلمية أو العملية أو كليهما.

فمرض الشبهات والشكوك الذي هو مرض المنافقين لما اختل علمهم وبقيت قلوبهم في شكوك واضطراب، ولم تتوجه إلى الخير، كان مرضها مهلكًا.

ومرض الشهوات الذي هو ميل القلب إلى المعاصي مخل بقوة القلب العملية"(١).

قال شيخ الإسلام رحمه الله موضحًا حقيقة مرض القلب: "وَالْمَرَضُ دُونَ الْمَوْتِ، فَالْقَلْبُ يَمُوتُ بِالْجَهْلِ الْمُطْلَقِ وَيَمْرَضُ بِنَوْعٍ مِنْ الْجَهْلِ، فَلَهُ مَوْتٌ وَمَرَضٌ وَحَيَاةٌ وَشِفَاءٌ وَحَيَاتُهُ وَمَوْتُهُ وَمَرَضُهُ وَشِفَاؤُهُ أَعْظَمُ مِنْ حَيَاةِ الْبَدَنِ وَمَوْتِهِ وَمَرَضِهِ وَشِفَائِهِ؛ فَلِهَذَا مَرَضُ الْقَلْبِ إذَا وَرَدَ عَلَيْهِ شُبْهَةٌ أَوْ شَهْوَةٌ قَوَّتْ مَرَضَهُ، وَإِنْ حَصَلَتْ لَهُ حِكْمَةٌ وَمَوْعِظَةٌ كَانَتْ مِنْ أَسْبَابِ صَلَاحِهِ وَشِفَائِهِ. قَالَ تَعَالَى: ﴿ لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ... ﴾؛ لِأَنَّ ذَلِكَ أَوْرَثَ شُبْهَةً عِنْدَهُمْ وَالْقَاسِيَةُ قُلُوبُهُمْ لِيُبْسِهَا فَأُولَئِكَ قُلُوبُهُمْ ضَعِيفَةٌ بِالْمَرَضِ فَصَارَ مَا أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لَهُمْ، وَهَؤُلَاءِ كَانَتْ قُلُوبُهُمْ قَاسِيَةً عَنْ الْإِيمَانِ فَصَارَ فِتْنَةً لَهُمْ. وَقَالَ: ﴿ لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْمُرْجِفُونَ فِى ٱلْمَدِينَةِ... ﴾، كَمَا قَالَ: ﴿ ...وَلِيَقُولَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ... ﴾، لَمْ تَمُتْ

(١) تيسير اللطيف المنان (مجموع المؤلفات ٣/٢٩٧)

قُلُوبُهُمْ كَمَوْتِ الْكُفَّارِ وَالْمُنَافِقِينَ وَلَيْسَتْ صَحِيحَةً صَالِحَةً كَصَالِحِ قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ بَلْ فِيهَا مَرَضُ شُبْهَةٍ وَشَهَوَاتٍ، وَكَذَلِكَ ﴿...فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ...﴾، وَهُوَ مَرَضُ الشَّهْوَةِ، فَإِنَّ الْقَلْبَ الصَّحِيحَ لَوْ تَعَرَّضَتْ لَهُ الْمَرْأَةُ لَمْ يَلْتَفِتْ إلَيْهَا بِخِلَافِ الْقَلْبِ الْمَرِيضِ بِالشَّهْوَةِ فَإِنَّهُ لِضَعْفِهِ يَمِيلُ إلَى مَا يَعْرِضُ لَهُ مِنْ ذَلِكَ بِحَسَبِ قُوَّةِ الْمَرَضِ وَضَعْفِهِ، فَإِذَا خَضَعْنَ بِالْقَوْلِ طَمِعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ.

وَالْقُرْآنُ شِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَمَنْ فِي قَلْبِهِ أَمْرَاضُ الشُّبُهَاتِ وَالشَّهَوَاتِ فَفِيهِ مِنْ الْبَيِّنَاتِ مَا يُزِيلُ الْحَقَّ مِنْ الْبَاطِلِ فَيُزِيلُ أَمْرَاضَ الشُّبْهَةِ الْمُفْسِدَةِ لِلْعِلْمِ وَالتَّصَوُّرِ وَالْإِدْرَاكِ بِحَيْثُ يَرَى الْأَشْيَاءَ عَلَى مَا هِيَ عَلَيْهِ، وَفِيهِ مِنْ الْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ بِالتَّرْغِيبِ وَالتَّرْهِيبِ وَالْقَصَصِ الَّتِي فِيهَا عِبْرَةٌ مَا يُوجِبُ صَلَاحَ الْقَلْبِ، فَيَرْغَبُ الْقَلْبُ فِيمَا يَنْفَعُهُ وَيَرْغَبُ عَمَّا يَضُرُّهُ فَيَبْقَى الْقَلْبُ مُحِبًّا لِلرَّشَادِ مُبْغِضًا لِلْغَيِّ بَعْدَ أَنْ كَانَ مُرِيدًا لِلْغَيِّ مُبْغِضًا لِلرَّشَادِ"(١).

والآيات التي دلت على مرض القلب كثيرة، منها ما يأتي:

الأول: قال الله تعالى: ﴿فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ...﴾ البقرة: ١٠.

قال الشيخ عبد الرحمن السعدي رحمه الله: "والمراد بالمرض هنا: مرض الشك والشبهات والنفاق؛ لأن القلب يعرض له مرضان يخرجانه عن صحته واعتداله: مرض الشبهات الباطلة، ومرض الشهوات المردية، فالكفر والنفاق والشكوك والبدع، كلها من مرض الشبهات، والزنا ومحبة الفواحش والمعاصي وفعلها، من مرض الشهوات، كما قال تعالى: ﴿...فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ...﴾، وهي شهوة الزنا، والمعافى من عوفي من هذين المرضين، فحصل له اليقين والإيمان، والصبر عن كل معصية، فرفل في أثواب العافية"(٢).

الثاني: قال الله تعالى: ﴿فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم...﴾ المائدة: ٥٢.

---

(١) مجموع الفتاوى (١٠/ ٩٣، ٩٤)

(٢) تفسير السعدي (مجموع المؤلفات ٣/١٠٨)

"أي: شك ونفاق، وضعف إيمان"[1].

الثالث: قال الله تعالى: ﴿ إِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ... ﴾ الأنفال:٤٩.

قال الشيخ عبد الرحمن السعدي ﷺ: "أي: شك وشبهة، من ضعفاء الإيمان، للمؤمنين حين أقدموا – مع قِلَّتهم – على قتال المشركين مع كثرتهم"[2].

الرابع: قال الله تعالى: ﴿ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ ... ﴾ التوبة: ١٢٥.

قال الشيخ عبد الرحمن السعدي ﷺ: "أي: شك ونفاق ﴿ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ ﴾، أي: مرضًا إلى مرضهم، وشكًّا إلى شكهم"[3].

علامات القلب المريض:

ومن علامات مرض القلب ميله إلى المعصية، ولأجل ذا نهى الله النساء عن الخضوع بالقول عند الرجال "فلهذا أرشدهن إلى قطع وسائل المحرم، فقال: ﴿ ...فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ... ﴾ الأحزاب: ٣٢، أي: في مخاطبة الرجال، أو بحيث يسمعون فَتَلِنَّ في ذلك، وتتكلمن بكلام رقيق يدعو ويطمع ﴿ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ ﴾، أي: مرض شهوة الزنا، فإنه مستعد، ينظر أدنى محرك يحركه، لأن قلبه غير صحيح فإن القلب الصحيح ليس فيه شهوة لما حرم اللّه، فإن ذلك لا تكاد تُمِيلُه ولا تحركه الأسباب، لصحة قلبه، وسلامته من المرض.

بخلاف مريض القلب، الذي لا يتحمل ما يتحمل الصحيح، ولا يصبر على ما يصبر عليه، فأدنى سبب يوجد، يدعوه إلى الحرام، يجيب دعوته، ولا يتعاصى عليه ... ودل قوله: ﴿ فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ ﴾ مع أمره بحفظ الفرج وثنائه على الحافظين لفروجهم، والحافظات، ونهيه عن قربان الزنا، أنه ينبغي للعبد، إذا رأى من نفسه هذه

(١) تفسير السعدي (مجموع المؤلفات ٣/٣٤٠)

(٢) تفسير السعدي (مجموع المؤلفات ٢/٤٦٠)

(٣) تفسير السعدي (مجموع المؤلفات ٣/٥٠٤)

الحالة، وأنه يهش لفعل المحرم عندما يرى أو يسمع كلام من يهواه، ويجد دواعي طمعه قد انصرفت إلى الحرام، فَلْيَعْرِفْ أن ذلك مرض.

فَلْيَجْتَهِدْ في إضعاف هذا المرض وحسم الخواطر الردية، ومجاهدة نفسه على سلامتها من هذا المرض الخطر، وسؤال اللّه العصمة والتوفيق، وأن ذلك من حفظ الفرج المأمور به"(١).

(١) تفسير السعدي (مجموع المؤلفات ٢/٩٢٠)

المطلب الرابع: أمراض القلوب حقيقتها وأقسامها وخطورتها.

وفيه ثلاث مسائل :

المسألة الأولى : حقيقة أمراض القلوب .

المسألة الثانية : أقسام أمراض القلوب .

المسألة الثالثة : خطورة أمراض القلوب .

المطلب الرابع: أمراض القلوب حقيقتها وأقسامها وخطورتها

وفيه ثلاث مسائل:

المسألة الأولى: حقيقة أمراض القلوب:

حقيقة أمراض القلوب أنها نوع فسادٍ يحصل للقلب، يفسد به تصوره وإرادته، فتصوره: بالشبهات التي تعرض له حتى لا يرى الحق، أو يراه على خلاف ما هو عليه، وإرادته: بحيث يبغض الحق النافع ويحب الباطل الضار، فلهذا يفسر المرض في القرآن تارةً بالشك والريب، وتارة يُفسر بشهوة الزنا[١].

قال الشيخ عبد الرحمن السعدي رحمه الله في تفسير قوله تعالى: ﴿ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ ﴾ مقررًا الحقيقة السابقة: "المراد بالمرض هنا: مرض الشك، والشبهات، والنفاق وذلك أن القلب يعرض له مرضان يخرجانه عن صحته واعتداله: مرض الشبهات الباطلة ومرض الشهوات المردية، فالكفر والنفاق والشكوك والبدع، كلها من مرض الشبهات والزنا، ومحبة الفواحش والمعاصي وفعلها، من مرض الشهوات كما قال تعالى: ﴿... فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ... ﴾ الأحزاب: ٣٢، وهو شهوة الزنا، والمعافى من عوفي من هذين المرضين"[٢].

وقال ابن القيم رحمه الله عن القلب المريض: "هو قلب له حياة وبه علة فله مادتان، تمده هذه مرة، وهذه أخرى، وهو لما غلب عليه منهما، ففيه من محبة اللَّه تعالى والإيمان به والإخلاص له، والتوكل عليه: ما هو مادة حياته، وفيه من محبة الشهوات وإيثارها والحرص على تحصيلها، والحسد والكبر والعجب، وحب العلو والفساد في الأرض بالرياسة: ما هو مادة هلاكه وعطبه"[٣].

قال الشيخ عبد الرحمن السعدي رحمه الله مبينًا صورًا من أمراض القلوب التي جاء

---

(١) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية (٩٣/١٠)

(٢) تفسير السعدي (مجموع المؤلفات ١٠٨/٢)

(٣) إغاثة اللهفان (٩/١)

القرآن بعلاجها: "ووصفه بأنه شفاء لما في الصدور، وذلك يشمل جميع أمراض القلوب ؛ فهو يوضح أمراض القلوب ويشخصها، ويرشد العباد إلى كل وسيلة يحصل بها زوالها وشفاؤها، فيذكر لهم أمراض الجهل والشكوك والحيرة وأسباب ذلك، ويرشدهم إلى قلعها بالعلوم النافعة واليقين الصادق، وسلوك الطرق الصحيحة المزيلة لهذه العلل، ويذكر لهم أمراض الشهوات والغي، ويبين لهم أسبابها وعلاماتها وآثارها الضارة، ويذكر لهم ما به تعالج من المواعظ والتذكر والترغيب والترهيب، والمقابلة بين الأمور، وترجيح ما ترجحت مصلحته العاجلة والآجلة "(١).

المسألة الثانية: أقسام أمراض القلوب:

مرض القلب نوعان: نوع لا يتألم به صاحبه في الحال؛ كمرض الجهل، ومرض الشبهات والشكوك، ومرض الشهوات، وهذا النوع هو أعظم النوعين ألمًا، ولكن لفساد القلب لا يحس بالألم، ولأن سكرة الجهل والهوى تحول بينه وبين إدراك الألم، وإلا فألمه حاضر فيه حاصل له، وهو متوارٍ عنه باشتغاله بضده، وهذا أخطر المرضين وأصعبهما، وعلاجه إلى الرسل وأتباعهم، فهم أطباء هذا المرض.

والنوع الثاني: مرض مؤلم له في الحال، كالهمّ والغمّ والحَزَنِ والغيظ، وهذا المرض قد يزول بأدوية طبيعية(٢).

والحديث هنا عن النوع الأول، وهو منقسم إلى قسمين:

١- أمراض شبهات

٢- أمراض شهوات

وهذان النوعان جاء ذكرهما في القرآن كثيرًا، وقد جُمعا في آية واحدة في قوله تعالى: ﴿كَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ كَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا فَٱسْتَمْتَعُوا۟ بِخَلَٰقِهِمْ فَٱسْتَمْتَعْتُم بِخَلَٰقِكُمْ كَمَا ٱسْتَمْتَعَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُم بِخَلَٰقِهِمْ وَخُضْتُمْ

(١) تيسير اللطيف المنان (مجموع المؤلفات ٣/١٨)

(٢) إغاثة اللهفان (١/١٨)

كَٱلَّذِي خَاضُوٓاْۚ أُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ﴾ التوبة: ٦٩.

فمرض الشهوة هو الاستمتاع بالخلاق، ومرض الشبهة هو الخوض بالباطل.

قال الشيخ عبد الرحمن السعدي رحمه الله في تفسيرها مشيراً إلى المرضين: "استمتعتم بخلاقكم، أي: بنصيبكم من الدنيا فتناولتموه على وجه اللذة والشهوة معرضين عن المراد منه، واستعنتم به على معاصي الله، ولم تتعد همتكم وإرادتكم ما خولتم من النعم كما فعل الذين من قبلكم وخضتم كالذي خاضوا، أي: وخضتم بالباطل والزور وجادلتم بالباطل لتدحضوا به الحق، فهذه أعمالهم وعلومهم، استمتاع بالخلاق وخوض بالباطل"[(١)].

وقال الشيخ السعدي رحمه الله مبينًا النوعين، مرشدًا إلى طريقة تمييزهما عن بعض: "المرض في القرآن -مرض القلوب- نوعان:

مرض شبهات وشكوك، ومرض شهوات ومحرمات.

والطريق إلى تمييز هذا من هذا -مع كثرة ورودهما في القرآن- يُدرك من السياق، فإن كان هذا السياق في ذم المنافقين والمخالفين في شيء من أمور الدين، كان مرضَ الشكوك والشبهات، وإن كان السياق في ذكر المعاصي والميل كان مرضَ الشهوات.

ووجه انحصار المرض في هذين النوعين: أن مرض القلب خلاف صحته، وصحة القلب الكاملة بشيئين: كمال علمه ومعرفته ويقينه، وكمال إرادته وحبه لما يحبه الله ويرضاه"[(٢)].

---

(١) تفسير السعدي (مجموع المؤلفات ٢/٤٨٧)

(٢) القواعد الحسان (مجموع المؤلفات ٣/٤٥٧)

المسألة الثالثة: خطورة أمراض القلوب

مرضا الشبهات والشهوات "هما أصل داء الخلق"(١)، و"هما ملاك أمراض القلوب جميعها"(٢)، ومما يوضح خطورة أمراض القلوب بأنواعها: سرعة افتتان القلب المريض بالفتن؛ "فإن القلب الصحيح لا يريد ولا يميل إلا إلى الخير، أو إلى ما أباحه الله له، فمتى رأيت القلب ميالًا إلى المعاصي سريع الانقياد لها فهو مريض، هو سريع الافتتان عند وجود أسباب الفتنة"(٣).

وقد يشتد افتتانه فيؤول به الأمر إلى الكفر أو النفاق ويكون من أهل القلب الميت.

قال ابن القيم رحمه الله موضحًا هذه الخطورة: "الفتنة نوعان: فتنة الشبهات وهي أعظم الفتنتين، وفتنة الشهوات، وقد يجتمعان للعبد، وقد ينفرد بإحداهما.

ففتنة الشبهات من ضعف البصيرة وقلة العلم ولا سيما إذا اقترن بذلك فساد القصد وحصول الهوى، فهنالك الفتنة العظمى، والمصيبة الكبرى، فقل ما شئت في ضلال سيئ القصد، الحاكم عليه الهوى لا الهدى، مع ضعف بصيرته، وقلة علمه بما بعث الله به رسوله، فهو من الذين قال الله فيهم: ﴿...إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ ﴾ النجم: ٢٣.

وهذه الفتنة مآلها إلى الكفر والنفاق، وهي فتنة المنافقين، وفتنة أهل البدع على حسب مراتب بدعهم، فجميعهم إنما ابتدعوا من فتنة الشبهات التي اشتبه عليهم فيها الحق بالباطل والهدى والضلال"(٤).

وقال ابن القيم أيضًا: "القلب يعرض له مرضان عظيمان، إن لم يتداركهما العبد تراميا به إلى التلف ولا بد، وهما: الرياء والكبر، فدواء الرياء بـ ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ ، ودواء

---

(١) مفتاح دار السعادة (١/١١٠)

(٢) مدارج السالكين (١/٧٦)

(٣) تيسير اللطيف المنان (مجموع المؤلفات ٣/٢٩٧)

(٤) إغاثة اللهفان (٢/١٦٥)

الكبر بـ ﴿ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾.

وكثيرًا ما كنت أسمع شيخ الإسلام ابن تيمية قدس الله روحه يقول: ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ ﴾ تدفع الرياء، ﴿ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ تدفع الكبرياء.

فإذا عوفي من مرض الرياء بـ ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ ﴾، ومن مرض الكبرياء والعجب بـ ﴿ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾، ومن مرض الضلال والجهل بـ ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾، عوفي من أمراضه وأسقامه، ورفل في أثواب العافية، وتمت عليه النعمة، وكان من المنعم عليهم غير المغضوب عليهم وهم أهل فساد القصد، الذين عرفوا الحق وعدلوا عنه، والضالين وهم أهل فساد العلم، الذين جهلوا الحق ولم يعرفوه"[(١)].

وبعدُ "فرحم الله عبدًا اعتز بصلاح قلبه فنقاه من مرآة الخلق، وزكاه بالصدق والإخلاص للحق، نقاه من العجب والتعاظم والتكبر على الناس، وحلاه بحلية التواضع التي هي خير لباس، نقاه من الغش والغل والحقد، وجمله بإرادة الخير والنصح لكل أحد، نقاه من الميل إلى المعاصي، وهو مرض الشهوات، ومن أمراض الشكوك والريب والشبهات، وجمله بالعقل الراجح لفعل الخيرات، والإقلاع المصمم الصادق عن المحرمات، وسعى في العلوم النافعة الجالبة لليقين، وتحصيل الأدلة الصحيحة والبراهين.

فبذلك يتم شفاؤه من الأهواء والأدواء، وبذلك يحصل فلاحه ويستقيم على الهدى، ولا يحصل له ذلك إلا بتوفيق وإعانة من المولى، ... فحقيق بك أيها العبد الجد في تزكية نفسك لتنال الفلاح، وتستعين الله على إصلاح قلبك فإنه الجواد الفتاح، فإن الله لا ينظر إلى الصور والأموال، وإنما ينظر برحمته إلى القلوب الطاهرة وصادق الأعمال"[(٢)].

---

(١) مدارج السالكين (٧٨/١)

(٢) الخطب المنبرية على المناسبات (مجموع المؤلفات ٣١٩/٢٣ ، ٣٢٠)

الفصل الثاني

منزلة أعمال القلوب من الإيمان

وفيه أربعة مباحث:

- **المبحث الأول:**

التعريف بأعمال القلوب والفرق بينها وبين أقوال القلوب

- **المبحث الثاني:**

أهمية أعمال القلوب وصلتها بالإيمان

- **المبحث الثالث:**

الإيمان بالله وأثره على القلوب

- **المبحث الرابع:**

أوصاف الإيمان في القلوب

المبحث الأول

التعريف بأعمال القلوب والفرق بينها وبين أقوال القلوب

من الأصول المتفق عليها عند أهل السنة والجماعة أن الإيمان قول وعمل واعتقاد، وأنه يعم أعمال الجوارح كما يعم أعمال القلوب.

وقد بيَّن هذا الشيخ عبد الرحمن السعدي رحمه الله إذ قال: "أما حد الإيمان وتفسيره، فهو التصديق الجازم، والاعتراف التام بجميع ما أمر الله ورسوله بالإيمان به؛ والانقياد ظاهرًا وباطنًا. فهو تصديق القلب واعتقاده المتضمن لأعمال القلوب وأعمال البدن، وذلك شامل للقيام بالدين كله.

ولهذا كان الأئمة والسلف يقولون: الإيمان قول القلب واللسان، وعمل القلب واللسان والجوارح.

وهو قول وعمل واعتقاد يزيد بالطاعة، وينقص بالمعصية. فهو يشمل عقائد الإيمان، وأخلاقه، وأعماله"[(١)].

وقول القلب هو اعتقاده وتصديقه وإقراره ومعرفته وطمأنينته، وعمل القلب هو انقياده للأوامر وإخلاصه ومحبته.

وقد بيَّن هذا الفرق الشيخ عبدالرحمن السعدي رحمه الله فقال: "والفرق بين أقوال القلب وبين أعماله: أن أقواله هي العقائد التي يعترف بها القلب ويعتقدها، وأما أعمال القلب فهي حركته التي يحبها الله ورسوله، وضابطها محبة الخير وإرادته الجازمة، وكراهية الشر والعزم على تركه"[(٢)].

وشرحه تلميذه ابن عثيمين رحمه الله فقال: "وأما قول القلب؛ فهو اعترافه وتصديقه، وأما عمله فهو عبارة عن تحركه وإرادته، مثل الإخلاص في العمل، فهذا عمل قلب، وكذلك التوكل والرجاء والخوف؛ فالعمل ليس مجرد الطمأنينة في القلب، بل هناك حركة

---

(١) التوضيح والبيان (مجموع المؤلفات ٦/١١٣)

(٢) التوضيح والبيان (مجموع المؤلفات ٦/٧٦٧)

في القلب"[١].

وقد بيَّن الفرق السابق شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله فقال: "الإيمان وإن كان يتضمن التصديق فليس هو مجرد التصديق وإنما هو الإقرار والطمأنينة، وذلك لأن التصديق إنما يعرض للخبر فقط، فأما الأمر فليس فيه تصديق من حيث هو أمر، وكلام الله خبر وأمر، فالخبر يستوجب تصديق المخبر والأمر يستوجب الانقياد له والاستسلام، وهو عمل في القلب، جماعه الخضوع والانقياد للأمر وإن لم يفعل المأمور به، فإذا قوبل الخبر بالتصديق والأمر بالانقياد فقد حصل أصل الإيمان في القلب، وهو الطمأنينة والإقرار"[٢].

وبيَّنه أيضًا الشيخ حافظ الحكمي رحمه الله فقال: "قَوْلُ الْقَلْبِ وَهُوَ تَصْدِيقُهُ وَإِيقَانُهُ ... عَمَلُ الْقَلْبِ، وَهُوَ النِّيَّةُ وَالْإِخْلَاصُ وَالْمَحَبَّةُ وَالِانْقِيَادُ وَالْإِقْبَالُ عَلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَالتَّوَكُّلُ عَلَيْهِ وَلَوَازِمُ ذَلِكَ وَتَوَابِعُهُ"[٣].

---

(١) شرح العقيدة الواسطية (٢/٢٣١)

(٢) الصارم المسلول (٥١٩)

(٣) معارج القبول (٢/٥٨٨)

المبحث الثاني:

أهمية أعمال القلوب

خلق الله تعالى الخلق لعبادته وحده لا شريك له، والعبادة إما ظاهرة وإما باطنة، وهذه العبادات الباطنة هي أعمال القلوب، وأعمال القلوب هي أصل للعبادات الظاهرة؛ ومن هنا جاءت أهمية أعمال القلوب.

وهاهنا عرض لشيء مما يوضح أهمية الأعمال القلبية من كلام العلامة السعدي رحمه الله.

١- أصل الإيمان في القلب:

قال تعالى: ﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَـٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَـٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ... ﴾ الحجرات: ١٤.

قال الشيخ عبد الرحمن السعدي رحمه الله: "يخبر تعالى عن مقالة الأعراب، الذين دخلوا في الإسلام في عهد رسول الله ﷺ، دخولًا من غير بصيرة، ولا قيامٍ بما يجب ويقتضيه الإيمان، أنهم مع هذا ادعوا وقالوا: آمنا، أي: إيمانًا كاملًا مستوفيًا لجميع أموره، هذا موجب هذا الكلام، فأمر الله رسوله أن يرد عليهم، فقال: ﴿قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟﴾، أي: لا تدعوا لأنفسكم مقام الإيمان، ظاهرًا وباطنًا كاملًا، ﴿وَلَـٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا﴾، أي: دخلنا في الإسلام، واقتصروا على ذلك.

﴿وَ﴾ السبب في ذلك، أنه ﴿وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَـٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ﴾، وإنما آمنتم خوفًا، أو رجاء، أو نحو ذلك، مما هو السبب في إيمانكم؛ فلذلك لم تدخل بشاشة الإيمان في قلوبكم"[1].

وقال الشيخ عبد الرحمن السعدي رحمه الله: "فلا يكون العبد مؤمنًا بالله واليوم الآخر

---

(١) تفسير السعدي (مجموع المؤلفات ٢/١١٠٧)

حقيقة، إلا كان عاملًا على مقتضى الإيمان ولوازمه، من محبة من قام بالإيمان وموالاته، وبغض من لم يقم به ومعاداته، ولو كان أقرب الناس إليه.

وهذا هو الإيمان على الحقيقة، الذي وجدت ثمرته والمقصود منه، وأهل هذا الوصف هم الذين كتب الله في قلوبهم الإيمان، أي: رسمه وثبته وغرسه غرسًا، لا يتزلزل، ولا تؤثر فيه الشبه والشكوك"[(١)].

قال الشيخ عبد الرحمن السعدي رحمه الله: "﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ﴾ البقرة: ٨، فإنهم يقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم، فأكذبهم الله بقوله: ﴿ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ﴾؛ لأن الإيمان الحقيقي، ما تواطأ عليه القلب واللسان، وإنما هذا مخادعة لله ولعباده المؤمنين"[(٢)].

٢- التقوى في الحقيقة هي تقوى القلوب:

من وجوه أهمية عمل القلب أن التقوى المعتبرة ليست تقوى الجوارح فقط، وإنما تقوى القلوب، قال تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ ﴾ الحج: ٣٢.

قال الشيخ عبد الرحمن السعدي رحمه الله: "فتعظيم شعائر الله صادر من تقوى القلوب، فالمعظم لها يبرهن على تقواه وصحة إيمانه، لأن تعظيمها تابع لتعظيم الله وإجلاله"[(٣)].

وقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَٰتَهُمْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمْتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾ الحجرات: ٣.

قال الشيخ عبد الرحمن السعدي رحمه الله: "مدح من غض صوته عند رسول الله ﷺ، بأن الله امتحن قلوبهم للتقوى، أي: ابتلاها واختبرها، فظهرت نتيجة ذلك بأن

---

(١) تفسير السعدي (مجموع المؤلفات ٢/١١٦٣)

(٢) تفسير السعدي (مجموع المؤلفات ٢/١٠٨)

(٣) تفسير السعدي (مجموع المؤلفات ٢/٧٥٣)

صلحت قلوبهم للتقوى، ثم وعدهم المغفرة لذنوبهم، المتضمنة لزوال الشر والمكروه، والأجر العظيم الذي لا يعلم وصفه إلا الله تعالى"(١).

ويعضد هذا الوجه قول النبي ﷺ: «التقوى هاهنا»، ويشير إلى صدره ثلاث مرات(٢).

قال الحافظ ابن رجب رحمه الله: "وَالتَّقْوَى أَصْلُهَا فِي الْقَلْبِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿...وَمَن يُعَظِّمْ شَعَـٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ﴾ الحج: ٣٢ ... وَإِذَا كَانَ أَصْلُ التَّقْوَى فِي الْقُلُوبِ، فَلَا يَطَّلِعُ أَحَدٌ عَلَى حَقِيقَتِهَا إِلَّا اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ، كَمَا قَالَ ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ لَا يَنْظُرُ إِلَى صُوَرِكُمْ وَأَمْوَالِكُمْ، وَلَكِنْ يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ وَأَعْمَالِكُمْ»(٣)، وَحِينَئِذٍ فَقَدْ يَكُونُ كَثِيرٌ مِمَّنْ لَهُ صُورَةٌ حَسَنَةٌ، أَوْ مَالٌ، أَوْ جَاهٌ، أَوْ رِيَاسَةٌ فِي الدُّنْيَا قَلْبُهُ خَرَابًا مِنَ التَّقْوَى، وَيَكُونُ مَنْ لَيْسَ لَهُ شَيْءٌ مِنْ ذَلِكَ قَلْبُهُ مَمْلُوءًا مِنَ التَّقْوَى، فَيَكُونُ أَكْرَمَ عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى، بَلْ ذَلِكَ هُوَ الْأَكْثَرُ وُقُوعًا"(٤).

٣- القلوب هي محل نظر الرب من العبد:

قال الشيخ عبد الرحمن السعدي رحمه الله: "فإن الله لا ينظر إلى صوركم الظاهرة وأعمالكم ، وإنما ينظر إلى بواطن قلوبكم ، وما اشتملت عليه من أحوالكم"(٥).

قال تعالى: ﴿ رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِى نُفُوسِكُمْ ۚ إِن تَكُونُواْ صَـٰلِحِينَ فَإِنَّهُۥ كَانَ لِلْأَوَّٰبِينَ غَفُورًا ﴾ الإسراء: ٢٥.

---

(١) تفسير السعدي (مجموع المؤلفات ٢/١١٠٣)

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) تقدم تخريجه.

(٤) جامع العلوم والحكم (٢/٢٧٦).

(٥) الفواكه الشهية (مجموع المؤلفات ٢٣/١٦١)

٤- أعمال القلوب هي الأصل والجوارح تبع:

تتفاوت أعمال الجوارح بحسب ما يقوم في القلب، قال الشيخ عبد الرحمن السعدي رحمه الله في تفسير قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ۚ لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴾ الأنفال:٢-٤، قال: "﴿ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ﴾ لأنهم جمعوا بين الإسلام والإيمان، بين الأعمال الباطنة والأعمال الظاهرة، بين العلم والعمل، بين أداء حقوق اللّه وحقوق عباده، وقدم تعالى أعمال القلوب؛ لأنها أصل لأعمال الجوارح وأفضل منها"[(١)].

قال الشيخ عبد الرحمن السعدي رحمه الله: "اعلموا أن مدار التقوى على إصلاح القلوب، فقد قال ﷺ : «إن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب»[(٢)]، فمتى صلح القلب بالإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره، وصحح ذلك بالمعرفة وحسن الاعتقاد، ثم توجه القلب إلى ربه بالإنابة والقصد وحسن الانقياد، فإن الجوارح كلها تستقيم على طريق الهدى والرشاد ، فصلاح الجوارح ملازم لصلاح القلوب ، فاغتنموا رحمكم الله إصلاحها بحسن النية في كل مطلوب ، فإن الله لا ينظر إلى صوركم وأعمالكم ، ولكن ينظر ما أكنته القلوب"[(٣)].

قال الشيخ عبد الرحمن السعدي رحمه الله: "وإذا صح القلب من مرضه، ورفل بأثواب العافية، تبعته الجوارح كلها، فإنها تصلح بصلاحه، وتفسد بفساده"[(٤)].

٥- من أعظم ما يكفر الذنوب:

---

(١) تفسير السعدي (مجموع المؤلفات ٢/٤٥٠)

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) الفواكه الشهية (مجموع المؤلفات ٢٣/٢٠٥)

(٤) تفسير السعدي (مجموع المؤلفات ٢/٥١٩)

قال الشيخ عبد الرحمن السعدي رحمه الله: "وقد وردت أحاديث كثيرة في تكفير كثير من الأعمال للسيئات مع اقتضائها لزيادة الحسنات والدرجات، كما وردت نصوص كثيرة في تكفير المصائب للسيئات، خصوصًا الذي يحتسب ثوابها ويقوم بوظيفة الصبر أو الرضا، فإنَّه يحصل له التكفير من جهتين: من جهة نفس المصيبة وألمها القلبي والبدني، ومن جهة مقابلة العبد لها بالصبر والرضا اللذين هما من أعظم أعمال القلوب، فإنَّ أعمال القلوب في تكفيرها السيئات أعظمُ من أعمال الأبدان"[(١)].

(١) فتح الرحيم الملك العلام (مجموع المؤلفات ٣/٧٦٦)

المبحث الثالث:

الإيمان بالله وأثره على القلوب

قال الشيخ عبد الرحمن السعدي رحمه الله: "ثمرات الإيمان على وجه التفصيل كثيرة، وبالجملة خيرات الدنيا والآخرة مرتبة على الإيمان، كما أن الشرور مرتبة على فقده"[(١)].

"فالإيمان خير للمؤمنين في أبدانهم وقلوبهم وأرواحهم ودنياهم وأخراهم. وذلك لما يترتب عليه من المصالح والفوائد، فكل ثواب عاجل وآجل فمن ثمرات الإيمان، فالنصر والهدى والعلم والعمل الصالح والسرور والأفراح، والجنة وما اشتملت عليه من النعيم كل ذلك مسبب عن الإيمان"[(٢)].

وقد أجمل السعدي عدّ هذه الثمرات فقال رحمه الله: "كم للإيمان الصحيح من الفوائد والثمرات العاجلة والآجلة، في القلب والبدن والراحة، والحياة الطيبة، والدنيا والآخرة. وكم لهذه الشجرة الإيمانية من الثمار اليانعة، والجني اللذيذ، والأكل الدائم، والخير المستمر، أمور لا تحصى، وفوائد لا تُستقصى، ومجملها أن خيرات الدنيا والآخرة، ودفع الشرور كلها من ثمرات هذه الشجرة.

وذلك أن هذه الشجرة إذا ثبتت وقويت أصولها، وتفرعت فروعها، وزهت أغصانها، وأينعت أفنانها عادت على صاحبها وعلى غيره، بكل خير عاجل وآجل"[(٣)].

ومن ثمرات الإيمان التي بينها السعدي رحمه الله على وجه التفصيل ما يأتي:

١ - الاغتباط بولاية الله الخاصة:

"وهي أعظم ما تنافس فيه المتنافسون، وأجل ما حصله الموفقون، قال تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ ثم وصفهم بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ﴾ يونس: ٦٢- ٦٣، فكل مؤمن تقي، فهو لله

---

(١) القواعد الحسان (مجموع المؤلفات ٣/ ٤٤٧)

(٢) تفسير السعدي (مجموع المؤلفات ٢/ ٣١٥)

(٣) التوضيح والبيان (مجموع المؤلفات ٣/ ١٣٨)

ولي ولاية خاصة"[1].

وهذه الولاية الخاصة تقتضي "عنايته ولطفه بعباده المؤمنين، وأنَّ الله يربيهم تربية خاصة، يصلحون بها للقرب منه ومجاورته في جنات النعيم، فيوفقهم للإيمان به وبرسله، ثم يغذي هذا الإيمان في قلوبهم وينمّيه، وييسرهم لليسرى، ويجنبهم العسرى، ويغفر لهم في الآخرة والأولى، ويتولاهم برعايته وحفظه وكلاءته، فيحفظهم من الوقوع في المعاصي، فإن وقعوا فيها بما سوّلت لهم أنفسهم الأمّارة بالسوء، وفّقهم للتوبة النصوح، فإذا تولوا ربهم تولاهم ولايةً أخصَّ من ذلك، وجعلهم من خواص خلقه بما يهيئ لهم من الأسباب الموصلة لهم إلى كلّ خير"[2].

ومن ثمرات هذه الولاية إخراجهم من الظلمات إلى النور كما قال تعالى عنهم: ﴿ اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ ءَامَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَٰتِ إِلَى النُّورِ ... ﴾ البقرة: ٢٥٧، قال الشيخ عبد الرحمن السعدي رحمه الله: "أي: يخرجهم من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان، ومن ظلمات الجهل إلى نور العلم، ومن ظلمات المعاصي إلى نور الطاعة، ومن ظلمات الغفلة إلى نور اليقظة والذكر. وحاصل ذلك: أنه يخرجهم من ظلمات الشرور المتنوعة، إلى ما يرفعها من أنوار الخير العاجل والآجل، وإنما حازوا هذا العطاء الجزيل بإيمانهم الصحيح"[3].

٢- الفوز برضا الله، ودخول الجنة:

وعد الله تعالى المؤمنين الفوز بالجنات ونيل رضوانه سبحانه، قال الشيخ عبد الرحمن السعدي رحمه الله مبينًا هذه الثمرة: "ومن ثمرات الإيمان الفوزُ برضا الله، ودار كرامته، قال تعالى: ﴿ وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ

---

(١) التوضيح والبيان (مجموع المؤلفات ١٣٨/٦)

(٢) فتح الرحيم الملك العلام (مجموع المؤلفات ٧٨٩/٣)

(٣) تيسير اللطيف المنان (مجموع المؤلفات ١٣٨/٣)

﴿أُوْلَٰٓئِكَ سَيَرۡحَمُهُمُ ٱللَّهُۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ٧١ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةٗ فِي جَنَّٰتِ عَدۡنٖۚ وَرِضۡوَٰنٞ مِّنَ ٱللَّهِ أَكۡبَرُۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ﴾ التوبة: ٧١ - ٧٢.

فنالوا رضا ربهم ورحمته، والفوز بهذه المساكن الطيبة بإيمانهم الذي كملوا به أنفسهم، وكملوا غيرهم بقيامهم بطاعة الله ورسوله، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فاستولوا على أجل الوسائل، وأفضل الغايات، وذلك فضل الله"[(١)].

٣- تحريم دخول النار:

قال الشيخ عبد الرحمن السعدي رحمه الله في سياق سرده لثمرات الإيمان: "ومنها: أن الإيمان الكامل يمنع من دخول النار، والإيمان - ولو قليلًا - يمنع من الخلود فيها.

فإن من آمن إيمانًا - أدى به الواجبات، وترك المحرمات - فإنه لا يدخل النار، كما تواترت بذلك الأحاديث الصحيحة عن النبي صلى الله عليه وسلم في هذا الأصل ، كما تواتر عنه أنه لا يخلد في النار من في قلبه شيء من الإيمان ولو يسيراً"[(٢)].

٤- دفع المكاره والنجاة من الشدائد:

قال الشيخ عبد الرحمن السعدي رحمه الله: "ومن ثمرات الإيمان: أن الله يدافع عن المؤمنين جميع المكاره، وينجيهم من الشدائد، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ...﴾ الحج: ٣٨، أي: يدافع عنهم كل مكروه، يدافع عنهم شر شياطين الإنس وشياطين الجن، ويدافع عنهم الأعداء، ويدافع عنهم المكاره قبل نزولها، ويرفعها أو يخففها بعد نزولها ... فالمؤمن المتقي ييسر الله أموره وييسره لليسرى، ويجنبه العسرى، ويسهل عليه الصعاب ويجعل له من كل هم فرجًا، ومن كل ضيق مخرجًا، ويرزقه من

---

(١) التوضيح والبيان (مجموع المؤلفات ١٣٩/٦)

(٢) التوضيح والبيان (مجموع المؤلفات ١٣٩/٦)

حيث لا يحتسب"[١]، و"على حسب ما عند العبد من الإيمان تكون مدافعة الله عنه بلطفه"[٢].

٥- طمأنينة القلب:

قال الشيخ عبد الرحمن السعدي رحمه الله: "ومنها: أن الإيمان والعمل الصالح - الذي هو فرعه - يثمر الحياة الطيبة في هذه الدار، وفي دار القرار.

قال تعالى: ﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ النحل: ٩٧.

وذلك أن من خصائص الإيمان أنه يثمر طمأنينة القلب وراحته، وقناعته بما رزق الله، وعدم تعلقه بغيره، وهذه هي الحياة الطيبة، فإن أصل الحياة الطيبة راحة القلب وطمأنينته، وعدم تشوشه مما يتشوش منه الفاقد للإيمان الصحيح"[٣].

٦- الهداية والرضا:

قال الشيخ عبد الرحمن السعدي رحمه الله: "ومنها: أن صاحب الإيمان يهديه الله إلى الصراط المستقيم، ويهديه الصراط المستقيم يهديه إلى علم الحق، وإلى العمل به، وإلى تلقي المحاب والمسار بالشكر، وتلقي المكاره والمصائب بالرضا والصبر، قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمْ ... ﴾ يونس: ٩، وقال تعالى: ﴿ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ... ﴾ التغابن: ١١، قال بعض السلف: هو الرجل تصيبه المصيبة؛ فيعلم أنها من عند الله، فيرضى ويسلم.

ولو لم يكن من ثمرات الإيمان إلا أنه يسلي صاحبه عن المصائب والمكاره التي كل

---

(١) التوضيح والبيان (مجموع المؤلفات ٦/١٣٩)

(٢) الحق الواضح المبين (مجموع المؤلفات ٦/٦٨٢)

(٣) التوضيح والبيان (مجموع المؤلفات ٦/١٤١)

أحد عرضة لها في كل وقت، ومصاحبة الإيمان واليقين أعظم مسل عنها، ومهون لها، وذلك لقوة إيمانه، وقوة توكله؛ ولقوة رجائه بثواب ربه، وطمعه في فضله. فحلاوة الأجر تخفف مرارة الصبر، قال تعالى: ﴿...إِن تَكُونُواْ تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ...﴾ النساء: ١٠٤.

ولهذا تجد اثنين تصيبهم مصيبة واحدة أو متقاربة – وأحدهما عنده إيمان، والآخر فاقد له – تجد الفرق العظيم بين حاليهما، وتأثيرها في ظاهرهما وباطنهما، وهذا الفرق راجع إلى الإيمان والعمل بمقتضاه.

وكما أنه يسلي عند ورود المصائب والمكاره، فإنه يسلي عند فقد المحاب، فإذا فقد المؤمن حبيبه الذي تمكن حبه من قلبه – من أهل، وولد، ومال، وصديق، وشبهها – تسلى بحلاوة إيمانه، والإيمان خير عوض للمؤمن عن كل مفقود، كما هو مشاهد مجرب"[١].

٧- نيل محبة الله تعالى:

قال الشيخ عبد الرحمن السعدي رحمه الله: "ومن ثمرات الإيمان ولوازمه – من الأعمال الصالحة – ما ذكره الله بقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدًّا﴾ مريم: ٩٦، أي: بسبب إيمانهم وأعمال الإيمان يحبهم الله ويجعل لهم المحبة في قلوب المؤمنين، ومن أحبه الله وأحبه المؤمنون من عباده حصلت له السعادة والفلاح والفوائد الكثيرة من محبة المؤمنين من الثناء والدعاء له حيًّا وميتًا، والاقتداء به، وحصول الإمامة في الدين"[٢].

٨ – تحقيق الأمن التام في الدنيا والآخرة:

قال الشيخ عبد الرحمن السعدي رحمه الله: "ومن ثمرات الإيمان: حصول البشارة

---

(١) التوضيح والبيان (مجموع المؤلفات ٦/١٤١)

(٢) التوضيح والبيان (مجموع المؤلفات ٦/١٤٣)

بكرامة الله، والأمن التام من جميع الوجوه.

كما قال تعالى: ﴿...وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ البقرة: ٢٢٣، فأطلقها؛ ليعم الخير العاجل والآجل، وقيدها في مثل قوله تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ...﴾ البقرة: ٢٥، فلهم البشارة المطلقة والمقيدة.

ولهم الأمن المطلق في مثل قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ الأنعام: ٨٢.

ولهم الأمن المقيد في مثل قوله تعالى: ﴿...فَمَنْ ءَامَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ الأنعام: ٤٨، فنفى عنهم الخوف لما يستقبلونه، والحزن مما مضى عليهم، وبذلك يتم لهم الأمن.

فالمؤمن له الأمن التام في الدنيا والآخرة، أمن من سخط الله وعقابه، وأمن من جميع المكاره والشرور. وله البشارة الكاملة بكل خير، كما قال تعالى: ﴿لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ...﴾ يونس: ٦٤.

ويوضح هذه البشارة قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِىٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ﴾ فصلت: ٣٠ - ٣٢.

وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَءَامِنُواْ بِرَسُولِهِۦ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ الحديد: ٢٨.

فرتب على الإيمان حصول الثواب المضاعف، وكمال النور الذي يمشي به العبد في حياته، ويمشي به يوم القيامة، ﴿يَوْمَ تَرَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِم بُشْرَىٰكُمُ ٱلْيَوْمَ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ...﴾ الحديد: ١٢، فالمؤمن يمشي في الدنيا بنور علمه وإيمانه، وإذا طفئت الأنوار يوم القيامة، مشى بنوره على الصراط حتى يجوز به إلى دار الكرامة والنعيم.

وكذلك رتب المغفرة على الإيمان، ومن غفرت سيئاته سلم من العقاب، ونال أعظم الثواب"[(١)].

٩- الانتفاع بالمواعظ:

قال الشيخ عبد الرحمن السعدي رحمه الله: "ومن ثمرات الإيمان: الانتفاع بالمواعظ والتذكير والآيات.

قال تعالى: ﴿ وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ الذاريات: ٥٥، ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ الحجر: ٧٧.

وهذا لأن الإيمان يحمل صاحبه على التزام الحق واتباعه علمًا وعملًا، وكذلك معه الآلة العظمة، والاستعداد لتلقي المواعظ النافعة والآيات الدالة على الحق، وليس عنده مانع يمنعه من قبول الحق، ولا من العمل به.

وأيضًا فالإيمان يوجب سلامة الفطرة، وحسن القصد، ومن كان كذلك انتفع بالآيات، ومن لم يكن كذلك، فلا يستغرب عدم قبوله للحق، واتباعه له؛ ولهذا يذكر الله – في سياق تمنع الكافرين من تصديق الرسول، وقبول الحق الذي جاء به – السبب الذي أوجب لهم ذلك، وهو الكفر الذي في قلوبهم، يعني لأن الحق واضح وآياته بينة واضحة، والكفر أعظم مانع يمنع من اتباعه، أي: فلا تستغربوا هذه الحالة، فإنها لم تزل دأب كل كافر"[(٢)].

١٠- الإيمان ملجأ المؤمنين في سائر أحوالهم:

قال الشيخ عبد الرحمن السعدي رحمه الله: "ومنها: أن الإيمان ملجأ المؤمنين في كل ما يلم بهم من سرور وحزن وخوف وأمن وطاعة ومعصية وغير ذلك من الأمور التي لا بد لكل أحد منها.

---

(١) التوضيح والبيان (مجموع المؤلفات ٦/١٤٤ ، ١٤٥)

(٢) التوضيح والبيان (مجموع المؤلفات ٦/١٤٥ ، ١٤٦)

فعند المحاب والسرور، يلجؤون إلى الإيمان فيحمدون الله، ويثنون عليه، ويستعملون النعم فيما يحب المنعم.

وعند المكاره والأحزان يلجؤون إلى الإيمان من جهات عديدة يتسلون بإيمانهم وحلاوته، ويتسلون بما يترتب على ذلك من الثواب، ويقابلون الأحزان والقلق براحة القلب، والرجوع إلى الحياة الطيبة المقاومة للأحزان والأتراح.

ويلجؤون إلى الإيمان عند الخوف فيطمئنون إليه، ويزيدهم إيمانًا وثباتًا، وقوة وشجاعة ويضمحل الخوف الذي أصابهم. كما قال تعالى عن خيار الخلق: ﴿ ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ فَٱنقَلَبُوا۟ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ ... ﴾ آل عمران: ١٧٣ – ١٧٤، لقد اضمحل الخوف من قلوب هؤلاء الأخيار وخلفه قوة الإيمان وحلاوته، وقوة التوكل على الله، والثقة بوعده.

ويلجؤون إلى الإيمان عند الأمن فلا يبطرهم، ولا يحدث لهم الكبرياء بل يتواضعون، ويعلمون أنه من الله، ومن فضله وتيسيره، فيشكرون الذي أنعم بالسبب والمسبب الأمن وأسبابه، ويعلمون أنه إذا حصل لهم ظفر بالأعداء وعز، أنه بحول الله وقوته وفضله، لا بحولهم وقوتهم.

ويلجؤون إلى الإيمان عند الطاعة والتوفيق للأعمال الصالحة، فيعترفون بنعمة الله عليهم بها، وأن نعمته عليهم فيها أعظم من نعم العافية والرزق، وكذلك يحرصون على تكميلها، وعمل كل سبب لقبولها، وعدم ردها أو نقصها، ويسألون الذي تفضل عليهم بالتوفيق لها أن يتم عليهم نعمته بقبولها، والذي تفضل عليهم بحصول أصلها أن يتمم لهم منها ما انتقصوه منها.

ويلجؤون إلى الإيمان إذا ابتلوا بشيء من المعاصي بالمبادرة إلى التوبة منها، وعمل ما يقدرون عليه من الحسنات لجبر نقصها.

قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُوا۟ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴾ الأعراف: ٢٠١.

وقال ﷺ: «مثل المؤمن ومثل الإيمان كالفرس المربوط في آخيته يجول ما يجول، ثم يعود إلى آخيته»[١].

كذلك المؤمن يجول ما يجول في الغفلة والتجرؤ على بعض الآثام، ثم يعود سريعًا إلى الإيمان الذي بنى عليه أموره كلها.

فالمؤمنون في جميع تقلباتهم وتصرفاتهم ملجؤهم إلى الإيمان، ومفزعهم إلى تحقيقه، ودفع ما ينافيه ويضاده، وذلك من فضل الله عليه، ومنه"[٢].

١١- الإيمان أعظم مانع للعبد من الوقوع في الذنوب:

قال الشيخ عبد الرحمن السعدي رحمه الله: "ومنها: أن الإيمان الصحيح يمنع العبد من الوقوع في الموبقات المهلكة...، ومن وقعت منه فإنه لضعف إيمانه، وذهاب نوره، وزوال الحياء ممن يراه حيث نهاه، وهذا معروف مشاهد.

والإيمان الصادق الصحيح، يصحبه الحياء من الله، والحب له، والرجاء القوي لثوابه، والخوف من عقابه، والنور الذي ينافي الظلمة، وهذه الأمور -التي هي من مكملات الإيمان- لا ريب أنها تأمر صاحبها بكل خير، وتزجره عن كل قبيح.

فأخبر أن الإيمان إذا صحبه -عند وجود أسباب هذه الفواحش- فإن نور إيمانه يمنعه من الوقوع فيها؛ فإن النور الذي يصحب الإيمان الصادق، ووجود حلاوة الإيمان، والحياء من الله -الذي هو من أعظم شعب الإيمان، بلا شك- يمنع من مواقعة هذه الفواحش"[٣].

والخلاصة مما تقدم أن الله تبارك وتعالى "رتب على الإيمان في كتابه من الفوائد والثمرات ما لا يقل عن مائة فائدة، كل واحدة منها خير من الدنيا وما فيها.

رتب على الإيمان نيل رضاه الذي هو أكبر من كل شيء، ورتب عليه دخول

---

(١) رواه ابن حبان في صحيحه (٢/٣٨١)، وحسنه ابن حجر في تخريج مشكاة المصابيح (٤/١٧١) ، وضعفه الألباني في السلسلة الضعيفة (٦٦٣٧).

(٢) التوضيح والبيان (مجموع المؤلفات ٦/١٤٧ ، ١٤٩)

(٣) التوضيح والبيان (مجموع المؤلفات ٦/١٤٩)

الجنة والنجاة من النار، والسلامة من عذاب القبر ومن صعوبات القيامة وتعثر أحوالهم، والبشرى الكاملة في الحياة الدنيا وفي الآخرة، والثبات في الدنيا على الإيمان والطاعات وعند الموت وفي القبر على الإيمان والتوحيد والجواب النافع السديد، ورتب عليه الحياة الطيبة في الدنيا والرزق والحسنة وتيسيره العبدَ لليسرى وتجنيبه للعسرى، وطمأنينة القلوب وراحة النفوس والقناعة التامة، وصلاح الأحوال، وصلاح الذرية، وجعلهم قرة عين للمؤمن، والصبر عند المحن والمصائب.

وحمْل الله عنهم الأثقالَ، ومدافعة الله عنهم جميع الشرور، والنصر على الأعداء، ورفع المؤاخذة عن الناسي والجاهل والمخطئ منهم، وأن الله قد وضع عنهم الآصار والأغلال ولم يحملهم ما لا طاقة لهم فيه، ومغفرة الذنوب بإيمانهم والتوفيق للتوبة.

فالإيمان أكبر وسيلة للقرب من الله والقرب من رحمته، ونيل ثوابه، وأكبر وسيلة لمغفرة الذنوب، وإزالة الشدائد أو تخفيفها"[١].

"فنسأل الله تعالى أن يمن علينا بالإيمان الصادق، وألا يكلنا إلى أنفسنا طرفة عين، وألا يزيغ قلوبنا بعد إذ هدانا، ويهب لنا من لدنه رحمة، إنه هو الوهاب"[٢].

---

(١) تيسير اللطيف المنان (مجموع المؤلفات ٣/٤٤٦ ، ٤٤٧)

(٢) التوضيح والبيان (مجموع المؤلفات ٦/١٥١)

المبحث الرابع:

أوصاف الإيمان في القلوب

مما جاء في النصوص من أوصاف الإيمان الكامل في قلوب المؤمنين:

١- كتابة الإيمان في القلوب:

يكتب الله تعالى الإيمان في قلوب عباده المؤمنين ويغرسه غرسًا، وحينئذ فلا يُمحى ولا تزيله الشبه والشكوك.

قال تعالى: ﴿ لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ۖ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ المجادلة: ٢٢.

قال الشيخ عبد الرحمن السعدي رحمه الله: "كتب الله في قلوبهم الإيمان، أي: رسمه وثبته وغرسه غرسًا، لا يتزلزل، ولا تؤثر فيه الشبه والشكوك.

وهم الذين قواهم الله بروح منه، أي: بوحيه، ومعونته، ومدده الإلهي وإحسانه الرباني"[(١)].

٢- حلاوة الإيمان:

للإيمان في قلوب المؤمنين حلاوة، ذاقها المؤمنون الصادقون.

قال رسول الله ﷺ: «ثلاث من كن فيه وجد بهن حلاوة الإيمان: أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله، وأن يكره أن يعود في الكفر

---

(١) تفسير السعدي (مجموع المؤلفات ١١٦٣/٢)

بعد إذ أنقذه الله منه، كما يكره أن يقذف في النار"[١].

قال الشيخ عبد الرحمن السعدي ﷺ: "ومن وجوه زيادته ونقصه: أن من المؤمنين من هو واجد حلاوة الإيمان، وقد ذاق طعمه واستحلى الطاعات، وتأثر قلبه بالإيمان، ومنهم من لم يصل إلى ذلك""[٢].

وقال ﷺ مبينًا قدر هذه الحلاوة التي يجدها المؤمنون: "وحصول طمأنينة قلوب المؤمنين الصادقين بذكر اللهِ والإنسِ به وبعبادتِهِ أمرٌ لا يمتري فيه أحد من أهل الذوق والوجد، وَمَا يجده أهل الإحسان الصادقون من ذوق حلاوة الإيمان، وحقائق اليقين والإنس بذكر الله، والطمأنينة به، والأحوالِ الزكية والشواهد المرضية، على ما أخبر به الرسول أجلُّ وأعظم من كثير من البراهين الحسية"[٣].

وجاء أيضًا أن للإيمان طعمًا في القلوب، فقد قال رسول الله ﷺ: «ذاق طعم الإيمان من رضي بالله ربًّا، وبالإسلام دينًا، وبمحمد نبيًّا»[٤].

والرضا بذلك يقتضي الفرح بذلك، والسرور بربوبية الله له، وحسن تدبيره وأقضيته عليه، و أن يرضى بالإسلام دينًا، ويفرح به، ويحمد الله على هذه النعمة التي هي أكبر المنن حيث رضي الله له الإسلام ووفقه له، واصطفاه له، ويرضى بمحمد ﷺ نبيًّا إذ هو أكمل الخلق، وأعلاهم في كل صفة كمال، وأمته وأتباعه أكمل الأمم وأعلاهم، وأرفعهم درجة في الدنيا والآخرة"[٥].

٣- نور الإيمان:

قال تعالى: ﴿ ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِۗ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِۖ

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، (١/ ٤٨) ح:(٧٤).

(٢) التوضيح والبيان (مجموع المؤلفات ٦/٧٦٩)

(٣) التنبيهات اللطيفة (مجموع المؤلفات ٦/٧٢٣)

(٤) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، (١/ ٤٦) ح:(٦٠).

(٥) التوضيح والبيان (مجموع المؤلفات ٦/١٢٠)

﴿هُمۡ فِيهَا خَـٰلِدُونَ﴾ البقرة: ٢٥٧.

قال الشيخ عبد الرحمن السعدي رحمه الله: "فتولاهم بلطفه ومنَّ عليهم بإحسانه، فأخرجهم من ظلمات الكفر والمعاصي والجهل إلى نور الإيمان والطاعة والعلم، وكان جزاؤهم على هذا أن سلمهم من ظلمات القبر والحشر والقيامة إلى النعيم المقيم والراحة والفسحة والسرور"(١).

وقال تعالى: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشۡكَوٰةٖ فِيهَا مِصۡبَاحٌۖ ٱلۡمِصۡبَاحُ فِي زُجَاجَةٍۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوۡكَبٞ دُرِّيّٞ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٖ مُّبَٰرَكَةٖ زَيۡتُونَةٖ لَّا شَرۡقِيَّةٖ وَلَا غَرۡبِيَّةٖ يَكَادُ زَيۡتُهَا يُضِيٓءُ وَلَوۡ لَمۡ تَمۡسَسۡهُ نَارٞۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٖۚ يَهۡدِي ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَيَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡأَمۡثَٰلَ لِلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ﴾ النور: ٣٥.

قال الشيخ عبد الرحمن السعدي رحمه الله: "﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ الحسي والمعنوي، وذلك أنه تعالى بذاته نور، وحجابه -الذي لولا لطفه، لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه- نور، وبه استنار العرش، والكرسي، والشمس، والقمر، والنور، وبه استنارت الجنة.

وكذلك النور المعنوي يرجع إلى الله، فكتابه نور، وشرعه نور، والإيمان والمعرفة في قلوب رسله وعباده المؤمنين نور، فلولا نوره تعالى، لتراكمت الظلمات، ولهذا كل محل يفقد نوره فثم الظلمة والحصر"(٢).

ثم ضرب الله تعالى مثلًا لنوره في قلوب المؤمنين، "وهذا النور المضروب هو نور الإيمان بالله، وبصفاته وآياته مثله في قلوب المؤمنين مثل هذا النور الذي جمع جميع الأوصاف التي فيها زيادة النور، وهو أعظم مثل يعرفه العباد.

وقد دعا ﷺ لحصول هذا النور فقال: «اللهم اجعل في قلبي نورًا، وفي سمعي نورًا، وفي بصري نورًا، وعن يميني نورًا، وعن شمالي نورًا، ومن فوقي نورًا، ومن تحتي نورًا، اللهم

---

(١) تفسير السعدي (مجموع المؤلفات ٢/١٩٥)

(٢) تفسير السعدي (مجموع المؤلفات ٢/٧٩٤)

اجعلني نورًا» [(١)]"[(٢)].

"ووجه هذا المثل الذي ضربه الله، وتطبيقه على حالة المؤمن، ونور الله في قلبه، أن فطرته التي فطر عليها بمنزلة الزيت الصافي، ففطرته صافية، مستعدة للتعاليم الإلهية، والعمل المشروع، فإذا وصل إليه العلم والإيمان، اشتعل ذلك النور في قلبه، بمنزلة اشتعال النار في فتيلة ذلك المصباح، وهو صافي القلب من سوء القصد، وسوء الفهم عن الله، إذا وصل إليه الإيمان، أضاء إضاءة عظيمة، لصفائه من الكدورات، وذلك بمنزلة صفاء الزجاجة الدرية، فيجتمع له نور الفطرة، ونور الإيمان، ونور العلم، وصفاء المعرفة، نور على نوره.

ولما كان هذا من نور الله تعالى، وليس كل أحد يصلح له ذلك، قال: ﴿يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ﴾ ممن يعلم زكاءه وطهارته، وأنه يزكي معه وينمو"[(٣)].

قال الشيخ عبد الرحمن السعدي رحمه الله: "من دخل الإيمان قلبه استنار بمعرفة ربه ونور الإيمان به، وكان مخلصًا لله في كل أحواله، فإن الله يدفع عنه ببرهان إيمانه وإخلاصه من أنواع السوء والفحشاء وأسباب المعاصي ما هو جزاء لإيمانه وإخلاصه"[(٤)].

٤- زينة الإيمان في القلوب:

قال تعالى: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَٰئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ ۝٧ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ الحجرات: ٧ - ٨.

قال الشيخ عبد الرحمن السعدي رحمه الله: "وصف الله بذلك خيار خلقه، بقوله: ﴿

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الدعوات، باب الدعاء إذا انتبه بالليل (٨/ ٦٩) ح:(٦٣١٦)، ومسلم في صحيحه، كتاب الصلاة (٢/ ١٧٨) ح:(١٧٣٨).

(٢) فتح الرحيم الملك العلام (مجموع المؤلفات ٣/٧٨٧)

(٣) تفسير السعدي (مجموع المؤلفات ٢/٧٩٤)

(٤) تيسير اللطيف المنان (مجموع المؤلفات ٣/٢٦١)

وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِي قُلُوبِكُمۡ وَكَرَّهَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡكُفۡرَ وَٱلۡفُسُوقَ وَٱلۡعِصۡيَانَۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ﴿٧﴾ فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعۡمَةٗۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ﴾، فهذه أكبر المنن: أن يحبب الله الإيمان للعبد، ويزينه في قلبه، ويذيقه حلاوته، وتنقاد جوارحه للعمل بشرائع الإسلام، ويبغض الله إليه أصناف المحرمات"[١].

٥- الإيمان شجرة راسخة في القلوب:

قال الله تعالى: ﴿ أَلَمۡ تَرَ كَيۡفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا كَلِمَةٗ طَيِّبَةٗ كَشَجَرَةٖ طَيِّبَةٍ أَصۡلُهَا ثَابِتٞ وَفَرۡعُهَا فِي ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾ تُؤۡتِيٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينِۭ بِإِذۡنِ رَبِّهَاۗ وَيَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡأَمۡثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ إبراهيم: ٢٤ - ٢٥.

قال الشيخ عبد الرحمن السعدي رحمه الله: "فمثل الله كلمة الإيمان -التي هي أطيب الكلمات- بشجرة هي أطيب الأشجار، موصوفة بهذه الأوصاف الحميدة؛ أصولها ثابتة مستقرة، ونماؤها مستمر، وثمراتها لا تزال، كل وقت وكل حين، تغل على أهلها وعلى غيرهم المنافع المتنوعة، والثمرات النافعة"[٢].

---

(١) تفسير السعدي (مجموع المؤلفات ٢/١١٠٤)

(٢) تفسير السعدي (مجموع المؤلفات ٢/٥٩٩)

الفصل الثالث

تفاضل أعمال القلوب وأسبابه ودرجات الناس فيها

وفيه ثلاثة مباحث:

- **المبحث الأول: تفاضل أعمال القلوب**
- **المبحث الثاني: أسباب تفاضل أعمال القلوب**

المبحث الثالث: درجات الناس في أعمال القلوب

المبحث الأول:

تفاضل أعمال القلوب

تعريف التفاضل:

لفظ التفاضل مأخوذ من فضل يفضل فضلًا، قال ابن فارس: "(فضل) الفاء والضاد واللام أصلٌ صحيح يدلُّ على زيادةٍ في شيء، من ذلك:

الفضْل: الزِّيادة والخير.

والإفضال: الإحسان، ورجل مُفْضِل.

ويقال: فَضَل الشّيءُ يَفْضُل"[(١)].

والتفاضل اسم مفاعلة من فضل، والمراد بالتفاضل في أعمال القلوب، أي: الزيادة والنقصان فيها.

قال الشيخ عبد الرحمن السعدي رحمه الله مقررًا التفاضل في الأعمال القلبية: "ومن أصول أهل السنّة والجماعة أنَّ الدين والإيمان اسم يجمع اعتقادات القلوب وأعمالها وأعمال الجوارح، وأنَّه يزيد وينقص ويتفاضل أهل الإيمان فيه تفاضلًا عظيمًا، ... فإن المؤمنين يتفاضلون في علوم الإيمان، قلة وكثرة، وقوة يقين وضعفه، ويتفاضلون في أعمال القلوب التي هي روح الإيمان وقلبه، مثل محبة الله وخوفه ورجائه، والتوكل عليه والإنابة إليه، والإخبات والخضوع والتعظيم، هذا أمر لا يمتري فيه من له أدنى عقل.

ويتفاضلون في أعمال الجوارح كالصلاة والزكاة والصيام والحج فرض ذلك ونفله، والقيام بحقوق الله وحقوق عباده من البر والصلة للأقارب والجيران والأصحاب والإحسان إلى الخلق تفاوتًا عظيمًا"[(٢)].

---

(١) مقاييس اللغة (٤/٥٠٨)

(٢) تيسير اللطيف المنان (مجموع المؤلفات ٣/٨٠٣، ٨٠٤)

أدلة التفاضل:

قال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴾ آل عمران: ١٧٣.

وقال تعالى: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ الأنفال: ٢.

قال ابن كثير رحمه الله: "... وقد استدل البخاري وغيره من الأئمة بهذه الآية وأشباهها على زيادة الإيمان وتفاضله في القلوب كما هو مذهب جمهور الأمة، بل قد حكى الإجماع عليه غير واحد من الأئمة كالشافعي وأحمد بن حنبل وأبي عبيد، كما بينا ذلك مستقصى في أول شرح البخاري"[(١)].

وقال تعالى: ﴿ وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴾ التوبة: ١٢٤.

قال السعدي رحمه الله: "وفي هذه الآيات دليل على أن الإيمان يزيد وينقص، وأنه ينبغي للمؤمن أن يتفقد إيمانه ويتعاهده فيجدده وينميه، ليكون دائمًا في صعود"[(٢)].

قال تعالى: ﴿ وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُوا۟ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا ﴾ الأحزاب: ٢٢.

وقال تعالى: ﴿ وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةً ۙ وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيَسْتَيْقِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِيمَٰنًا ۙ وَلَا يَرْتَابَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۙ وَلِيَقُولَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْكَٰفِرُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ ۚ وَمَا هِىَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ ﴾ المدثر: ٣١.

وعند قوله تعالى: ﴿ وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ هُدًى... ﴾ مريم: ٧٦، قال الشيخ عبدالرحمن السعدي رحمه الله: "وفي هذا دليل على زيادة الإيمان ونقصه كما قاله السلف

---

(١) تفسير ابن كثير (١٢/٤)

(٢) تفسير السعدي (مجموع المؤلفات ٢/٥٠٥)

الصالح، ويدل عليه قوله تعالى: ﴿...وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِيمَٰنًا...﴾ المدثر: ٣١، ﴿...وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا...﴾ الأنفال: ٢، ويدل عليه أيضًا الواقع، فإن الإيمان قول القلب واللسان، وعمل القلب واللسان والجوارح، والمؤمنون متفاوتون في هذه الأمور أعظم تفاوت"[١].

(١) تفسير السعدي (مجموع المؤلفات ٢/١٠٨٨)

المبحث الثاني:

أسباب تفاضل أعمال القلوب

تقرر فيما سلف أن أعمال القلوب متفاضلة، تزيد وتنقص، وتقوى وتضعف، ومن أهم ما يجب على كل مسلم معرفةُ أسباب زيادة الإيمان ونقصانه، "بل الضرورة ماسة إلى معرفته والعناية معرفة واتصافًا - وذلك أن الإيمان هو كمال العبد، وبه ترتفع درجاته في الدنيا والآخرة، وهو السبب والطريق لكل خير عاجل وآجل. ولا يحصل، ولا يقوى، ولا يتم إلا بمعرفة ما منه يستمد، وإلى ينبوعه وأسبابه وطرقه.

والله تعالى قد جعل لكل مطلوب سببًا وطريقًا يوصل إليه، والإيمان أعظم المطالب وأهمها وأعمها، وقد جعل الله له مواد كبيرة تجلبه وتقويه، كما كان له أسباب تضعفه وتوهيه"(١).

ومن أسباب زيادته ما يأتي:

أولًا- تعلم العلم الشرعي:

إن العلم الشرعي المستمد من الكتاب والسنة من أعظم أسباب زيادة الإيمان في قلوب المؤمنين؛ بل إن "القلوب لا تصلح وتفلح ولا تشبع حتى يحصل لها العلم بالحقائق النافعة والعقائد الصائبة، ثم التخلق بالأخلاق الجميلة، والتنزه عن الأخلاق الرذيلة، وما جاء به الرسول كفيل بالأمرين على أكمل وجه، فلا طريق لها إلا من طريقه"(٢).

وهذا العلم الشرعي يتضمن ما يدل على الله تعالى، ويرقق قلب العبد كما أشار ابن رجب رحمه الله في تعريفه لهذا العلم الشرعي إذ قال: "فالعلم النافع هو ضبط نصوص الكتاب والسنة وفهم معانيها والتقيد في ذلك بالمأثور عن الصحابة والتابعين وتابعيهم في معاني القرآن والحديث وفيما ورد عنهم من الكلام في مسائل الحلال والحرام والزهد

---

(١) التوضيح والبيان (مجموع المؤلفات ٦/١٢٧)

(٢) الحق الواضح المبين (مجموع المؤلفات ٦/٦٨٥)

والرقائق والمعارف، وغير ذلك والاجتهاد على تمييز صحيحه من سقيمه أولًا، ثم الاجتهاد على الوقوف على معانيه وتفهمه ثانيًا، وفي ذلك كفاية لمن عقل، وشغل لمن بالعلم النافع عُني وشُغل"(١).

وقال تعالى: ﴿ لَّـٰكِنِ ٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ مِنْهُمْ وَٱلْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ ۚ وَٱلْمُقِيمِينَ ٱلصَّلَوٰةَ ۚ وَٱلْمُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ أُو۟لَـٰٓئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ النساء: ١٦٢.

وقال تعالى: ﴿ قُلْ ءَامِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَـٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ﴾ الإسراء: ١٠٧ - ١٠٩.

والأعمال تتفاضل في زيادتها ونقصها بحسب موافقتها للعلم، قال ابن القيم رحمه الله: "والأعمال إنما تتفاوت في القبول والرد بحسب موافقتها للعلم ومخالفتها له، فالعمل الموافق للعلم هو المقبول، والمخالف له هو المردود فالعلم هو الميزان، وهو المحك"(٢).

وسبب كون العلم النافع يورث الخشية وزيادة الإيمان "أن هذا العلم النافع يدل على أمرين:

١- على معرفة اللَّه وما يستحقه من الأسماء الحسنى والصفات العلى والأفعال الباهرة، وذلك يستلزم إجلاله وإعظامه وخشيته ومهابته ومحبته ورجاءه والتوكل عليه والرضا بقضائه والصبر على بلائه.

٢- المعرفة بما يحبه ويرضاه وما يكرهه ويسخطه من الاعتقادات والأعمال الظاهرة والباطنة والأقوال فيوجب ذلك لمن علمه المسارعة إلى ما فيه محبة اللَّه ورضاه والتباعد عما يكرهه ويسخطه، فإذا أثمر العلم لصاحبه هذا فهو علم نافع، فمتى كان العلم نافعًا ووقر في القلب فقد خشع القلب للَّه وانكسر له، وذل هيبة

---

(١) فضل علم السلف على علم الخلف (٩٦)

(٢) مفتاح دار السعادة (٨٢/١)

وإجلالًا وخشية ومحبة وتعظيمًا.

ومتى خشع القلب للَّه وذل وانكسر له قنعت النفس بيسير الحلال من الدنيا وشبعت به فأوجب لها ذلك القناعة والزهد في الدنيا"[(١)].

قال الشيخ عبد الرحمن السعدي ﵀: "أما العلم النافع: فهو العلم المزكي للقلوب والأرواح، المثمر لسعادة الدارين. وهو ما جاء به الرسول ﷺ من حديث وتفسير وفقه"[(٢)].

قال الشيخ عبد الرحمن السعدي –رحمه الله– مقررا أن العلم من أسباب زيادة الإيمان : "ومن وجوه زيادته ونقصه: أن المؤمنين متفاوتون في علوم الإيمان وتفاصيله، فمنهم من وصل إليه من تفاصيله وعقائده خير كثير، فازداد به إيمانه وتم به يقينه، ومنهم ما هو دون ذلك ودون ذلك، حتى تصل الحال إلى أن من المؤمنين من معه إيمان إجمالي ولم يتيسر له من التفاصيل شيء، وهو مع ذلك مؤمن"[(٣)].

وأبواب العلم الشرعي التي يحصل بسببها التفاضل في الأعمال القلبية كثيرة، منها:

١– تلاوة القرآن الكريم:

قال السعدي ﵀: "ويقويه من وجوه كثيرة، فالمؤمن بمجرد ما يتلو آيات الله، ويعرف ما ركب عليه من الأخبار الصادقة والأحكام الحسنة يحصل له من أمور الإيمان خير كثير، فكيف إذا أحسن تأمله، وفهم مقاصده وأسراره"[(٤)].

وقال ابن القيم ﵀: "وبالجملة فلا شيء أنفع للقلب من قراءة القرآن بالتدبر والتفكر، فإنه جامع لجميع منازل السائرين وأحوال العاملين ومقامات العارفين، وهو الذي يورث المحبة والشوق والخوف والرجاء والإنابة والتوكل والرضا والتفويض والشكر والصبر وسائر الأحوال التي بها حياة القلب وكماله"[(٥)].

---

(١) فضل علم السلف على علم الخلف (٩٧)

(٢) بهجة قلوب الأبرار (مجموع المؤلفات ٥/٣٣)

(٣) التنبيهات اللطيفة (مجموع المؤلفات ٦/٧٦٨)

(٤) التوضيح والبيان (مجموع المؤلفات ٦/١٢٨)

(٥) مفتاح دار السعادة (١/١٨٧)

٢- معرفة معاني أسماء الله الحسنى وصفاته العلى والعمل بمقتضاها:

العلم بمعاني أسماء الله وصفاته من أهم العلوم التي يتفاضل الناس بسببها في أحوال القلوب، ومن فوائد هذا العلم:

ما ذكره السعدي رحمه الله من أنّ الإيمان بأسماء الله الحسنى، ومعرفتها يتضمّن أنواع التوحيد الثلاثة: توحيد الربوبيّة، وتوحيد الألوهية، وتوحيد الأسماء والصفات، وهذه الأنواع هي رَوح الإيمان ورُوحه، وأصله وغايته فكلّما ازداد العبد معرفة بأسماء الله، وصفاته ازداد إيمانه، وقوي يقينه[١].

٣- تأمل محاسن الدين الإسلامي:

قال الشيخ عبد الرحمن السعدي رحمه الله: "ومنها: أن الناس يتفاوتون في الإيمان وكماله تفاوتًا عظيمًا، وكلما كان العبد أعرف بهذا الدين وأشد تعظيمًا له وسرورًا به وابتهاجًا كان أكمل إيمانًا وأصح يقينًا، فإنه برهان على جميع أصول الإيمان وقواعده"[٢].

ثانيًا- التأمل في آيات الله الكونية:

ومن الأسباب التي يتفاضل بها الإيمان الذي أصله عمل القلب: "التفكر في الكون، في خلق السماوات والأرض وما فيهن من المخلوقات المتنوعة، والنظر في نفس الإنسان، وما هو عليه من الصفات.

فإن ذلك داع قوي للإيمان، لما في هذه الموجودات من عظمة الخلق الدال على قدرة خالقها وعظمته، وما فيها من الحسن والانتظام، والإحكام الذي يحير الألباب، الدال على سعة علم الله، وشمول حكمته وما فيها من أصناف المنافع والنعم الكثيرة التي

---

(١) انظر: التوضيح والبيان (مجموع المؤلفات ٦/١٢٨)

(٢) الدرة المختصرة في محاسن الدين الإسلامي (مجموع المؤلفات ٢٣/٧٦١)

لا تعد ولا تحصى، الدالة على سعة رحمة الله، وجوده وبره، وذلك كله يدعو إلى تعظيم مبدعها وبارئها وشكره، واللهج بذكره، وإخلاص الدين له، وهذا هو روح الإيمان وبسره.

وكذلك النظر إلى فقر المخلوقات كلها، واضطرارها إلى ربها من كل الوجوه، وأنها لا تستغني عنه طرفة عين خصوصًا ما تشاهده في نفسك، من أدلة الافتقار، وقوة الاضطرار، وذلك يوجب للعبد كمال الخضوع، وكثرة الدعاء والتضرع إلى الله في جلب ما يحتاجه من منافع دينه ودنياه، ودفع ما يضره في دينه ودنياه، ويوجب له قوة التوكل على ربه، وكمال الثقة بوعده، وشدة الطمع في بره وإحسانه، وبهذا يتحقق الإيمان، ويقوى التعبد ... ولهذا دعا الله الرسول والمؤمنين إلى شكره، فقال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ وَٱشۡكُرُواْ لِلَّهِ إِن كُنتُمۡ إِيَّاهُ تَعۡبُدُونَ ﴾ البقرة: ١٧٢، وبقوله: ﴿ ...وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِي قُلُوبِكُمۡ... ﴾ الحجرات: ٧، فيكون الإيمان في القلب أعظم المحبوبات، وأجمل الأشياء، وبهذا يذوق العبد حلاوة الإيمان، ويجدها في قلبه، فيتجمل الباطن بأصول الإيمان وحقائقه، وتتجمل الجوارح بأعمال الإيمان"[١]..

---

(١) التوضيح والبيان (مجموع المؤلفات ١٣٢/٦)، وانظر: الإيمان زيادته ونقصانه وحكم الاستثناء فيه لفضيلة الشيخ أ.د. عبدالرزاق البدر .

المبحث الثالث:

درجات الناس في أعمال القلوب

يتفاضل المؤمنون في الإيمان، وتفاضله هو زيادته ونقصانه، وقد سبق في الأدلة بيان أن الإيمان يزيد وينقص، يزيد بالطاعات، وينقص بالمعاصي، والإيمان شعب، من استكملها فقد استكمل الإيمان، ومن أنقص شيئًا منها نقص إيمانه، ومن هذا الوجه يتبين تفاوت المؤمنين في الإيمان، وأنهم فيه على درجات.

قال الشيخ عبد الرحمن السعدي رحمه الله: "ذكر تعالى تفاضل الأعمال بحسب الأحوال والحكمة الإلهية، فقال: ﴿...لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُولَٰئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنفَقُوا مِن بَعْدُ وَقَاتَلُوا...﴾ الحديد: ١٠"[١].

قال الشيخ عبد الرحمن السعدي رحمه الله: "المؤمنون ثلاث مراتب: مرتبة السابقين، ومرتبة المقتصدين ومرتبة الظالمين، وكل واحدة من هذه المراتب أيضًا، أهلها متفاوتون تفاوتًا كثيرًا، والعبد المؤمن -في نفسه- له أحوال وأوقات تكون أعماله كثيرة قوية، وأحيانًا بالعكس، وكل هذا من زيادة الإيمان ونقصه، ومن قوته وضعفه"[٢].

---

(١) تفسير السعدي (مجموع المؤلفات ٢/١١٥١)

(٢) التوضيح والبيان (مجموع المؤلفات ٦/١٢٦)

المطلب الأول:
السابق بالخيرات

السابقون بالخيرات: هم الذين أدوا الواجبات والمستحبات، وتركوا المحرمات والمكروهات وفضول المباحات، وهؤلاء هم المقربون.

قال الشيخ عبد الرحمن السعدي رحمه الله مبينًا معنى تحقيق التوحيد المستحب الذين هم السابقون بالخيرات: "فإن تحقيق التوحيد تهذيبه وتصفيته من الشرك الأكبر والأصغر، ومن البدع القولية الاعتقادية، والبدع الفعلية العملية، ومن المعاصي، وذلك بكمال الإخلاص لله في الأقوال والأفعال والإرادات، وبالسلامة من الشرك الأكبر المناقض لأصل التوحيد، ومن الشرك الأصغر المنافي لكماله، وبالسلامة من البدع والمعاصي التي تكدر التوحيد، وتمنع كماله وتعوقه عن حصول آثاره"(١)

ثم بين السعدي رحمه الله صفاتهم وذكر جزاءهم فقال: "فمن حقق توحيده بأن امتلأ قلبه من الإيمان والتوحيد والإخلاص، وصدقته الأعمال بأن انقادت لأوامر الله طائعة منيبة مخبتة إلى الله ولم يجرح ذلك بالإصرار على شيء من المعاصي، فهذا الذي يدخل الجنة بغير حساب، ويكون من السابقين إلى دخولها وإلى تبوء المنازل منها.

ومن أخص ما يدخل في تحقيقه: كمال القنوت لله وقوة التوكل على الله بحيث لا يلتفت القلب إلى المخلوقين في شأن من شؤونه، ولا يستشرف إليهم بقلبه، ولا يسألهم بلسان مقاله أو حاله، بل يكون ظاهره وباطنه، وأقواله وأفعاله، وحبه وبغضه، وجميع أحواله كلها مقصودًا بها وجه الله، متبعًا فيها رسول الله.

والناس في هذا المقام العظيم درجات: ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُوا۟...﴾ الأنعام: ١٣٢"(٢).

و قال الشيخ عبد الرحمن السعدي رحمه الله: "أما الإيمان المطلق الكامل، فإنه يمنع دخول النار بالكلية، وقد ذكرنا في القواعد أن أسماء المدح والثناء على المؤمنين، وترتيب

---

(١) القول السديد (مجموع المؤلفات ٦/٧٩٧)

(٢) نفس المصدر والموضع.

الثواب المطلق عليه ونفي العقاب إنما هو الإيمان الكامل، وأن خطاب الله للمؤمنين بالأمر والنهي والتشريع يعمُّ كاملَ الإيمان و ناقصَه"[(١)].

بل إنهم يدخلونها بلا حساب كما ثبت عن النبي ﷺ أنه قال: «عُرِضَتْ عَلَيَّ الأُمَمُ فَجَعَلَ النَّبِيُّ وَالنَّبِيَّانِ يَمُرُّونَ مَعَهُمْ الرَّهْطُ وَالنَّبِيُّ لَيْسَ مَعَهُ أَحَدٌ حَتَّى رُفِعَ لِي سَوَادٌ عَظِيمٌ، قُلْتُ مَا هَذَا؟ أُمَّتِي هَذِهِ؟ قِيلَ بَلْ هَذَا مُوسَى وَقَوْمُهُ، قِيلَ انْظُرْ إِلَى الأُفُقِ فَإِذَا سَوَادٌ يَمْلأُ الأُفُقَ ثُمَّ قِيلَ لِي انْظُرْ هَاهُنَا وَهَاهُنَا فِي آفَاقِ السَّمَاءِ فَإِذَا سَوَادٌ قَدْ مَلأَ الأُفُقَ، قِيلَ هَذِهِ أُمَّتُكَ، وَيَدْخُلُ الْجَنَّةَ مِنْ هَؤُلاءِ سَبْعُونَ أَلْفًا بِغَيْرِ حِسَابٍ، ثُمَّ دَخَلَ وَلَمْ يُبَيِّنْ لَهُمْ، فَأَفَاضَ الْقَوْمُ وَقَالُوا: نَحْنُ الَّذِينَ آمَنَّا بِاللَّهِ وَاتَّبَعْنَا رَسُولَهُ فَنَحْنُ هُمْ أَوْ أَوْلادُنَا الَّذِينَ وُلِدُوا فِي الإِسْلامِ فَإِنَّا وُلِدْنَا فِي الْجَاهِلِيَّةِ؟ فَبَلَغَ النَّبِيَّ ﷺ فَخَرَجَ فَقَالَ: هُمْ الَّذِينَ لا يَسْتَرْقُونَ وَلا يَتَطَيَّرُونَ وَلا يَكْتَوُونَ وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ...»[(٢)].

وقال عز وجل مثنيًا على عباده المسابقين إلى كل خير: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴾ المؤمنون: ٥٧ - ٥٩.

وقال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ﴿٦٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ ﴿٦١﴾ وَلَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۖ وَلَدَيْنَا كِتَٰبٌ يَنطِقُ بِٱلْحَقِّ ۚ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ المؤمنون: ٦٠ - ٦٢.

وفي معرض الحديث عن صفات السابقين بالخيرات في ضوء الآية السابقة قال الشيخ عبد الرحمن السعدي رحمه الله: "همهم ما يقربهم إلى الله، وإرادتهم مصروفة فيما ينجي من عذابه، فكل خير سمعوا به، أو سنحت لهم الفرصة إليه، انتهزوه وبادروه، قد نظروا إلى أولياء الله وأصفيائه، أمامهم، ويمنة، ويسرة، يسارعون في كل خير، وينافسون في الزلفى عند ربهم، فنافسوهم.

---

(١) فتح الرحيم الملك العلام (مجموع المؤلفات ٣/٨٠٤)

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الطب، باب من اكتوى أو كوى غيره (٧/ ١٢٦) ح:(٥٧٠٥)، ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، (١/ ١٣٦) ح:(٤٤٥).

ولما كان السابق لغيره المسارع قد يسبق لجده وتشميره، وقد لا يسبق لتقصيره، أخبر تعالى أن هؤلاء من القسم السابقين فقال: ﴿ **وَهُمْ لَهَا** ﴾، أي: للخيرات، ﴿ **سَٰبِقُونَ** ﴾ قد بلغوا ذروتها، وتباروا هم والرعيل الأول، ومع هذا، قد سبقت لهم من الله سابقة السعادة، أنهم سابقون"[١].

وقال عز وجل مبينًا جزاءهم مفصلًا في أنواع ما يلقونه من نعيم: ﴿ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ﴿١٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿١١﴾ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿١٢﴾ ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْءَاخِرِينَ ﴿١٤﴾ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ ﴿١٥﴾ مُّتَّكِـِٔينَ عَلَيْهَا مُتَقَٰبِلِينَ ﴿١٦﴾ يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ ﴿١٧﴾ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴿١٨﴾ لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ ﴿١٩﴾ وَفَٰكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٢١﴾ وَحُورٌ عِينٌ ﴿٢٢﴾ كَأَمْثَٰلِ ٱللُّؤْلُؤِ ٱلْمَكْنُونِ ﴿٢٣﴾ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا ﴿٢٥﴾ إِلَّا قِيلًا سَلَٰمًا سَلَٰمًا ﴾ الواقعة: ١٠ — ٢٦.

قال الشيخ عبد الرحمن السعدي رحمه الله: "والأمر بالاستباق إلى الخيرات قدر زائد على الأمر بفعلها؛ فإن الاستباق إليها يتضمن: الأمر بفعلها، وتكميلها، وإيقاعها على أكمل الأحوال، والمبادرة إليها، ومن سبق في الدنيا إلى الخيرات فهو السابق في الآخرة إلى الجنات، فالسابقون أعلى الخلق درجة، و﴿ ...ٱلْخَيْرَٰتِ... ﴾ البقرة: ١٤٨، تشمل جميع الفرائض والنوافل من: صلاة وصيام وزكاة وصدقة وحج وعمرة وجهاد ونفع متعد وقاصر"[٢].

وقال رحمه الله: "وأما السابق إلى الخيرات فهو الذي كمل مراتب الإسلام، وقام بمرتبة الإحسان، فَعَبَدَ الله كأنه يراه، فإن لم يكن يراه فإنه يراه، وبذل ما استطاع من النفع لعباد الله، فكان قلبه ملآنًا من محبة الله والنصح لعباد الله، فأدى الواجبات والمستحبات، وترك المحرمات والمكروهات وفضول المباحات المنقصة لدرجته، فهؤلاء هم صفوة الصفوة، وهم المقربون في جنات النعيم إلى الله، وهم أهل الفردوس الأعلى، فإن الله كما أنه رحيم واسع الرحمة فإنه حكيم ينزل الأمور منازلها، ويعطي كل أحد بحسب

---

(١) تفسير السعدي (مجموع المؤلفات ٢/٧٧٥)

(٢) تيسير اللطيف المنان (مجموع المؤلفات ٣/٧٧)

حاله ومقامه، فكما كانوا هم السابقين في الدنيا إلى كل خير كانوا في الآخرة في أعلى المنازل، وكما تخيروا من الأعمال أحسنها جعل الله لهم من الثواب أحسنه ؛ ولهذا كانت عين التسنيم أعلى أشربة أهل الجنة، يشرب منها هؤلاء المقربون صرفًا، وتمزج لأصحاب اليمين مزجًا في بقية أشربة الجنة، التي لا نقص فيها بوجه من الوجوه كما قال تعالى: ﴿ وَمِزَاجُهُۥ مِن تَسْنِيمٍ ﴿٢٧﴾ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴾ المطففين: ٢٧ – ٢٨"[(١)].

قال الشيخ عبد الرحمن السعدي رحمه الله: "وصف الله الأخيار من خلقه بهذه الصفات، قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ﴿٦٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ ﴾ المؤمنون: ٥٧ — ٦١، وصفهم بكمال الإيمان به وبآياته، وبالإخلاص الكامل وترك الشرك من جميع جهاته، وبالوجل والخشية من علام الغيوب، به يؤدون الحقوق ويدعون الذنوب، أولئك الذين سارعوا إلى كل خير فسبقوا، وأولئك الذين نافسوا في كل فضيلة فأدركوا.

قال رسول الله ﷺ حين سئل عنهم: «هم الذين يصلون، ويصومون، ويتصدقون، ويحجون، ويعتقون، ويخافون ألا يتقبل منهم»[(٢)]، فقد جمعوا بين القيام بأحسن الأعمال وبين الوجل والخشية من ذي الجلال، أولئك الذين آمنوا بربهم، وعرفوا ما له من الحقوق والواجبات، فاجتهدوا في أدائها وتحقيقها، وحذروا من التقصير والهفوات، وقاموا بشروط التوبة من الندم على ما مضى، والإقلاع عن المحارم، وعزموا عزمًا جازمًا على ترك المآثم والمظالم، وسارعوا إلى ربهم بين الخوف من عقابه وعدله، وبين الرجاء والطمع في ثوابه وفضله، فالخوف يردعهم عن المعاصي والتقصير، والرجاء يحثهم على الطاعة ويطيب لهم

---

(١) تيسير اللطيف المنان (مجموع المؤلفات ٣/٣٠٣)

(٢) لم أجده بهذا اللفظ، وأخرج الترمذي معناه في سننه، أبواب تفسير القرآن، (٥/ ٣٢٧) ح:(٣١٧٥) أن عائشة، زوج النبي صلى الله عليه وسلم قالت: سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن هذه الآية: (والذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة) قالت عائشة: أهم الذين يشربون الخمر ويسرقون؟ قال: " لا يا بنت الصديق، ولكنهم الذين يصومون ويصلون ويتصدقون، وهم يخافون أن لا تقبل منهم {أولئك يسارعون في الخيرات وهم لها سابقون} ، وصححه الألباني في صحيح الترمذي ح(٣١٧٥).

المسير، والله مرادهم ومقصودهم، وهو نعم المولى ونعم النصير، والرسول إمامهم وقائدهم، وهو البشير النذير، والسراج المنير، فهؤلاء هم السادة الأبرار، وأولئك هم المتقون الأخيار"[1].

---

(١) الخطب المنبرية على المناسبات (مجموع المؤلفات ٢٣/٣٣٦ ، ٣٣٧)

المطلب الثاني:
المقتصد

قال الشيخ عبد الرحمن السعدي رحمه الله: "وأما المقتصد فهو الذي أدى الواجبات وترك المحرمات، ولم يكثر من نوافل العبادات، وإذا صدر منه بعض الهفوات بادر إلى التوبة فعاد إلى مرتبته، فهؤلاء أهل اليمين، وأما من كان من أصحاب اليمين ﴿ فَسَلَٰمٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴾ الواقعة: ٩١.

فهؤلاء سلموا من عذاب البرزخ وعذاب النار، وسلم الله لهم إيمانهم وأعمالهم، فأدخلهم بها الجنة، كل على حسب مرتبته"(١).

قال شيخ الإسلام رحمه الله: "فالأبرار أصحاب اليمين هم المتقربون إليه بالفرائض، يفعلون ما أوجب الله عليهم، ويتركون ما حرم الله عليهم، ولا يكلفون أنفسهم بالمندوبات، ولا الكف عن فضول المباحات.

وأما السابقون المقربون فتقربوا إليه بالنوافل بعد الفرائض، ففعلوا الواجبات والمستحبات، وتركوا المحرمات، والمكروهات، فلما تقربوا إليه بجميع مايقدرون عليه من محبوباتهم أحبهم الرب حبًّا تامًّا ... والمقتصدون كان في أعمالهم ما فعلوه لنفوسهم، فلا يعاقبون عليه، ولا يثابون عليه، فلم يشربوا صرفًا، بل مزج لهم من شراب المقربين بحسب ما مزجوه في الدنيا"(٢).

قال ابن القيم رحمه الله: "وأما المقتصدون فأدوا وظيفة تلك المرحلة ولم يزيدوا عليها ولم ينقصوا منها، فلا حصلوا على أرباح التجار ولا بخسوا الحق الذى عليهم، فإذا استقبل أحدهم مرحلة يومه استقبلها بالطهور التام والصلاة التامة في وقتها بأركانها وواجباتها وشرائطها، ثم ينصرف منها إلى مباحاته ومعيشته وتصرفاته التي أذن الله له فيها مشتغلًا بها قائمًا بأعيانها مؤديًا واجب الرب تعالى فيها، غير متفرغ لنوافل

---

(١) تيسير اللطيف المنان (مجموع المؤلفات ٣/٣٠٣)

(٢) الفرقان (٣٤)

العبادات وأوراد الأذكار والتوجه، فإذا حضرت الفريضة الأُخرى بادر إليها كذلك، فإذا أكملها انصرف إلى حاله الأول فهو كذلك سائر يومه ... فإذا جاء الصوم الواجب يقوم بحقه، وكذلك الزكاة الواجبة والحج الواجب، وكذلك المعاملة مع الخلق يقوم فيها بالقسط، لا يظلمهم..."(١).

وقد ذكر الله تعالى حالهم عند الموت والاحتضار فقال: ﴿ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٩٠﴾ فَسَلَٰمٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴾ الواقعة: ٩٠ - ٩١.

"﴿ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴾ وهم الذين أدوا الواجبات وتركوا المحرمات، و إن حصل منهم التقصير في بعض الحقوق التي لا تخل بتوحيدهم وإيمانهم، ﴿ف﴾ يقال لأحدهم: ﴿ ...سَلَٰمٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴾ ، أي: سلام حاصل لك من إخوانك أصحاب اليمين، أي: يسلمون عليه ويحيونه عند وصوله إليهم ولقائهم له، أو يقال له: سلام لك من الآفات والبليات والعذاب، لأنك من أصحاب اليمين الذين سلموا من الذنوب الموبقات"(٢).

---

(١) طريق الهجرتين (ص١٨٧)

(٢) تفسير السعدي (مجموع المؤلفات ٢/١١٤٩)

المطلب الثالث:
الظالم لنفسه

"العاصي وصاحب الكبيرة لا يخرج من الإيمان بالكلية، ولا يعطى الاسم الكامل المطلق، فهو مؤمن بما معه من الإيمان، فاسق ناقص الإيمان بما تركه من واجبات الإيمان، ما معه من الإيمان الذي لا يخالطه كفر يمنعه من الخلود في النار"[١].

قال الشيخ عبد الرحمن السعدي رحمه الله: "أما الظالم لنفسه فهو المؤمن الذي خلط عملًا صالحًا وآخر سيئًا، وترك من واجبات الإيمان ما لا يزول معه الإيمان بالكلية، وهذا القسم ينقسم إلى قسمين:

أحدهما: من يرد القيامة وقد كفّر عنه السيئات كلها، إما بدعاء أو شفاعة أو آثار خيرية ينتفع بها في الدنيا، أو عذب في البرزخ بقدر ذنوبه، ثم رفع عنه العقاب وعمل الثواب عمله، فهذا من أعلى هذا القسم، وهو الظالم لنفسه.

القسم الثاني: من ورد القيامة وعليه سيئات، فهذا توزن حسناته وسيئاته ثم هم بعد هذا ثلاثة أنواع:

أحدها: من ترجح حسناته على سيئاته، فهذا لا يدخل النار، بل يدخل الجنة برحمة الله وبحسناته، وهي من رحمة الله.

ثانيها: من تساوت حسناتهم وسيئاتهم، فهؤلاء هم أصحاب الأعراف، وهي موضع مرتفع بين الجنة والنار يكونون عليه، وفيه ما شاء الله، ثم بعد ذلك يدخلون الجنة، كما وصف ذلك في القرآن.

ثالثها: من رجحت سيئاته على حسناته فهذا قد استحق دخول النار، إلا أن يمنع من ذلك مانع، من شفاعة الرسول له، أو شفاعة أحد أقاربه أو معارفه ممن يجعل الله لهم في القيامة شفاعة لعلو مقاماتهم على الله وكرامتهم عليه، أو تدركه رحمة الله المحضة بلا واسطة، وإلا فلا بد له من دخول النار يعذب فيها بقدر ذنوبه، ثم مآله إلى

---

(١) فتح الرحيم الملك العلام (مجموع المؤلفات ٣/٨٠٤)

الجنة، ولا يبقى في النار أحد في قلبه أدنى مثقال حبة خردل من إيمان، كما تواترت بذلك الأحاديث عن النبي ﷺ، وأجمع عليه سلف الأمة وأئمتها "[١].

وقد ضرب الشيخ السعدي رحمه الله مثالا على تفاضل الناس في أداء الصلاة فقال: "المقتصد ؛ هو الذي يصلي الفرائض والصلوات بأوقاتها ، والسابق هو الذي يصليها في أول وقتها ويجتهد في تكميل ما فيها من المكملات والمستحبات ،والظالم لنفسه هو الذي يؤخرها عن وقتها الواجب ونحو ذلك"[٢]

---

(١) تيسير اللطيف المنان (مجموع المؤلفات ٣/٣٠٢)

(٢) مجموع الفوائد (مجموع المؤلفات ٢١/٨٢)

الفصل الرابع

الفصل الرابع : دراسة لأعمال القلوب على وجه التفصيل :

وفيه تسعة عشر مبحثا :

المبحث الأول : الإخلاص .

المبحث الثاني : المحبة .

المبحث الثالث : الخوف والخشية .

المبحث الرابع : الرجاء .

المبحث الخامس : الصدق .

المبحث السادس : التوكل .

المبحث السابع : الصبر .

المبحث الثامن : الرضا .

المبحث التاسع : اليقين .

المبحث العاشر : التفكر .

المبحث الحادي عشر : التوبة .

المبحث الثاني عشر : الخشوع .

المبحث الثالث عشر : التقوى .

المبحث الرابع عشر : المراقبة .

المبحث الخامس عشر : الزهد .

المبحث السادس عشر : الورع .

المبحث السابع عشر : الذكر .

المبحث الثامن عشر : الشكر .

المبحث التاسع عشر : الحياء .

المبحث الأول: الإخلاص

وفيه ثلاثة مطالب:

المسألة الأولى: تعـريف الإخلاص

المسألة الثانية: أنواع أدلة الإخلاص

المسألة الثالثة: ثمـرات الإخلاص

المسألة الأولى: تعريف الإخلاص

أولًا: تعريفه لغة:

الإخلاص لغة: هو مصدر الفعل الرباعي: أخلص يخلص إخلاصًا فهو مخلص، وأصل هذه المادة (خَلَص) يدور على تنقية الشيء وتهذيبه، قال ابن فارس: "خلص الخاء واللام والصاد أصل واحد مطَّرِد، وهو تنقيةُ الشَّيء وتهذيبُه.يقولون: خلَّصتُه من كذا، وخَلَصَ هو.وخُلاصة السَّمْنِ: ما أُلقِيَ فيه من تَمْرٍ أو سَويق ليخلُصَ به"[١] ، ومنه قوله تعالى: ﴿...خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا ...﴾ الأنعام: ١٣٩، أي: خالصة للرجال، حلال لهم، لا يشاركهم فيها النساء[٢]، ومنه قوله تعالى: ﴿...نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِۦ مِنۢ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا... ﴾ النحل: ٦٦، يتخلص الدم بياضه وطعمه وحلاوته من بين فرث ودم في باطن الحيوان، فيسري كلٌ إلى موطنه، إذا نضج الغذاء في معدته تصرف منه دم إلى العروق، ولبن إلى الضرع وبول إلى المثانة، وروث إلى المخرج، وكل منها لا يشوب الآخر ولا يمازجه بعد انفصاله عنه، ولا يتغير به[٣].

وقال تعالى: ﴿ ... خَلَصُواْ نَجِيًّا... ﴾ يوسف:٨٠، أي: اجتمعوا وحدهم، ليس معهم غيرهم، وجعلوا يتناجون فيما بينهم[٤].

و(أخلص) استعملها أهل اللغة في معان عدة، منها:

١- أخلص الشيء إذا اختاره وأمحضه ونقاه وهذبه من كل ما يشوبه .

٢- أخلص الشيء اختاره لنفسه، ومنه قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِي بِهِۦٓ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِى... ﴾ يوسف: ٥٤، أي: أجعله من خلصائي ومقربًا لديَّ[٥].

قال ابن منظور في مادة (خلص) -وفيه إشارة إلى الاستعمالين السابقين-:

---

[١] مقاييس اللغة (٢/٢٠٨)

[٢] تفسير السعدي (مجموع المؤلفات ٢/٣٩٣)

[٣] تفسير القرآن العظيم (٤/٥٨١)

[٤] تفسير السعدي (مجموع المؤلفات ٢/٥٧٠)

[٥] تفسير السعدي (مجموع المؤلفات ٢/٥٦٦)

"وأَخْلَصه وخَلَّصه وأَخْلَص للّه دِينَه: أَمْحَضَه، وأَخْلَصَ الشيءَ اختاره"[١] .

فيتضح مما سبق أن معنى الإخلاص لغة: صفاء الشيء عن كل ما يكدره.

ثانياً: تعريفه شرعاً:

جاء تعريف الإخلاص شرعًا في مواضع متعددة من كتب السعدي وبعبارات متنوعة تدور في معنى واحد:

قال الشيخ السعدي رحمه الله مبينًا معنى الإخلاص وما يكون فيه: "الإخلاص معناه: تخليص القصد للّه تعالى في جميع العبادات الواجبة والمستحبة، حقوق الله وحقوق عباده"[٢].

فمحل الإخلاص هو جميع العبادات: ظاهرها وباطنها، ما تعلق منها بحق الخالق أو حق المخلوقين.

وقد عرفه رحمه الله بتعريف آخر أشار فيه إلى ناقضه، وهو الرياء، فقال: "وحقيقة الإخلاص: أن يقصد العامل بعمله وجه الله وحده وثوابه.وضده: الرياء، والعمل للأغراض النفسية"[٣].

وقال في تعريفه أيضًا: "أن يقصد العبد وجه الله ورضاه وثوابه في أعماله الظاهرة والباطنة، وضده العمل للرياء والسمعة، ولأجل عرض الدنيا"[٤].

وقال –أيضًا– في بيان أوسع لمعنى الإخلاص: "اعلم أن الإخلاص لله أساس الدين، ... وهو أن يقصد العبد بعمله كله وجه الله وثوابه وفضله، فيقوم بأصول الإيمان الستة، وشرائع الإسلام الخمس، وحقائق الإيمان التي هي الإحسان، وبحقوق الله، وحقوق عباده، مكملًا لها قاصدًا بها وجه الله والدار الآخرة، لا يريد بذلك رياء ولا

---

(١) لسان العرب (١٢٢٧/٢)

(٢) تفسير السعدي (مجموع المؤلفات ١٠١٤/٢)

(٣) تفسير السعدي (مجموع المؤلفات ٩٢/٢)

(٤) تفسير السعدي (مجموع المؤلفات ٣٢٦/٢)

سمعة ولا رياسة، ولا دنيا، وبذلك يتم إيمانه وتوحيده"[١].

وقد شرح السعدي رحمه الله هذا التعريف، فقال: "وذلك أن على العبد أن ينوي نية كلية شاملة لأموره كلها، مقصودًا بها وجه الله، والتقرب إليه، وطلب ثوابه، واحتساب أجره، والخوف من عقابه. ثم يستصحب هذه النية في كل فرد من أفراد أعماله وأقواله، وجميع أحواله، حريصًا فيه على تحقيق الإخلاص وتكميله، ودفع كل ما يضاده من الرياء والسمعة، وقصد المحمدة عند الخلق، ورجاء تعظيمهم، بل إن حصل شيء من ذلك فلا يجعله العبد قصده، وغاية مراده، بل يكون القصد الأصيل منه وجه الله، وطلب ثوابه من غير التفات للخلق، ولا رجاء لنفعهم أو مدحهم. فإن حصل شيء من ذلك من دون قصد من العبد لم يضره شيء، بل قد يكون من عاجل بشرى المؤمن"[٢].

وما ذكره الشيخ السعدي رحمه الله في تعريف الإخلاص هو مما ائتلفت عليه كلمة أهل العلم، وفيما يأتي عرضٌ لبعضها:

- قال القرطبي رحمه الله: "والإخلاص: النية في التقرب إلى الله تعالى، والقصد له بأداء ما افترض على عباده المؤمنين"[٣].
- وقال ابن القيم رحمه الله: "والإخلاص: أن يخلص لله في أفعاله وأقواله وإرادته ونيته"[٤].
- وقال الشوكاني رحمه الله: "والإخلاص: أن يقصد العبد بعمله وجه الله سبحانه"[٥].

---

(١) القول السديد (مجموع المؤلفات ٦/٨٠٢)

(٢) بهجة قلوب الأبرار (مجموع المؤلفات ٥/١٠)

(٣) الجامع لأحكام القرآن (٥/٢١٣)

(٤) الداء والدواء (٣١٣)

(٥) فتح القدير (٤/٤٤٨)

ونخلص من هذه التعريفات إلى أن المعنى الشرعي للإخلاص لا يفارق المدلول اللغوي، فمادة الكلمة تدل على التصفية والتنقية، وكذا إخلاص العمل لله لا بد أن يصفَّى ويُنقَّى من كل شائبة رياء أو سمعة أو نيل عرض من الدنيا، ويكون القلب متجهًا في أعماله كلها لخالقه ومالكه ومدبر أمره، ويرجو بإخلاصه نيل ثواب الله والدار الآخرة.



المسألة الثانية: أهمية الإخلاص

أعمال القلوب هي الأصل والأساس، وبصلاحها تصلح أعمال الجوارح، وبفسادها تفسد، وعبودية الإخلاص لله لها مكانة عُليا، وأهمية كبرى، والأدلة في بيانه وتقريره متضافرة، وفيما يأتي إشارة إلى بعض وجوه أهميته من أدلة الكتاب والسنة:

١- لا يُقبل عمل إلا إذا كان خالصًا لله:

من المتقرر أن شرط قبول العمل هو الإخلاص لله في جميع الأقوال والأعمال، قال الله تعالى: ﴿... إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ المائدة: ٢٧، قال السعدي – رحمه الله – في تفسير الآية: "أصح الأقوال في تفسير المتقين هنا، أي: المتقين لله في ذلك العمل، بأن يكون عملهم خالصًا لوجه الله، متبعين فيه لسنة رسول الله ﷺ"[١].

ومن المعلوم أنه لا يقبل من العمل إلا ما كان خالصًا لوجه الله، موافقًا فيه صاحبُه الشريعةَ[٢].

والعبادة التي أمر الله بها: ما جمعت الإخلاص للمعبود والمتابعة للرسول، فإذا خلت من الأمرين أو أحدهما فهي من الأعمال اللاغية[٣].

والنصوص في تقرير هذا الأمر متضافرة؛ فمن ذلك قوله ﷺ: : "إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ ، وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَى ، فَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَى دُنْيَا يُصِيبُهَا أَوْ إِلَى امْرَأَةٍ يَنْكِحُهَا فَهِجْرَتُهُ إِلَى مَا هَاجَرَ إِلَيْهِ" [٤].

وقول النبي صلى الله عليه وسلم في الحديث القدسي: "أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنْ الشِّرْكِ

---

(١) تفسير السعدي (مجموع المؤلفات ٢/٣٣٢)

(٢) تفسير السعدي (مجموع المؤلفات ٢/١١٢٩)

(٣) القواعد الحسان (مجموع المؤلفات ٣/٤٢٩)

(٤)أخرجه البخاري في صحيحه باب بدء الوحي، كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله، (١/ ٦)، ح:(١)، ومسلم في صحيحه، كتاب الإمارة، باب قوله :«إنما الأعمال بالنية»، وأنه يدخل فيه الغزو وغيره من الأعمال، (٣/ ١٥١٥) ح:(١٩٠٧).

، مَنْ عَمِلَ عَمَلاً أَشْرَكَ فِيهِ مَعِي غَيْرِي تَرَكْتُهُ وَشِرْكَهُ"(١)

وقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : "إِنَّ اللهَ لا يَقبَلُ مِنَ العَمَلِ إلا مَا كَانَ لَهُ خَالِصاً ، وَابْتُغِيَ بِهِ وَجْهُهُ" (٢).

٢- الإخلاص هو روح الإيمان وأساس العمل:

الإخلاص هو رأس العمل وأساسه، والعمل بلا إخلاص كالجسد بلا روح، قال السعدي رحمه الله: "ومعلوم أن اتباع رضوان الله – الذي هو حقيقة الإخلاص – هو روح الإيمان وساقه الذي يقوم عليه"(٣).

ومِلاكُ أمر الدين وجِماعه الإخلاصُ لله في كل عمل.

٣- الإخلاص هو الفارق بين المؤمنين والمشركين:

جعل الله الإخلاص سمةً لخُلص أوليائه المؤمنين، وعلامةً يتميزون بها عن أعدائهم من المشركين والمنافقين؛ قال الله تعالى مبينًا ما فارق به المؤمنون المشركين: ﴿ قُلْ أَتُحَآجُّونَنَا فِي ٱللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُخْلِصُونَ ﴾ البقرة: ١٣٩، فقد كان أهل الكتاب يزعمون أنهم أولى بالله من المسلمين، وهذا مجرد دعوى، تفتقر إلى برهان، فإذا كان رب الجميع واحدًا، ليس ربًا لكم دوننا، وكل منا ومنكم له عمله، فاستوينا نحن وإياكم بذلك.فهذا لا يوجب أن يكون أحد الفريقين أولى بالله من غيره؛ لأن التفريق مع الاشتراك في الشيء – من غير فرق مؤثر – دعوى باطلة، وتفريق بين متماثلين، وإنما يحصل التفضيل بإخلاص الأعمال الصالحة لله وحده،

---

(١) أخرجه مسلم صحيحه، كتاب الزهد والرقائق، باب من أشرك في عمله غير الله، (٤/ ٢٢٨٩) ح:(٢٩٨٥).

(٢)أخرجه النسائي في سننه كتاب الجهاد باب من غزا يلتمس الأجر والذكر (٦/ ٢٥) ح:(٣١٤٠)، والطبراني في الكبير (٨/ ١٤٠)، ح:(٧٦٢٨)، قال ابن الأثير في جامع الأصول (٢/ ٥٨٤) سنده حسن، وحسنه الألباني في صحيح الجامع، (١/ ٣٧٩).

(٣) تيسير اللطيف المنان (مجموع المؤلفات ٥٦/٣)

وهذه الحالة وصف المؤمنين وحدهم، فتعين أنهم أولى بالله من غيرهم؛ فهذا هو الفرق بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان[1].

وكما أن الإخلاص فارق بين المؤمنين والمشركين فهو أيضا فارق بين المؤمنين والمنافقين؛ فالمنافقون خالدون في النار لا يخرجون منها أبدًا كسائر المشركين؛ لأنهم لم يخلصوا في عبادتهم لله، وهو شرط الدخول في الإسلام، وزادوا على ذلك فكانوا تحت الكفار والمشركين في الدرك الأسفل من النار، قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ... ﴾ النساء: ١٤٥؛ لأنهم وافقوا المشركين في شركهم بالله، وزادوا عليهم بمخادعة المؤمنين والمكر بهم، وتظاهروا بالإسلام، فاستحقوا أن يعاملوا معاملة أهل الإسلام؛ فلذلك أغلظ الله عليهم في العذاب .

ثم استثنى الله من تاب وأصلح وأخلص من العذاب المذكور، فقال: ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ وَأَصْلَحُوا۟ وَٱعْتَصَمُوا۟ بِٱللَّهِ وَأَخْلَصُوا۟ دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ... ﴾ النساء: ١٤٦، ولشدة منافاة الإخلاص للنفاق خصه بالذكر بعد الإشارة إليه في عموم الإصلاح الوارد في الآيات بعدها؛ فتأمل "كيف خص الاعتصام والإخلاص بالذكر، مع دخولهما في قوله: ﴿وَأَصْلَحُوا۟ ﴾؛ لأن الاعتصام والإخلاص من جملة الإصلاح، لشدة الحاجة إليهما خصوصًا في هذا المقام الحرج الذي يمكن من القلوب النفاق، فلا يزيله إلا شدة الاعتصام بالله، ودوام اللجوء والافتقار إليه في دفعه، وكون الإخلاص منافيًا كل المنافاة للنفاق، فذكرهما لفضلهما وتوقفِ الأعمال الظاهرة والباطنة عليهما، ولشدة الحاجة في هذا المقام إليهما"[2].

٤- المخلصون هم أحسن المؤمنين دينا:

عمل الملخص أكمل عمل، ومسلكه أحكم مسلك، إذا أضاف لإخلاصه الاتباع لسنة النبي ﷺ، قال تعالى: ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ

---

(١) تفسير السعدي (مجموع المؤلفات ٢/١٤٤)

(٢) تفسير السعدي (مجموع المؤلفات ٢/٣٠٩)

﴿مُحۡسِنٞ وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ حَنِيفٗاۗ وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبۡرَٰهِيمَ خَلِيلٗا﴾النساء: ١٢٥.

قال السعدي رحمه الله: "أي: لا أحد أحسن من دين من جمع بين الإخلاص للمعبود، وهو إسلام الوجه لله الدال على استسلام القلب وتوجهه وإنابته وإخلاصه، وتوجه الوجه وسائر الأعضاء لله...

﴿وَهُوَ﴾ مع هذا الإخلاص والاستسلام ﴿مُحۡسِنٞ﴾، أي: متبع لشريعة الله التي أرسل بها رسله، وأنزل كتبه، وجعلها طريقًا لخواص خلقه وأتباعهم"[١].

فلا أحسن ممن هو مخلص لله ، محسن إلى عباد الله ، متبع لشريعة الله التي هي أحسن الشرائع وأعدل المناهج ، فانصبغ قلبه بالإخلاص والتوحيد ، واستقامت أخلاقه وأعماله على الهداية والتسديد[٢].

وإتيان العبد بالإخلاص هو الدين المستقيم الذي وعد الله من سار عليه بجنات النعيم، قال تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلۡقَيِّمَةِ﴾البينة: ٥، بيّن السعدي رحمه الله معناها، فقال: "ما أمروا في سائر الشرائع إلا أن يعبدوا ﴿ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾، أي: قاصدين بجميع عباداتهم الظاهرة والباطنة وجه الله، وطلب الزلفى لديه، ﴿حُنَفَآءَ﴾، أي: معرضين [مائلين] عن سائر الأديان المخالفة لدين التوحيد ...، ﴿وَذَٰلِكَ﴾، أي: التوحيد والإخلاص في الدين، هو ﴿دِينُ ٱلۡقَيِّمَةِ﴾، أي: الدين المستقيم، الموصل إلى جنات النعيم، وما سواه فطرق موصلة إلى الجحيم"[٣].

❁❁❁

([١]) تفسير السعدي (مجموع المؤلفات ٢/٣٠١، ٣٠٢)

([٢]) الدين الصحيح يحل جميع المشاكل للسعدي (مجموع المؤلفات ٢٣/٧٩٣)

([٣]) تفسير السعدي (مجموع المؤلفات ٢/١٢٦٧)

المسألة الثالثة: ثمرات الإخلاص

إخلاص العمل لله هو أصل الدين، ولما كان هذا الأصل فارقًا بين المؤمن والمشرك رتب الشارع على الإتيان به أجورًا عظيمة وخيرات عميمة، وفيما يأتي سرد لأبرز ثماره، وأهم آثاره؛ مما جاءت الإشارة إليه في كلام الشيخ عبد الرحمن السعدي رحمه الله:

١- الإخلاص سبب للنجاة من النار ودخول الجنة:

أعظم سبب يدخل العبد الجنة وينجيه من النار هو إخلاصه العبادة لله سبحانه في سائر الأقوال والأعمال، قال تعالى: ﴿ بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ البقرة: ١١٢، قال الشيخ عبد الرحمن السعدي: "﴿ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ ﴾، أي: أخلص لله أعماله، متوجهًا إليه بقلبه، ﴿ وَهُوَ ﴾ مع إخلاصه ﴿ مُحْسِنٌ ﴾ في عبادة ربه، بأن عبده بشرعه، فأولئك هم أهل الجنة وحدهم.﴿ فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ ﴾ وهو الجنة بما اشتملت عليه من النعيم، ﴿ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ فحصل لهم المرغوب، ونجوا من المرهوب.ويفهم منها أن من ليس كذلك، فهو من أهل النار الهالكين، فلا نجاة إلا لأهل الإخلاص للمعبود، والمتابعة للرسول"[١].

وقال تعالى: ﴿ ... فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴾ الكهف: ١١٠، أي: لا يرائي بعمله، بل يعمله خالصًا لوجه الله تعالى، فهذا الذي جمع بين الإخلاص والمتابعة، هو الذي ينال ما يرجو ويطلب، وأما من عدا ذلك، فإنه خاسر في دنياه وأخراه، وقد فاته القرب من مولاه، ونيل رضاه[٢].

وما ينال أهل الجنة من نعيم مقيم وثواب عظيم هو بسبب الإخلاص لله رب

---

(١) تفسير السعدي (مجموع المؤلفات ٢/١٣٥)

(٢) تفسير السعدي (مجموع المؤلفات ٢/٦٨٦)

العالمين، قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُدۡخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ يُحَلَّوۡنَ فِيهَا مِنۡ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٖ وَلُؤۡلُؤٗاۖ وَلِبَاسُهُمۡ فِيهَا حَرِيرٞ ﴿٢٣﴾ وَهُدُوٓاْ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلۡقَوۡلِ وَهُدُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡحَمِيدِ ﴾الحج: ٢٣-٢٤، قال السعدي: "وذلك بسبب أنهم ﴿ وَهُدُوٓاْ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلۡقَوۡلِ ﴾ الذي أفضله وأطيبه كلمة الإخلاص"[١].

ولما ذكر الله شأن الكافرين الضالين المعاندين وما ينالهم من عذاب أليم، في سورة الصافات في قوله تعالى: ﴿ أَذَٰلِكَ خَيۡرٞ نُّزُلًا أَمۡ شَجَرَةُ ٱلزَّقُّومِ ﴿٦٢﴾ إِنَّا جَعَلۡنَٰهَا فِتۡنَةٗ لِّلظَّٰلِمِينَ ﴿٦٣﴾ إِنَّهَا شَجَرَةٞ تَخۡرُجُ فِيٓ أَصۡلِ ٱلۡجَحِيمِ ﴿٦٤﴾ طَلۡعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴿٦٥﴾ فَإِنَّهُمۡ لَأٓكِلُونَ مِنۡهَا فَمَالِـُٔونَ مِنۡهَا ٱلۡبُطُونَ ﴿٦٦﴾ ثُمَّ إِنَّ لَهُمۡ عَلَيۡهَا لَشَوۡبٗا مِّنۡ حَمِيمٖ ﴿٦٧﴾ ثُمَّ إِنَّ مَرۡجِعَهُمۡ لَإِلَى ٱلۡجَحِيمِ ﴿٦٨﴾ إِنَّهُمۡ أَلۡفَوۡاْ ءَابَآءَهُمۡ ضَآلِّينَ ﴿٦٩﴾ فَهُمۡ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمۡ يُهۡرَعُونَ ﴿٧٠﴾ وَلَقَدۡ ضَلَّ قَبۡلَهُمۡ أَكۡثَرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴿٧١﴾ وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا فِيهِم مُّنذِرِينَ ﴿٧٢﴾ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُنذَرِينَ ﴿٧٣﴾ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلۡمُخۡلَصِينَ ﴾الصافات: ٦٢-٧٤، استثنى الله منهم أهل الإخلاص له سبحانه من العذاب والهلاك. قال السعدي رحمه الله: "ولما كان المنذرون ليسوا كلهم ضالين، بل منهم من آمن وأخلص الدين للّه، استثناه اللّه من الهلاك، فقال: ﴿ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلۡمُخۡلَصِينَ ﴾، أي: الذين أخلصهم اللّه، وخصهم برحمته لإخلاصهم، فإن عواقبهم صارت حميدة"[٢].

٢- قوة الإخلاص سبب لمضاعفة الحسنات وزيادة الأجور:

بالعمل القليل مع الإخلاص يتضاعف الثواب، و"العمل القليل من المخلص يعادل الأعمال الكثيرة من غيره"[٣]، ويدل على ذلك عدة نصوص، منها:

---

(١) تفسير السعدي (مجموع المؤلفات ٢/٧٥٠)

(٢) تفسير السعدي (مجموع المؤلفات ٢/٩٧١)

(٣) فتح الرحيم الملك العلام (مجموع المؤلفات ٣/٨٢٦)

- قوله تعالى: ﴿... لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا... ﴾ الملك: ٢، قال الفضيل بن عياض مفسرًا (أحسن العمل): "أخلصه وأصوبه؛ فإنه إذا كان خالصًا ولم يكن صوابًا لم يقبل، وإذا كان صوابًا ولم يكن خالصًا لم يقبل حتى يكون خالصًا صوابًا، والخالص إذا كان لله، والصواب إذا كان على السنة"[1] .

فقوله : (أخلصه) صيغة تفضيل ، تدل على تفاضل الناس في الإخلاص .

يقول النبي صلى الله عليه وسلم: "من تصدق بعدل تمرة من كسب طيب – ولا يقبل الله إلا الطيب – فإن الله يقبلها بيمينه ، ثم يربيها لصاحبها كما يربي أحدكم فلوه حتى تكون مثل الجبل العظيم"[2]

- قوله تعالى: ﴿... وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ... ﴾ البقرة: ٢٦١، قال ابن كثير: "أي: بحسب إخلاصه في عمله"[3].

وقال السعدي رحمه الله في تفسيرها: "وذلك بحسب ما يقوم في قلب المنفق من الإيمان والإخلاص التام"[4].

وقال رحمه الله: "وأما الحسنة: فأقل التضعيف أو الواحدة بعشر، وقد تزيد على ذلك بأسباب، منها: قوة إيمان العامل، وكمال إخلاصه.فكلما قوي الإيمان والإخلاص تضاعف ثواب العمل"[5].

وقال رحمه الله: "كمال الأجر وتمامه بحسب النية والإخلاص، ولهذا قال: ﴿... وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ النساء: ١١٤؛

---

(1) مدارج السالكين (١/١٠٥)

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الزكاة، باب الصدقة من كسب طيب، (٢/ ١٠٨)ح:(١٤١٠) ومسلم في صحيحه، كتاب الزكاة، باب قبول الصدقة من الكسب الطيب وتربيتها، (٢/ ٧٠٢)ح:(١٠١٤) واللفظ للبخاري

(3) تفسير ابن كثير (١/٦٩٣).

(4) تفسير السعدي (مجموع المؤلفات ٢/١٩٨)

(5) بهجة قلوب الأبرار (مجموع المؤلفات ٥/٩٧)

فلهذا ينبغي للعبد أن يقصد وجه الله تعالى ويخلص العمل لله في كل وقت وفي كل جزء من أجزاء الخير، ليحصل له بذلك الأجر العظيم، وليتعود الإخلاص فيكون من المخلصين، وليتم له الأجر، سواء تم مقصوده أم لا؛ لأن النية حصلت، واقترن بها ما يمكن من العمل""[١].

ويدل على هذا المعنى من السنة عدة أحاديث ، منها :

- قول النبي صلى الله عليه وسلم : "إذا أحسن أحدكم إسلامه ، فكل حسنة يعملها تكتب بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف ، وكل سيئة يعملها تكتب بمثلها حتى يلقى الله عز وجل"[٢]

ويؤكد هذا قول النبي صلى الله عليه وسلم :"إِنَّ اللَّهَ كَتَبَ الْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ، ثُمَّ بَيَّنَ ذَلِكَ، فَمَنْ هَمّ بِحَسَنَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا كَتَبها اللَّهُ عِنْدَهُ حَسَنَةً كَامِلَةً، وَإِنْ هَمَّ بِهَا فَعَمِلَهَا كَتَبَهَا اللَّهُ عِنْدَهُ عَشْرَ حَسَنَاتٍ إِلَى سَبْعِمِائَةِ ضِعْفٍ، إِلَى أَضْعَافٍ كَثِيرَةٍ..."[٣]. ، وهذا يدل على أن تضعيف حسنة العمل إلى عشرة مجزوم به وما زاد عليها جائز وقوعه بحسب الزيادة في الإخلاص وصدق العزم وحضور القلب[٤].

وقال ابن المبارك : "رُب عمل صغير تعظمه النية ، ورُب عمل كبير تصغره النية"[٥]، و"من أعظم أسباب مضاعفة العمل إذا حقق العبد في عمله الإخلاص للمعبود ، والمتابعة للرسول ، فمضاعفة الأعمال تبع لما يقوم بقلب العامل من قوة

---

(١) تفسير السعدي (مجموع المؤلفات ٢/٢٩٧)

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الإيمان، باب حسن إسلام المرء، (١/ ١٧)ح:(٤٢)، ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب إذا هم العبد بحسنة كتبت، وإذا هم بسيئة لم تكتب، (١/ ١١٧)ح:(١٢٩) واللفظ لمسلم.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الرقاق، باب من هم بحسنة أو بسيئة، (٨/ ١٠٣)ح:(٦٤٩١) ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب إذا هم العبد بحسنة كتبت، وإذا هم بسيئة لم تكتب، (١/ ١١٨)، ح:(١٣١).

(٤) فتح الباري لابن حجر (٣٢٦/١١)

(٥) الإخلاص والنية لابن أبي الدنيا (ص٧٣).

الإخلاص وقوة الإيمان"[١].

بل إن هذا يشبه أن يكون اتفاقاً بين العلماء ، قال السعدي رحمه الله : "مما هو كالمتفق عليه بين العلماء الربانيين أن الاتصاف في جميع الأوقات بقوة الإخلاص لله ، والنصح لعباد الله ، ومحبة الخير للمسلمين مع اللهج بذكر بقوة لا يلحقها شيء من الأعمال ، وأهلها سابقون لكل فضيلة وأجر وثواب ، وبقية الأعمال تبع لها ، فأهل الإخلاص والإحسان والذكر هم السابقون السابقون أولئك المقربون في جنات النعيم"[٢].

ومن أمثلة الأعمال التي يُضاعف بها الثواب بسبب الإخلاص النفقة التي يبذلها المسلم مخلصًا لله سبحانه، قال تعالى: ﴿ وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍۭ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَـَٔاتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ... ﴾البقرة: ٢٦٥، فهذا المنفق "لما كانت نفقته مقبولة مضاعفة؛ لصدورها عن الإيمان والإخلاص التام ﴿ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ ﴾، أي: ينفقون وهم ثابتون على وجه السماحة والصدق، فمثل هذا العمل ﴿كَمَثَلِ جَنَّةٍۭ بِرَبْوَةٍ ﴾، وهو المكان المرتفع، لأنه يتبين للرياح والشمس، والماء فيها غزير.فإن لم يصبها ذلك الوابل الغزير، حصل طل كاف، لطيب منبتها، وحسن أرضها، وحصول جميع الأسباب الموفرة لنموها وازدهارها وإثمارها.ولهذا ﴿ فَـَٔاتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ ﴾، أي: متضاعفًا.وهذه الجنة التي على هذا الوصف، هي أعلى ما يطلبه الناس، فهذا العمل الفاضل بأعلى المنازل"[٣].

قال ابن القيم رحمه الله عن هذه الآية: "هذا مثل الذي مصدر نفقته عن الإخلاص والصدق، فإن ابتغاء مرضاته سبحانه هو: الإخلاص، والتثبيت من النفس هو: الصدق

([١])تيسير اللطيف المنان (مجموع المؤلفات ٣٠٧/٣)

([٢])تيسير اللطيف المنان (مجموع المؤلفات ٣٠٩/٣)

([٣]) تفسير السعدي (مجموع المؤلفات ١٩٩/٢)

في البذل ..." [(١)].

٣- الإخلاص يورث العبد أن يكون من المخلَصين المختارين:

أخبر الله في كتابه عن اصطفائه لأنبيائه وأوليائه، وأعظم سبب لهذا الاصطفاء هو كمال إخلاصهم لله سبحانه، ومن ذلك ما أخبر من الله عن اصطفائه لموسى عليه السلام، قال تعالى: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مُوسَىٰ إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا﴾ مريم: ٥١، قال السعدي رحمه الله: "﴿إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا﴾ قرئ بفتح اللام، على معنى أن الله تعالى اختاره واستخلصه، واصطفاه على العالمين.وقرئ بكسرها، على معنى أنه كان مخلص لله تعالى، في جميع أعماله، وأقواله، ونياته، فوصفه الإخلاص في جميع أحواله، والمعنيان متلازمان، فإن الله أخلصه لإخلاصه، وإخلاصه موجب لاستخلاصه، وأجل حالة يوصف بها العبد، الإخلاص منه، والاستخلاص من ربه"[(٢)].

وقال الله تعالى عن يوسف عليه السلام: ﴿...إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾ يوسف: ٢٤، "قرئ بكسر اللام وفتحها، وهما متلازمتان؛ لأن الله تعالى لإخلاصهم جعلهم من المخْلَصين.فالمخلصون هم خلاصة الخلق وصفوتهم، وهل يوجد أكمل ممن خلصت إرادتهم ومقاصدهم لله وحده طلبًا لرضاه وثوابه، وتفرعت أعمالهم الظاهرة والباطنة على هذا الأصل الطيب الجليل، ومثل كلمة طيبة ﴿... كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا...﴾إبراهيم: ٢٤-٢٥ .

فكلما قوي إخلاص العبد كملت عبوديته، "وإنما يحصل التفضيل، بإخلاص الأعمال الصالحة لله وحده، وهذه الحالة وصف المؤمنين وحدهم، فتعين أنهم أولى بالله من غيرهم؛ لأن الإخلاص هو الطريق إلى الخلاص"[(٣)].

فبإخلاص العمل لله يَخلص المرء من تبعة السؤال والمؤاخذة يوم القيامة، قال ابن

---

(١) طريق الهجرتين (٣٦٩/١)

(٢) تفسير السعدي (مجموع المؤلفات ٦٩٥/٢)

(٣) تفسير السعدي (مجموع المؤلفات ١٤٤/٢)

القيم رحمه الله: "قال بعض السلف: ما من فعلة وإن صغرت إلا ينشر لها ديوانان: لِمَ؟ وكيفَ؟ أي: لم فعلت ؟ وكيف فعلت ؟ فالأول سؤال عن علة الفعل وباعثه وداعيه: هل هو حظ عاجل من حظوظ العامل وغرض من أغراض الدنيا في محبة المدح من الناس، أو خوف ذمهم أو استجلاب محبوب عاجل أو دفع مكروه عاجل، أم الباعث على الفعل القيام بحق العبودية وطلب التودد والتقرب إلى الرب سبحانه وتعالى وابتغاء الوسيلة إليه.ومحل هذا السؤال أنه هل كان عليك أن تفعل هذا الفعل لمولاك أو فعلته لحظك وهواك ؟ ..."[1].

وإذا قوي إخلاص العبد بالله وتعلقه به والتجاؤه إليه فإنه يبلغ به منزلة شريفة ورتبة منيفة ، وهي منزلة الصديقية ، قال السعدي رحمه الله : "فالصديقية شجرة أصلها العلوم الصحيحة والعقائد السلفية المأخوذة من كتاب الله وسنة رسوله ، وقوامها وروحها الإخلاص الكامل لله والإنابة إليه ، والرجوع إليه في جميع الأحوال رغبة ورهبة ومحبة وتعظيماً وخضوعاً وذلاً لله ، وثمراتها الأخلاق الحميدة والأقوال السديدة والأعمال الصالحة ..."[2].

٤- بالإخلاص يُعصَم العبدُ من الشيطان:

السبب الأعظم للنجاة من حبائل إبليس، والسلامة من شَرَك ما يضلل به العبد من شرك وتلبيس، هو اللجوء إلى الله بإخلاص العمل له، قال الله تعالى حكاية عن إبليس: ﴿ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ ... ﴾الحجر: ٣٩، أي: أزين لهم الدنيا وأدعوهم إلى إيثارها على الآخرة حتى يكونوا منقادين لكل معصية ﴿ ... وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ أي أصدهم كلهم عن الصراط المستقيم ﴿ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴾ الحجر: ٤٠، أي: الذين أخلصتهم واجتبيتهم لإخلاصهم وإيمانهم وتوكلهم[3].

---

(1)إغاثة اللهفان (٨/١)

(2)تيسير اللطيف المنان (مجموع المؤلفات ٣٠١/٣)

(3) تفسير السعدي (مجموع المؤلفات ٦٠٩/٢)

فالمخلص لله في عمله ينجو من كيد الشيطان وإغوائه؛ لأن قلبه متعلق بالله ملتجئ إليه، ومن كان هذا شأنه فإنه قد آوى إلى ركن شديد، والله عز وجل حسبه وناصره ووليه، ولهذا نجى الله يوسف عليه السلام من تزيين الشيطان وإغواء امرأة العزيز بإخلاصه لله واعتصامه بالله.

٥- الإخلاص من أعظم الخصال الموصلة إلى الظِلال:

يوم القيامة طويلٌ قدره، قال تعالى: ﴿ تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ﴾ المعارج: ٤، عظيمٌ هوله، قال تعالى: ﴿ ... إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَىْءٌ عَظِيمٌ ﴾ الحج: ١، "تُدنى الشمس يوم القيامة من الخلق حتى تكون منهم كمقدار ميل، فيكون الناس على قدر أعمالهم في العرق، فمنهم من يكون إلى كعبيه، ومنهم من يكون إلى ركبتيه، ومنهم من يكون إلى حقويه، ومنهم من يلجمه العرق إلجامًا.قال: وأشار رسول الله بيده إلى فيه ..." [(١)]

وقال عليه الصلاة والسلام : يعرق الناس يوم القيامة حتى يذهب عرقهم في الأرض سبعين ذراعاً"[(٢)]

وأعظم سبب للنجاة من حر الشمس والاستظلال بظل العرش يوم القيامة هو الإخلاص ، وهذا ما يدل عليه حديث السبعة الذي قال فيه صلى الله عليه وسلم : "سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمُ اللّهُ فِي ظِلِّهِ يَوْمَ لاَ ظِلَّ إِلاَّ ظِلُّهُ : الإِمَامُ الْعَادِلُ ، وَشَابٌّ نَشَأَ فِي عِبَادَةِ اللّهِ ، وَرَجُلٌ قَلْبُهُ مُعَلَّقٌ فِي الْمَسَاجِدِ ، وَرَجُلاَنِ تَحَابَّا فِي اللّهِ ، اجْتَمَعَا عَلَيْهِ وَتَفَرَّقَا عَلَيْهِ ، وَرَجُلٌ دَعَتْهُ امْرَأَةٌ ذَاتُ مَنْصِبٍ وَجَمَالٍ ، فَقَالَ : إِنِّي أَخَافُ اللّهَ ، وَرَجُلٌ تَصَدَّقَ بِصَدَقَةٍ فَأَخْفَاهَا حَتَّىٰ لاَ تَعْلَمُ شماله مَا تُنْفِقُ يمينه ، وَرَجُلٌ ذَكَرَ اللّهَ خَالِياً ، فَفَاضَتْ

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب في صفة يوم القيامة أعاننا الله على أهوالها، (٤/ ٢١٩٦)، ح:(٢٨٦٤).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الرقاق، باب قول الله تعالى:{ألا يظن أولئك أنهم مبعوثون ليوم عظيم يوم يقوم الناس لرب العالمين} (٨/ ١١١)ح:(٦٥٣٢)، ومسلم في صحيحه، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب في صفة يوم القيامة أعاننا الله على أهوالها (٤/ ٢١٩٦)ح: (٢٨٦٣) واللفظ للبخاري.

عَيْنَاهُ"[١].

وكل واحد من هؤلاء السبعة كمَّل العبادة التي يقوم بها ، فالإمام العادل كمل ما يجب من الإمارة ، والشاب الناشئ في عبادة الله كمل ما يجب من عبادة الله ، والمعلق قلبه بالمساجد كمل عمارة المسجد بالصلوات الخمس ، والعفيف كمل الخوف من الله ، والمتصدق كمل الصدقة والإخلاص فيها لله ، والباكي كمل الإخلاص ، كما ذكره شيخ الإسلام رحمه الله.

وأبلغ ما يدل على الإخلاص من الأعمال المذكورة في الحديث هو إخفاء الصدقة

،

وهذا يدل على قوة الإخلاص[٢].

وكذلك من أحب لله وفي الله ، وكذلك مَن ذكر الله خالياً ففاضت عيناه .

قال النووي رحمه الله : "وَفِي هَذَا الْحَدِيث فَضْل صَدَقَة السِّرّ ، قَالَ الْعُلَمَاء : وَهَذَا فِي صَدَقَة التَّطَوُّع فَالسِّرّ فِيهَا أَفْضَل ؛ لِأَنَّهُ أَقْرَب إِلَى الْإِخْلَاص وَأَبْعَد مِنْ الرِّيَاء"[٣].

وقال رحمه الله : "فِيهِ فَضِيلَة الْبُكَاء مِنْ خَشْيَة اللَّه تَعَالَى ، وَفَضْل طَاعَة السِّرّ لِكَمَالِ الْإِخْلَاص فِيهَا"[٤].

٦- الإخلاص من أسباب النصر:

من ثمار الإخلاص العظيمة أن من نصر الله بالإخلاص له وإفراده بالعبادة فإن الله يبدل خوفه أمنًا، وضعفه قوة وتمكينًا، قال تعالى: ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأذان، باب من جلس في المسجد ينتظر الصلاة وفضل المساجد (١/ ١٣٣)، ح:(٦٦٠)، ومسلم في صحيحه كتاب الزكاة باب فضل إخفاء الصدقة (٢/ ٧١٥)ح:(١٠٣١) واللفظ للبخاري

(٢) تفسير السعدي (مجموع المؤلفات ٢/٢٠١)

(٣) شرح النووي على مسلم (١٢٢/٧)

(٤) شرح النووي على مسلم (١٢٣/٧)

دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا... ﴾ النور: ٥٥، فاشترط الله في حصول نصرهم وعزتهم وتمكينهم: إخلاص الدين له تعالى.

وقد دلت السنة على أثر الإخلاص في نصر هذه الأمة، قال ﷺ: "إنما ينصر الله هذه الأمة بضعيفها، بدعوتهم وصلاتهم وإخلاصهم"[(١)].

وهو كذلك من أسباب الثبات على الحق وعدم النكوص عنه ، قال السعدي رحمه الله : "ومن أسباب الثبات والنصر : حسن النية ، وكمال الإخلاص في إعلاء كلمة الحق"[(٢)].

٧- بالإخلاص يحقق المرء السعادة والطمأنينة :

استقرار الإخلاص في قلب المؤمن يورثه سعادة وطمأنينة وأنساً ؛ فلا يقلق ولا يضطرب ؛ بل إنَّ "مدار السعادة ومادتها أمران : الإخلاص لله ، الذي أصله الإيمان بالله ، والإحسان إلى الخلق بوجوه الإحسان"[(٣)].

و"لا طريق للفلاح سوى الإخلاص في عبادة الخالق ، والسعي في نفع عبيده ، فمن وفق لذلك ، فله القدح المعلى ، من السعادة والنجاح والفلاح"[(٤)].

ومما يبين اطمئنان قلب المخلص وسعادته المثل الذي ضربه الله للمشرك والمخلص في قوله تعالى: ﴿ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ۚ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ الزمر: ٢٩، وقد ضرب الله هذا المثل مبينًا لحال المخلصين، وما يورثه الإخلاص في نفوسهم من طمأنينة وانشراح صدر، ففي الآية جاء مثل المشرك بربه كالعبد الذي يتنازعه شركاء متشاكسون، والموحد المخلص لله

---

(١) أخرجه النسائي في سننه، كتاب الجهاد، باب الاستنصار بالضعيف (٦/ ٤٥)،ح:(٣١٧٨)، والبيهقي في السنن الكبرى، كتاب قسم الفيء والغنيمة، باب من دخل يريد الجهاد فمرض أو لم يقاتل، (٦/ ٥٣٨)ح:(١٢٩٠٤) وصححه الألباني في صحيح الجامع (١/ ٤٧٠).

(٢) تيسير اللطيف المنان (مجموع المؤلفات ٣/١١٥)

(٣) تفسير السعدي (مجموع المؤلفات ٢/١٢٠٩)

(٤) تفسير السعدي (مجموع المؤلفات ٢/٧٦٥)

السالم من تعلقه بغيره؛ فمثل المشرك هو العبد الذي ﴿ فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ ﴾ كثيرون، وليسوا متفقين على أمر من الأمور وحالة من الحالات حتى تمكن راحته، بل هم متشاكسون متنازعون فيه، كل له مطلب يريد تنفيذه ويريد الآخر غيره، فما تظن حال هذا الرجل مع هؤلاء الشركاء المتشاكسين؟

﴿ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ ﴾ أي: خالصًا له، قد عرف مقصود سيده، وحصلت له الراحة التامة.﴿ هَلۡ يَسۡتَوِيَانِ ﴾ – أي: هذان الرجلان – ﴿ مَثَلًا ﴾ ؟ لا يستويان.

كذلك المشرك، فيه شركاء متشاكسون، يدعو هذا، ثم يدعو هذا، فتراه لا يستقر له قرار، ولا يطمئن قلبه في موضع، والموحد مخلص لربه، قد خلصه الله من الشركة لغيره، فهو في أتم راحة وأكمل طمأنينة، فـ ﴿ هَلۡ يَسۡتَوِيَانِ مَثَلًاۚ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ﴾ على تبيين الحق من الباطل، وإرشاد الجهال، ﴿ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ﴾[1].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله : "فإن المخلص لله ذاق من حلاوة عبوديته لله ما يمنعه عن عبوديته لغيره ، ومن حلاوة محبته لله ما يمنعه عن محبة غيره ؛ إذ ليس عند القلب السليم أحلى ولا ألذ ولا أطيب ولا أسر ولا أنعم من حلاوة الإيمان المتضمن عبوديته لله ومحبته له ، وإخلاص الدين له"[2].

وقال ابن القيم رحمه الله : "الإخلاص والتوحيد شجرة في القلب ، فروعها الأعمال ، وثمرُها طيب الحياة في الدنيا والنعيم المقيم في الآخرة ، وكما أن ثمار الجنة لا مقطوعة ولا ممنوعة ، فثمرة التوحيد و الإخلاص في الدنيا كذلك ، والشرك والكذب والرياء شجرة في القلب ، ثمرها في الدنيا : الخوف والغم وضيق الصدر وظلمة القلب ، و ثمرها في الآخرة : الزقوم و العذاب المقيم"[3].

ومن كان شغله ما عند الله من الثواب جوزي بغنى القلب ، وأفلح في دنياه وآخرته ، قَالَ النبي صلى الله عليه وسلم : "مَنْ كَانَتْ الْآخِرَةُ هَمَّهُ جَعَلَ اللَّهُ غِنَاهُ فِي قَلْبِهِ ،

---

(1) تفسير السعدي (مجموع المؤلفات ٢/١٠٠٠)

(2) مجموع الفتاوى (٢٢٥/١٠).

(3) الفوائد (ص١٦٤)

وَجَمَعَ لَهُ شَمْلَهُ ، وَأَتَتْهُ الدُّنْيَا وَهِيَ رَاغِمَةٌ ، وَمَنْ كَانَتْ الدُّنْيَا هَمَّهُ جَعَلَ اللَّهُ فَقْرَهُ بَيْنَ عَيْنَيْهِ ، وَفَرَّقَ عَلَيْهِ شَمْلَهُ ، وَلَمْ يَأْتِهِ مِنْ الدُّنْيَا إِلَّا مَا قُدِّرَ لَهُ"(١) .

وكذلك يجد العبد بالإخلاص حلاوة الإيمان في قلبه ، قال صلى الله عليه وسلم: "مَنْ سَرَّهُ أَنْ يَجِدَ طَعْمَ الْإِيمَانِ فَلْيُحِبَّ الْمَرْءَ لَا يُحِبُّهُ إِلَّا لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ" (٢)

٨- بالإخلاص تذلل الصعاب، ويطمئن القلب عند المصاب، ويثاب عليه أعظم الثواب:

فمن علم أنه لله وأنه راجع إليه، وأخلص القصد والتعلق بالله، فإنه يرضى بما يقدره الله عليه، ويسكن فؤاده، وتهدأ نفسه، قال الله تعالى: ﴿ ...وَمَن يُؤْمِنْ بِٱللَّهِ يَهْدِ... ﴾ التغابن: ١١، قال السعدي رحمه الله: "ومعلوم أن اتباع رضوان الله – الذي هو حقيقة الإخلاص – هو روح الإيمان وساقه الذي يقوم عليه، قال تعالى: ﴿ ... وَمَن يُؤْمِنْ بِٱللَّهِ يَهْدِ... ﴾، فهذه هداية عملية، هداية توفيق وإعانة على القيام بوظيفة الصبر عند حلول المصائب، إذا علم أنها من عند الله، فرضي، وسلم، وانقاد"(٣).

وتشير السنة النبوية إلى اشتراط الإخلاص والاحتساب في حصول الثواب عند حلول المصاب ، قال صلى الله عليه وسلم : يقول الله تعالى : ما لعبدي المؤمن عندي جزاء إذا قبضت صفيه من أهل الدنيا ثم احتسبه إلا الجنة" (٤)

والسبب في كون المخلص يذلل له كل صعب ، وييسر له كل عسير ؛ أنه "قد علق قلبه بأكمل ما تعلقت به القلوب من رضوان ربه وطلب ثوابه ، وعمل على هذا المقصد

---

(١) أخرجه الترمذي في سننه (٤/ ٢٢٤) ح:(٢٤٦٥) والطبراني في المعجم الكبير (٥/ ١٥٤)ح: (٤٩٢٥) وصححه الألباني في صحيح الجامع (٢/ ١١٠٩).

(٢) أخرجه أحمد في مسنده، (١٣/ ٣٤٧)ح:(٧٩٦٧) والحاكم في المستدرك (٤/ ١٨٦)ح: (٧٣١٢)، وقال "هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه " وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (١/ ٩٠) رواه أحمد والبزار، ورجاله ثقات.

(٣)تيسير اللطيف المنان (مجموع المؤلفات ٣/٥٦)

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الرقاق، باب العمل الذي يبتغى به وجه الله، (٨/ ٩٠)ح:(٦٤٢٤).

الأعلى فهانت عليه المشقات ، وسهلت عليه النفقات ، وسمحت نفسه بأداء الحقوق كاملة موفرة ، وعلم أنَّه قد تعوض عما فقده أفضل الأعواض ، وأجزل الثواب ، وخير الغنائم[١].

٩- المخلص أسعد الناس بالشفاعة يوم القيامة :

شرط حصول الشفاعة هو إخلاص المشفوع له ؛ فإن كان مخلصاً نال الشفاعة ، وإن لم يخلص لم ينلها ،"فالمشركون إذن لا نصيب لهم من شفاعة الشافعين ، وقد سدوا على أنفسهم رحمة أرحم الراحمين"[٢].

قال عليه الصلاة والسلام : "أَسْعَدُ النَّاسِ بِشَفَاعَتِي مَنْ قَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ خَالِصاً مِنْ قَلْبِهِ"[٣]

وكلما قوي إخلاصه كانت رتبته أعلى ، وهذا هو الذي يدل عليه أسلوب التفضيل في الحديث (أسعد) ، فأهل الإخلاص متفاوتون فيه ، ومن زاد إخلاصه كان أسعد من غيره، "وإن أسعد الناس بشفاعة محمد – صلى الله عليه وسلم– من قال : لا إله إلا الله خالصاً من قلبه"[٤].

١٠- بالإخلاص ينجو العبد من الفتن:

فالمخلص تعلق قلبه بالله، وليس في قلبه سواه؛ لذا يفزع عن الفتن إليه، فيجيب الله سؤاله، ويحقق نواله، قال السعدي رحمه الله: "... وأنَّ المخلص يصرف الله عنه من السوء والفحشاء ما لا يصرفه عن غيره.قال تعالى عن يوسف: ﴿ ... كَذَٰلِكَ لِنَصۡرِفَ عَنۡهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلۡفَحۡشَآءَۚ إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُخۡلَصِينَ ﴾ يوسف: ٢٤"[٥]

وقال رحمه الله: "ومن فوائد قصة يوسف: أن من دخل الإيمان قلبه، وكان مخلصًا لله

([١])تيسير اللطيف المنان (مجموع المؤلفات ٨٢٥/٣)

([٢]) تفسير السعدي (مجموع المؤلفات ١١٢٩/٢)

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب العلم، باب الحرص على الحديث، (١/ ٣١)ح:(٩٩).

([٤]) القول السديد (مجموع المؤلفات ٧٩٥/٦)

([٥]) فتح الرحيم الملك العلام (مجموع المؤلفات ٨٢٦/٣)

في جميع أموره فإن الله يدفع عنه – ببرهان إيمانه، وصدق إخلاصه – من أنواع السوء والفحشاء وأسباب المعاصي ما هو جزاء لإيمانه وإخلاصه؛ لقوله: ﴿ ...وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَـٰنَ رَبِّهِۦ ۚ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ ﴾يوسف: ٢٤، على قراءة من قرأها بكسر اللام، ومن قرأها بالفتح فإنه من إخلاص الله إياه، وهو متضمن لإخلاصه هو بنفسه، فلما أخلص عمله لله أخلصه الله، وخلصه من السوء والفحشاء"[١].

١١- الإخلاص سبب لصفاء القلب ونيل ولاية الله :

يتولى الله أهل الإخلاص بحفظه ورعايته وكلاءته ؛ لأنهم تولوا الله بأعظم مأمور به وهو إخلاص العمل له ، وبحسب ما يقوم في قلوبهم من إخلاص تكون وَلاية الله لهم ، وتصفو قلوبهم ؛ لأنهم صفوا ونقوا أعمالهم عن رياء المخلوقين ، والجزاء من جنس العمل ،

قال السعدي رحمه الله : "أي : فمن أخلص أعماله كلها لله ، ونصح في أموره كلها لعباد الله ، ولزم الجماعة بالائتلاف ، وعدم الاختلاف ، وصار قلبه صافياً نقياً ، صار لله ولياً . ومن كان بخلاف ذلك امتلأ قلبه من كل آفة وشر"[٢].

وقال ابن القيم رحمه الله : "أي : لا يبقى في القلب غل ولا يحمل الغل مع هذه الثلاثة ، بل تنفي عنه غله ، وتنقيه منه ، وتخرجه منه ؛ فإن القلب يغل على الشرك أعظم غل . وكذلك يغل على الغش ، وعلى خروجه عن جماعة المسلمين بالبدعة والضلال . فهذه الثلاثة تملؤه غلاً ودغلاً . ودواء هذا الغل واستخراج أخلاطه بتجريد الإخلاص والنصح ، ومتابعة السنة"[٣].

١٢- يؤجر العبد على المباحات :

بالنية الصالحة يُبارك الله في الأعمال المباحة ، فيثاب عليها العبد ؛ ولهذا قال النبي

---

(١) تفسير السعدي (مجموع المؤلفات ٢/٥٧٧)

(٢) بهجة قلوب الأبرار (مجموع المؤلفات ٥/٢٢٩)

(٣) مدارج السالكين (٢/٩٠)

صلى الله عليه وسلم : "إذا أنفق الرجل على أهله يحتسبها فهو له صدقة"[١]

وقال صلى الله عليه وسلم لسعد بن أبي وقاص : "إنك لن تُنفق نفقةً تبتغي بها وجه الله إلا أُجرت عليها حتى ما تجعلُ في في امرأتك"[٢]

وقال صلى الله عليه وسلم : "وفي بُضع أحدكم صدقة"[٣]، وقال صلى الله عليه وسلم : إِنَّمَا الدُّنْيَا لِأَرْبَعَةِ نَفَرٍ : عَبْدٍ رَزَقَهُ اللَّهُ مَالاً وَعِلْماً ، فَهُوَ يَتَّقِي فِيهِ رَبَّهُ ، وَيَصِلُ فِيهِ رَحِمَهُ ، وَيَعْلَمُ لِلَّهِ فِيهِ حَقّاً ، فَهَذَا بِأَفْضَلِ الْمَنَازِلِ . وَعَبْدٍ رَزَقَهُ اللَّهُ عِلْماً ، وَلَمْ يَرْزُقْهُ مَالاً ، فَهُوَ صَادِقُ النِّيَّةِ ، يَقُولُ : لَوْ أَنَّ لِي مَالاً لَعَمِلْتُ بِعَمَلِ فُلَانٍ ، فَهُوَ بِنِيَّتِهِ فَأَجْرُهُمَا سَوَاءٌ"[٤].

فبالإخلاص والنية الصالحة ينال المؤمن أجورًا عظيمة على مباحات، ومرد ذلك إلى الإخلاص، وتوضيح ذلك أن يُقال: إن "الأسباب النافعة نوعان: دينية، ودنيوية، فالأسباب الدينية: هي إيمان، وهي من لوازم الإيمان.

والأسباب الدنيوية قسمان: سبب معين على الدين، ويحتاج إليه الدين، فهو أيضًا من الدين كالسعي في القوة المعنوية والمادية التي فيها قوة المؤمنين، وسبب لم يوضع في الأصل معينًا على الدين، ولكن المؤمن لقوة إيمانه ورغبته فيما عند الله من الخير يسلك إلى ربه، وينفذ إليه مع كل سبب وطريق، فيستخرج من المباحات بنيته وصدق معرفته ولطف علمه بابًا يكون به معينًا على الخير، مجمًا للنفس، مساعدًا لها على القيام بحقوق الله وحقوق عباده الواجبة والمستحبة، فيكون هذا المباح حسنًا في حقه، عبادة

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الإيمان، باب: ما جاء إن الأعمال بالنية والحسبة، ولكل امرئ ما نوى (١/ ٢٠)ح:(٥٥) ومسلم في صحيحه، كتاب الزكاة، باب فضل النفقة والصدقة على الأقربين، (٢/ ٦٩٥)، ح:(١٠٠٢).

(٢) أخرجه البخاري كتاب الإيمان، باب: ما جاء إن الأعمال بالنية والحسبة، ولكل امرئ ما نوى (١/ ٢١) ح:(٥٦) ومسلم في صحيحه، كتاب الوصية، باب الوصية بالثلث (٣/ ١٢٥١) ح:(١٦٢٨) واللفظ للبخاري.

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الزكاة، باب بيان أن اسم الصدقة يقع على كل نوع من المعروف (٢/ ٦٩٧) ح:(١٠٠٦).

(٤) أخرجه الترمذي في سننه، في الزهد، باب ما جاء مثل الدنيا مثل أربعة نفر، (٤/ ١٤١) ح:(٢٣٢٥) وقال "هذا حديث حسن صحيح" وصححه الألباني في صحيح الجامع (١/ ٥٨١).

لله، لما صحبه من النية الصادقة، حتى أن بعض المؤمنين الصادقين في إيمانهم ومعرفتهم ربما نوى في نومه وراحاته ولذاته التقوّي على الخير، وتربية البدن لفعل العبادات، وتقويته على الخير، وكذلك في أدويته وعلاجاته التي يحتاجها ؛ وربما نوى في اشتغاله في المباحات أو بعضها الاشتغال عن الشر، وربما نوى بذلك جذب من خالطه وعاشره بمثل الأمور على فعل خير أو انكفاف عن شر.

وربما نوى بمعاشرته الحسنة إدخال السرور والانبساط على قلوب المؤمنين، ولا ريب أن ذلك كله من الإيمان ولوازمه، ولما كان الإيمان بهذا الوصف قال تعالى في عدة آيات من كتابه: ﴿... وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴾ المائدة: ٢٣.

وكذلك تجري النية في المباحات والأمور الدنيوية، فإن من قصد بكسبه وأعماله الدنيوية والعادية الاستعانة بذلك على القيام بحق الله وقيامه بالواجبات والمستحبات، واستصحب هذه النية الصالحة في أكله وشربه ونومه وراحاته ومكاسبه، انقلبت عاداته عبادات، وبارك الله للعبد في أعماله، وفتح له من أبواب الخير والرزق أمورًا لا يحتسبها، ولا تخطر له على بال. ومن فاتته هذه النية الصالحة لجهله أو تهاونه فلا يلومن إلا نفسه"(١)

ومما يدل عليه -أيضًا- ما جاء عن الحسن البصري رحمه الله في قوله تعالى: ﴿إِنَّ إِبۡرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ ﴾ هود: ٧٥، قال الحسن: "كان إذا قال قال لله، وإذا عمل عمل لله، وإذا نوى نوى لله"(٢).

قال شيخ الإسلام رحمه الله : "فأما من استعان بالمباح الجميل على الحق فهذا من الأعمال الصالحة ؛ ... فالمؤمن إذا كانت له نية أتت على عامة أفعاله ، وكانت المباحات من صالح أعماله لصلاح قلبه ونيته"(٣).

---

(١) بهجة قلوب الأبرار (مجموع المؤلفات ٥/١٢)

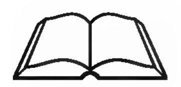
(٢) شعب الإيمان (٩/١٩٠)

(٣) مجموع الفتاوى (٢٨/٣٦٩)

***

وبعدُ: فهذه طائفة من آثار الإخلاص في الدنيا والآخرة، وما عند الله خير وأبقى، وأسبق الناس إلى كل خير أخلصهم لله، أخلص المؤمنون لله في أعمالهم الصالحات، فأخلص الله لهم ثوابًا من عنده في الجنات، ولما صفوا لله نيتهم ضاعف أجرهم ورفع منزلتهم، ولما تَخَلَّصت قلوبهم من شوائب الرياء خلصهم الله من كل فتنة وبلاء، وأخرجهم بسببه من مضائق المصيبات إلى فسيح سعادة القلب، ونيل ولاية الله أعلى الولايات.

فهنيئًا لعباد الله المخلصين، نسأل الله أن يجعلنا منهم وأن ينيلنا حلاوة الإيمان، ولذة الإخلاص والإحسان.



المبحث الثاني: المحبة

وفيه ثلاثة مطالب:

المسألة الأولى: تعريف المحبة

المسألة الثانية: أنواع أدلة المحبة

المسألة الثالثة: ثمرات المحبة

المسألة الأولى: تعريف المحبة

أولًا: التعريف اللغوي:

المحبة مأخوذة في اللغة من الفعل الثلاثي حَبَّ يحب حباً ، فهو محب ، وهي مأخوذة من مادة (ح ب ب) .

وقد اشتُق اسم الفاعل من أحب فقالوا : مِحِب[١].

"والحُبّ بالضم : المحبة ، وكذلك الحِب بالكسر . يعني : الحبيب ، مثل خدن وخدين . يقال أحبه فهو مُحِبّ . وحَبَّه يَحِبُّه بالكسر ، فهو محبوب"[٢].

وتحبب إليه : تودد إليه . والحِباب بالكسر : المحابة والموادة . والحُباب بالضم : الحب.

وأصل هذه المادة – وهي الحاء والباء المشددة – تدور في اللغة على خمسة أشياء :

١- الصفاء والبياض ، ومنه : قولهم لصفاء بياض الأسنان ونضارتها حبب الأسنان .

٢- العلو والظهور ، ومنه : حبب الماء وحبابه ، وهو ما يعلوه عند المطر الشديد .

٣- اللزوم والثبات ، ومنه : حب البعير وأحب ، إذا برك ولم يقم ، فكأن المحب لا يبرح عن ذكر محبوبه .

٤- اللب ، ومنه : حبة القلب للبه وداخله ، ومنه : الحبة لواحدة الحبوب ، إذ هي أصل الشيء ومادته وقوامه ، فالحِب لباب النبات ، وكذا المحبة لباب الحياة .

٥- الحفظ والإمساك ، ومنه : حب الماء للوعاء الذي يحفظ فيه ويمسكه ، وفيه معنى الثبوت أيضاً[٣].

فاجتمعت فيها المعاني الخمسة ، ووضعوا لمعناها حرفين مناسبين للمسمى غاية المناسبة : الحاء التي هي من أقصى الحلق ، والباء الشفوية التي هي نهايته ، فللحاء

---

(١) مقاييس اللغة (٢/٢٦) .

(٢) الصحاح (١/١٠٥)

(٣) مقاييس اللغة (٢/٢٦) ، الرسالة القشيرية (٤٢٤) ، روضة المحبين (ص١٨).

الابتداء ، وللباء الانتهاء ، وهذا شأن المحبة وتعلقها بالمحبوب ، فإن ابتداءها منه ، وانتهاءها إليه[١].

ثانياً : التعريف الشرعي :

معنى المحبة مما اختلفت فيه أقوال العلماء ، وتنوعت فيها عباراتهم ، والأولى ألا "تُحدّ المحبة بحد أوضح منها ؛ فالحدود لا تزيدها إلا خفاء وجفاء ، فحدها وجودها ، ولا توصف المحبة بوصف أظهر من المحبة ، وإنما يتكلم الناس في : أسبابها وموجباتها وعلاماتها وشواهدها وثمراتها وأحكامها ، فحدودهم ورسومهم دارت على هذه الستة ، وتنوعت بهم العبارات ، وكثرت الإشارات بحسب : إدراك الشخص ومقامه وحاله وملكه للعبارة "[٢].

وقد نقل ابن القيم – رحمه الله – ثلاثين تعريفاً للمحبة ، ثم رد كونها تعريفاً يفصح عن حقيقة المحبة ؛ لأن كل هذه التعريفات في آثار ومقتضيات المحبة ، ومنها :

- الميل الدائم بالقلب الهائم .
- إيثار المحبوب على جميع المصحوب .
- موافقة المحبوب في المشهد والمغيب .

وقد بيّن ابن القيم – رحمه الله – سبب الاختلاف في تعريف المحبة ، فقال : "الشيء إذا كان في الأمور الوجدانية الذوقية التي إنما تعلم بآثارها وعلاماتها و، كان مما يقع فيه التفاوت بالشدة والضعف ، وكان له لوازم وآثار وعلامات متعددة ، اختلفت العبارات عنه بحسب اختلاف هذه الأشياء ، وهذا شأن المحبة فإنها ليست بحقيقة معانيها ترى بالأبصار فيشترك الواصفون لها في الصفة ، وهي في نفسها متفاوتة أعظم تفاوت كما بين العلاقة التي هي تعلق القلب بالمحبوب والخلة التي هي أعلى مراتب الحب ، وبينهما درجات متفاوتة تفاوتاً لا ينحصر ، ولها آثار توجبها وعلامات تدل عليها ، فكل أدرك بعض علاماتها فعبر بحسب ما أدركه ، وهي وراء ذلك كله ليس

---

(١) مدارج السالكين (١٢/٣)

(٢) مدارج السالكين (١١/٣)

اسمها كمسماها ، ولا لفظها مبين لمعناها ، وكذلك اسم المصيبة والبلية والشدة والألم إنما تدل أسماؤها عليها نوع دلالة ، لا تكشف حقيقتها ، ولا تعلم حقيقتها إلا بذوقها ووجودها ، وفرق بين الذوق والوجود وبين التصور والعلم ، فالحدود والرسوم التي قيلت في المحبة صحيحة غير وافية بحقيقتها ، بل هي إشارات وعلامات وتنبيهات"[١].

أما إذا أضيفت هذه المحبة إلى الاسم الأحسن : الله ؛ فإنه يُراد بها حينئذ معنى أخص مما سبق ، وهو محبة الخلق لله سبحانه وتعالى ، وهو المراد بهذا المبحث .

وقد بين الشيخ السعدي – رحمه الله – تعريف محبة الله شرعاً ، فقال : "المحبة لله والإنابة إلى الله : هي قوة الود لله لكماله ونعمه الظاهرة والباطنة ، وانجذاب القلب إلى الله تألهاً ورغبة ورهبة في كل المطالب ، وطمأنينة القلب بذكره واللهج بدعائه ، والرجوع إليه في الأمور الدينية والدنيوية الجليلة والحقيرة ، فمن كان قلبه منيباً إلى الله فهو محب لله"[٢].



---

(١) طريق الهجرتين (٢٩٥)

(٢) تيسير اللطيف المنان (مجموع المؤلفات ٣/٣٢٩)

المسألة الثانية: أهمية المحبة

جميع العبادات تقوم على المحبة؛ بل إن "أصل كل فعل وحركة في العالم من الحب والإرادة"[١]، فكل حركة وعمل لا بد أن يكون ناشئًا عن إرادة قلبية؛ لذا فمحبة العباد لربهم هي أصل العبادة وأساسها، بل هي الغاية من خلق الجن والإنس؛ لأن الله خلق الجن والإنس لعبادته وحده لا شريك له كما قال سبحانه: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ الذاريات: ٥٦، والعبادة كما عرفها شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: "هي اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الباطنة والظاهرة"[٢].

قال الشيخ عبد الرحمن السعدي رحمه الله : "أصل التوحيد وروحه : إخلاص المحبة لله وحده ، وهي أصل التأله والتعبد له ، بل هي حقيقة العبادة ، ولا يتم التوحيد حتى تكمل محبة العبد لربه ، وتسبق محبته جميع المحاب وتغلبها ، ويكون لها الحكم عليها بحيث تكون سائر محاب العبد تبعاً لهذه المحبة التي بها سعادة العبد وفلاحه"[٣].

فجميع العبادات إنما تنشأ عن محبة الله سبحانه وتعالى ، وبكمالها يكمل للعبد إيمانه ، وبنقصها ينقص . بل "لو بطلت مسألة المحبة لبطلت جميع مقامات الإيمان والإحسان ، ولتعطلت منازل السير إلى الله . فإنها روح كل مقام ومنزلة وعمل ، فإذا خلا منها فهو ميت لا روح فيه . ونسبتها إلى الأعمال كنسبة الإخلاص إليها ، بل هي حقيقة الإخلاص ، بل هي نفس الإسلام . فإنه الاستسلام بالذل والحب والطاعة لله . فمن لا محبة له لا إسلام له البتة ، بل هي حقيقة شهادة أن لا إله إلا الله . فإن (الإله) هو الذي يألهه العباد حباً وذلاً ، وخوفاً ورجاء ، وتعظيماً وطاعة له ، بمعنى (مألوه) : وهو الذي تألهه القلوب . أي : تحبه وتذل له ، فالمحبة حقيقة العبودية"[٤]

ولهذه العبادة الجليلة قدر واجب لا يتم إيمان العبد إلا به، وهي محبة العبودية

---

(١) قاعدة في المحبة لابن تيمية (١/٧).

(٢) العبودية (ص٤٧) .

(٣) القول السديد (مجموع المؤلفات ٦/ ٨٣٠)

(٤) مدارج السالكين (٣/٢٧)

المستلزمة للذل لله والخضوع له والإتيان بإخلاص العبادة لله وعدم الشرك به؛ فإذا اختل هذا الأصل أو سوَّى فيه مع الله غيره فقد اتخذه شريكًا لله في المحبة، وهو الشرك الأكبر الذي يخرج من الملة، ولا يغفر الله لمن مات عليه، وتحبط به جميع أعماله.

والأدلة في تقرير هذا الأصل العظيم كثيرة في كتاب الله سبحانه وفي سنة النبي ﷺ، مفصحة عن أهمية هذه العبادة، وسيتضح هذا من خلال النقاط الآتية:

١- محبة الله سبحانه هي أصل التوحيد والإيمان:

لا يتم إيمان عبد بالله حتى يحب الله عز وجل، وهي أصل كل عبادة يقوم بها العبد، قال تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ... ﴾ البقرة: ١٦٥، قال الشيخ عبد الرحمن السعدي: "وهؤلاء الذين يتخذون الأنداد مع الله، لا يسوونهم بالله في الخلق والرزق والتدبير، وإنما يسوونهم به في العبادة، فيعبدونهم؛ ليقربوهم إليه"[١]

فدلت الآية على وجوب محبة الله سبحانه، وأن عَدل غير الله به في المحبة — وهي من خصائصه – من الشرك الأكبر الذي لا يغفره الله أبدًا لمن مات عليه، ودلت الأدلة الكثيرة على إفراد الله بالعبادة، وأصل العبادة هي المحبة، فهي تتضمن كمال الحب ونهايته مع كمال الذل ونهايته، فإذا تقررت منزلة العبادة من الدين تقرر بذلك منزلة المحبة التي هي أصل كل عمل كما تقدم[٢].

قال الشيخ عبد الرحمن السعدي رحمه الله: "وفي قوله: ﴿يَتَّخِذُ﴾ دليل على أنه ليس لله ند، وإنما المشركون جعلوا بعض المخلوقات أندادًا له، تسمية مجردة ولفظًا فارغًا من المعنى، كما قال تعالى: ﴿ ...وَجَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ قُلْ سَمُّوهُمْۚ أَمْ تُنَبِّـُٔونَهُۥ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي ٱلْأَرْضِ أَم بِظَٰهِرٍ مِّنَ ٱلْقَوْلِ... ﴾ الرعد: ٣٣، ... فالمخلوق ليس ندًا لله؛ لأن الله هو الخالق، وغيره مخلوق، والرب الرازق، ومن عداه مرزوق، والله هو الغني، وأنتم الفقراء، وهو الكامل من كل الوجوه، والعبيد ناقصون من جميع الوجوه، والله هو النافع الضار،

---

(١) تفسير السعدي (مجموع المؤلفات ٢/١٥٧)

(٢) انظر التحفة العراقية ٣٨٨

والمخلوق ليس له من النفع والضر والأمر شيء، فعلم علمًا يقينًا بطلان قول من اتخذ من دون الله آلهة وأندادًا، سواء كان ملكًا أو نبيًا أو صالحًا، صنمًا أو غير ذلك، وأن الله هو المستحق للمحبة الكاملة، والذل التام ..." [(١)].

وقال الشيخ محمد بن عبد الوهاب في الآية : "ذكر أنهم يحبون أندادهم كحب الله ، فدل على أنهم يحبون الله حباً عظيماً ، ولم يدخلهم في الإسلام ، فكيف بمن أحب الند أكبر من حب الله ؟! فكيف بمن لم يحب إلا الند وحده ، ولم يحب الله ؟!"[(٢)].

قال السعدي : "اتخاذ أنداد من الخلق يحبهم كحب الله ، ويقدم طاعتهم على طاعة الله ، ويلهج بذكرهم ودعائهم ، فهذا هو الشرك الأكبر الذي لا يغفره الله ، وصاحب هذا الشرك قد انقطع قلبه من ولاية العزيز الحميد ، وتعلق بغيره ممن لا يملك له شيئاً ، وهذا السبب الواهي الذي تعلق به المشركون سينقطع يوم القيامة ، أحوج ما يكون العبد لعمله ، وستنقلب هذه المودة والموالاة بغضاً وعداوة"[(٣)].

وقال ابن القيم رحمه الله : "فاعلم أن حاجة العبد إلى أن يعبد الله وحده لا يشرك به شيئاً – في محبته ، ولا في خوفه ، ولا في رجائه ، ولا في التوكل عليه ، ولا في العمل له ، ولا في الحلف به ، ولا في النذر له ، ولا في الخضوع له ، ولا في التذلل والتعظيم والسجود والتقرب – أعظم من حاجة الجسد إلى روحه والعين إلى نورها ، بل ليس لهذه الحاجة نظير تقاس به ، فإن حقيقة العبد روحه وقلبه ، ولا صلاح لها إلا بإلهها الذي لا إله إلا هو ، فلا تطمئن في الدنيا إلا بذكره وهي كادحة إليه كدحاً فملاقيته ، ولا بد لها من لقائه ، ولا صلاح لها إلا بمحبتها وعبوديتها له ورضاه وإكرامه لها"[(٤)].

"فَكَيْفَ بِالْمَحَبَّةِ الَّتِي هِيَ حَيَاةُ الْقُلُوبِ ، وَغِذَاءُ الْأَرْوَاحِ ، وَلَيْسَ لِلْقَلْبِ لَذَّةٌ ، وَلَا نَعِيمٌ ، وَلَا فَلَاحٌ ، وَلَا حَيَاةٌ إِلَّا بِهَا ، وَإِذَا فَقَدَهَا الْقَلْبُ كَانَ أَلَمُهُ أَعْظَمَ مِنْ أَلَمِ

---

(١) تفسير السعدي (مجموع المؤلفات ٢/٥٩٠)

(٢) كتاب التوحيد مع القول السديد، تحقيق صبري شاهين (ص١٠١).

(٣) القول السديد (مجموع المؤلفات ٦/٨٣٠)

(٤) طريق الهجرتين (ص٥٨)

الْعَيْنِ إِذَا فَقَدَتْ نُورَهَا ، وَالْأُذُنِ إِذَا فَقَدَتْ سَمْعَهَا ، وَالْأَنْفِ إِذَا فَقَدَ شَمَّهُ ، وَاللِّسَانِ إِذَا فَقَدَ نُطْقَهُ ، بَلْ فَسَادُ الْقَلْبِ إِذَا خَلَا مِنْ مَحَبَّةِ فَاطِرِهِ وَبَارِئِهِ وَإِلَهِهِ الْحَقِّ أَعْظَمُ مِنْ فَسَادِ الْبَدَنِ إِذَا خَلَا مِنْهُ الرُّوحُ ، وَهَذَا الْأَمْرُ لَا يُصَدِّقُ بِهِ إِلَّا مَنْ فِيهِ حَيَاةٌ ، وَمَا لِجُرْحٍ مَيِّتٍ إِيلَامُ"[١].

٢- توعدَ اللهُ من يقدم شيئًا على محبته سبحانه:

إذا أحب العبد ربه لكنه قدَّم محبة غيره على محبته فإنه متوعد بعذاب شديد، قال عز وجل: ﴿ قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾التوبة: ٢٤، ففي هذه الآية أن محبة اللّه ورسوله يتعين تقديمهما على محبة كل شيء، وجعل جميع الأشياء تابعة لهما ... فإن كانت هذه الأشياء المذكورة ﴿ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ ﴾، فأنتم فسقة ظلمة، ﴿ فَتَرَبَّصُوا۟ ﴾، أي: انتظروا ما يحل بكم من العقاب ﴿ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ﴾ الذي لا مرد له.﴿ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾، أي: الخارجين عن طاعة اللّه، المقدمين على محبة اللّه شيئا من المذكورات.

وهذه الآية الكريمة أعظم دليل على وجوب محبة اللّه ورسوله، وعلى تقديمها على محبة كل شيء، وعلى الوعيد الشديد والمقت الأكيد على من كان شيء من هذه المذكورات أحب إليه من اللّه ورسوله، وجهاد في سبيله"[٢].

فإذا كان هذا الوعيد الشديد منصبًا على من قدم هذه الأمور على محبة الله، فكيف بمن لم يحب الله أصلًا فانتفت عنه هذه العبادة العظيمة، ولا شك أن وجود

---

(١) الجواب الكافي (ص٢٣٣)

(٢) تفسير السعدي (مجموع المؤلفات ٢/٤٠٣)

شيء من هذه المحبة هو أصل الإيمان، ومن ترحلت عنه المحبة فقد ترحل عنه الإيمان بالكلية، ثم إن الرجل لا يكمل إيمانه حتى يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما.

وعليه فـ "مَن بذل هذه المحبة – التي هي روح العبادة التي خلق الخلق لها – لغير الله، فقد وضعها في غير موضعها، ولقد ضيَّعها أيضًا، ولقد ظلم نفسه أعظم الظلم، حيث هضمها أعظم حقوقها، وبذلك استحق أن يكون الشرك هو الظلم العظيم، وأن يكون المشرك مخلدًا في النار، محرومًا دخول الجنة محرَّمًا عليه، لأنها دار الطيبين الذين عبدوه حق عبادته وأخلصوا له الدين"[١]

مع التنبه إلى أن كثيراً من المسلمين قد يؤثر فعل بعض هذه المحبوبات الثمانية على أمر الله وأمر رسوله الناشئ عن المحبة، لا في الحب الذي يوجب قصد المحبوب بالتأله؛ فإن من ساوى بين الله وبين غيره في هذا الحب فهو مشرك[٢].

ومن الوعيد الذي توعد الله به من يشرك به في المحبة قوله تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ... ﴾ البقرة: ١٦٥، قال السعدي رحمه الله: "والمشركون أحبوا من لا يستحق من الحب شيئًا، ومحبته عين شقاء العبد وفساده، وتشتت أمره؛ فلهذا توعدهم الله بقوله: ﴿ ...وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِذْ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعَذَابِ... ﴾ البقرة: ١٦٥ ...."[٣].

والشرك في المحبة –التي هي أصل كل عمل– شرك أكبر ناقل عن الملة.

٣– محبة الله هي أحد أركان العبادة:

تقوم العبادة على أصول ثلاثة، هي الجامعة لها، ويرجع إليها كل ما عداها، وهي: المحبة والخوف والرجاء، وفقدان أحدها يعني اختلال العبادة وفسادها؛ ولهذا قال بعض السلف: من عبد الله تعالى بالحب وحده فهو زنديق، ومن عبده بالخوف وحده فهو

(١) فتح الرحيم الملك العلام (مجموع المؤلفات ٣/٧٥٣)

(٢) نبه عليه الشيخ سليمان بن عبدالله في (تيسير العزيز الحميد ٢ / ٩٤٩)

(٣) تفسير السعدي (مجموع المؤلفات ٢/١٥٧)

حروري، ومن عبده بالرجاء وحده فهو مرجئ، ومن عبده بالحب والخوف والرجاء فهو مؤمن[١].

وقد أشار الله سبحانه إلى هذه الأصول الثلاثة، فقال تعالى: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ يَبۡتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلۡوَسِيلَةَ أَيُّهُمۡ أَقۡرَبُ وَيَرۡجُونَ رَحۡمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ... ﴾ الإسراء: ٥٧، قال الشيخ عبد الرحمن السعدي رحمه الله: "وهذه الأمور الثلاثة: الخوف والرجاء والمحبة التي وصف الله بها هؤلاء المقربين عنده هي الأصل والمادة في كل خير.فمن تمت له تمت له أموره وإذا خلا القلب منها ترحلت عنه الخيرات وأحاطت به الشرور"[٢].

فقد جمع الله تعالى هذه المقامات الثلاثة في هذه الآية:

- الحب وهو ابتغاء القرب إليه والتوسل إليه بالأعمال الصالحة.
- والرجاء والخوف يدلان على أن ابتغاء الوسيلة أمر زائد على رجاء الرحمة وخوف العذاب.

ومن المعلوم قطعًا أنك لا تتنافس إلا في قرب من تحب قربه، وحب قربه تبع لمحبة ذاته؛ بل محبة ذاته أوجبت محبة القرب منه[٣].

٤- ثناء الله على عباده المؤمنين لإخلاصهم المحبة له سبحانه:

امتدح الله من أخلص له المحبة من عباده، وأكمل الناس محبة من شهد له محبوبه بالمحبة.

قال تعالى: ﴿... وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبّٗا لِّلَّهِ... ﴾ البقرة: ١٦٥، "أي: من أهل الأنداد لأندادهم؛ لأنهم أخلصوا محبتهم له، وهؤلاء أشركوا بها، ولأنهم أحبوا من يستحق المحبة على الحقيقة، الذي محبته هي عين صلاح العبد وسعادته وفوزه"[٤].

([١]) التحفة العراقية ص٧٥ .

([٢]) تفسير السعدي (مجموع المؤلفات ٢/٦٥٠)

([٣]) مدارج السالكين (٣/٢٣).

([٤]) تفسير السعدي (مجموع المؤلفات ٢/١٥٧)

قال الشيخ عبد الرحمن السعدي مشيراً إلى عظم محبة الله في قلوب المؤمنين في سياق ثناء الله على عباد الرحمن في آخر سورة الفرقان: "وعباد الرحمن يألهونه ويعبدونه، ويبذلون له مقدورهم بالتأله القلبي والروحي، والقولي والفعلي، بحسب مقاماتهم ومراتبهم، فيعرفون من نعوته وأوصافه ما تتسع قواهم لمعرفته، ويحبونه من كلِّ قلوبهم محبةً تتضاءل جميعُ المحابِّ لها، فلا يعارض هذه المحبة في قلوبهم محبة الأولاد والوالدين وجميع محبوبات النفوس، بل خواصهم جعلوا كلَّ محبوبات النفوس الدينية والدنيوية العادية تبعًا لهذه المحبة"[١].

وفي إضافتهم إليه سبحانه ثناء يغني عن كل ثناء؛ فلما أخلصوا لله المحبة خصهم سبحانه بأن أضافهم إليه إضافة إكرام وتشريف، "بوصف الرحمة حيث قال: ﴿ وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ... ﴾ الفرقان: ٦٣"[٢].

٥- أهمية عبادة المحبة لله وخطر التقصير فيها:

فقد دلت نصوص كثيرة على أن من ترك ما ينفعه مع قدرته عليه ابتلي بضده، وحُرم الأمر الأول[٣]، ومن ذلك تركُ عبادة المحبة لله، قال الشيخ عبد الرحمن السعدي: "ولما كان من العوائد القدرية والحكمة الإلهية أن من ترك ما ينفعه، وأمكنه الانتفاع به فلم ينتفع، ابتلي بالاشتغال بما يضره، فمن ترك عبادة الرحمن ابتلي بعبادة الأوثان، ومن ترك محبة الله وخوفه ورجاءه ابتلي بمحبة غير الله وخوفه ورجائه"[٤].

واستفاد الشيخ هذا المعنى من قوله تعالى: ﴿ وَلَمَّا جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾ وَٱتَّبَعُوا۟ مَا تَتْلُوا۟ ٱلشَّيَٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَٰنَ ... ﴾ البقرة: ١٠١-١٠٢، فهؤلاء اليهود لما نبذوا كتاب الله اتبعوا ما تتلوا الشياطين وتختلق من

---

(١) فتح الرحيم الملك العلام (مجموع المؤلفات ٣/٧٥٢)

(٢) المصدر نفسه.

(٣) القواعد الحسان (مجموع المؤلفات ٣/٤٥٩)

(٤) تفسير السعدي (مجموع المؤلفات ٢/١٣٣)

السحر على ملك سليمان حيث أخرجت الشياطين للناس السحر، وزعموا أن سليمان - عليه السلام - كان يستعمله، وبه حصل له الملك العظيم[١].

عقد الشيخ السعدي لهذا المعنى قاعدة في كتابه النافع (القواعد الحسان) واستدل عليه بآيات عديدة؛ فقد ورد في عدة آيات أن المشركين لما زهدوا في عبادة الرحمن ابتلوا بعبادة الأوثان، ولما استكبروا عن الانقياد للرسل، بزعمهم أنهم بشر، ابتلوا بالانقياد لكل مارج العقل والدين، ولما عرض عليهم الإيمان أول مرة فعرفوه، ثم تركوه، قلب الله قلوبهم، وطبع عليها وختم، فلا يؤمنون حتى يروا العذاب الأليم، ولما بين لهم الصراط المستقيم، وزاغوا عنه اختيارًا ورضا بطريق الغي على طريق الهدى والرشد، عوقبوا بأن أزاغ الله قلوبهم، وجعلهم حائرين في طريقهم، ولما أهانوا آيات الله ورسله أهانهم الله بالعذاب المهين، ولما استكبروا عن الانقياد للحق أذلهم في الدنيا والآخرة، ولما منعوا مساجد الله أن يذكر فيها اسمه، وأخربوها ما كان لهم بعد ذلك أن يدخلوها إلا خائفين.﴿ وَمِنْهُم مَّنْ عَٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضْلِهِۦ بَخِلُوا۟ بِهِۦ وَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٧٦﴾ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِى قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ بِمَآ أَخْلَفُوا۟ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ ﴾ التوبة: ٧٥-٧٧[٢].

قال ابن القيم رحمه الله: "قال تعالى: ﴿ إِنَّهَا لَإِحْدَى ٱلْكُبَرِ ﴿٣٥﴾ نَذِيرًا لِّلْبَشَرِ ﴿٣٦﴾ لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ ﴾ المدثر: ٣٧-٣٧، ولم يذكر واقفًا، إذ لا منزل بين الجنة والنار ولا طريق لسالك إلى غير الدارين ألبتة، فمن لم يتقدم إلى هذه الأعمال الصالحة فهو متأخر إلى تلك بالأعمال السيئة"[٣].

وقال رحمه الله: "فإذا كان القلب ممتلئًا بالباطل اعتقادًا ومحبةً؛ لم يبْقَ فيه لاعتقاد الحقِّ ومحبته موضع؛ كما أن اللسان إذا اشتغل بالتكلم بما لا ينفع لم يتمكن صاحبُه من

---

(١) المصدر السابق.

(٢) القواعد الحسان (مجموع المؤلفات ٣/٤٥٩)

(٣) مدارج السالكين (١/٢٧٨)

النُطق بما ينفعُه إلا إذا فرَّغ لسانه من النطق بالباطل.وكذلك الجوارح إذا اشتغلت بغير الطاعة لم يُمكن شغلها بالطاعة إلا إذا فرَّغها من ضدِّها.فكذلك القلبُ المشغولُ بمحبَّة غير الله وإرادته والشوق إليه والأُنْس به لا يُمكن شُغله بمحبَّة الله وإرادتِهِ وحبِّه والشوق إلى لقائه؛ إلاّ بتفريغِهِ من تعلُّقه بغيره، ولا حركة اللسان بذكره والجوارح بخدمته إلاّ إذا فرَّغها من ذكر غيره وخدمته، فإذا امتلأ القلبُ بالشُّغل بالمخلوق والعلوم التي لا تنفعُ؛ لم يبق فيها موضع للشُّغل بالله ومعرفة أسمائِهِ وصفاتِهِ وأحكامِه.وسرُّ ذلك أن إصغاء القلب كإصغاءِ الأُذُن: فإذا صَغا إلى غير حديث الله لم يبْقَ فيه إصغاءٌ ولا فهمٌ لحديثِهِ، كما إذا مال إلى غير محبةِ الله؛ لم يبق فيه ميل إلى محبتِهِ، فإذا نطق القلبُ بغير ذِكرِهِ لم يبْقَ فيه محلٌّ للنُّطق بذكرِهِ كاللسان"[١].

فتبين مما تقدم منزلة المحبة من الدين، وأن لها المكان الأسمى، والقدر الأعلى، فهي أصل الدين وقاعدته، ولا يتم للعبد إيمان إلا بالإتيان بأصلها، ولا تكمل سعادة العبد المحب إلا بتكميلها بتتبع محاب المحبوب فيأتي بها، وحينئذ يكون من عباد الله المقربين، ومن أوليائه المخلَصين، "فنسأل الله أن يرزقنا حبه، وحب من يحبه، وحب العمل الذي يقرّب إلى حبه؛ إنه جواد كريم"[٢].



---

(١) الفوائد (ص٢٩)

(٢) بهجة قلوب الأبرار (مجموع المؤلفات ٥/٢٠٤)

المسألة الثالثة: ثمرات المحبة

تقدم عند الحديث عن أهمية المحبة أن جميع العبادات تقوم على المحبة؛ وأنها أصل كل فعل وحركة في العالم وأن جميع العبادات إنما تنشأ عن محبة الله سبحانه وتعالى، وبكمالها يكمل للعبد إيمانه، وبنقصها ينقص، ومتى ثبتت في القلب فإنها تستحث الجوارح على القيام بالطاعات وترك المحرمات.

ولهذه العبادة الجليلة ثمرات يانعة وآثار عظيمة، سيأتي ذكرها فيما يأتي:

١- تحصيل معية الله الخاصة:

فيكون معه سبحانه وتعالى بنصره وتأييده وتوفيقه وتسديده، قال الشيخ السعدي - رحمه الله - مبينًا هذه الثمرة الجليلة: "من أحب الله، وقدَّم محبته وخشيته على كل شيء فإنه مع الله، وقد حصل له القرب الكامل منه.وهو قرب المحبين، وكان الله معه.﴿ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴾النحل: ١٢٨، وأعلى أنواع الإحسان محبة الرحيم الكريم الرحمن محبة مقرونة بمعرفته"[١]

ومن آثار هذه المعية: أن الله يدافع عن أوليائه الذين بلغوا الكمال في محبته تعالى: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إن الله قال: من عادى لي وليا فقد آذنته بالحرب. وما تقرب إلي عبدي بشيء أحب إلي مما افترضت عليه. وما يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه. فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها. ولئن سألني لأعطينه، ولئن استعاذني لأعيذنه. وما ترددت عن شيء أنا فاعله ترددي عن قبض نفس المؤمن: يكره الموت، وأكره مساءته. ولا بد له منه"[٢] .

قال الشيخ عبد الرحمن السعدي -رحمه الله- : "هذا حديث جليل، أشرف

---

(١) بهجة قلوب الأبرار (مجموع المؤلفات ٥/٢٠٣)

(٢) رواه البخاري في صحيحه، كتاب الرقاق، باب التواضع، (٢١/٣٩٢) ح(٦٥٠٢) .

حديث في أوصاف الأولياء، وفضلهم ومقاماتهم.

فأخبر أن معاداة أوليائه معاداة له ومحاربة له. ومن كان متصديا لعداوة الرب ومحاربة مالك الملك فهو مخذول. ومن تكفل الله بالذب عنه فهو منصور. وذلك لكمال موافقة أولياء الله لله في محابه؛ فأحبهم وقام بكفايتهم، وكفاهم ما أهمهم...

فأولياء الله قاموا بالفرائض والنوافل، فتولاهم وأحبهم وسهل لهم كل طريق يوصلهم إلى رضاه. ووفقهم وسددهم في جميع حركاتهم، فإن سمعوا سمعوا بالله. وإن أبصروا فلله. وإن بطشوا أو مشوا ففي طاعة الله"[١] .

٢- يعظم ثواب العمل بحسب امتلاء القلب بمحبة الله:

إن الأعمال تتفاضل بحسب ما يقوم في قلب العامل من إخلاص ومحبة وخوف ورجاء، وقد بين الشيخ السعدي - رحمه الله - أن عبادة المحبة سبب لمضاعفة العمل، فقال في تفسير قوله تعالى: ﴿ ... وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفۡهَا ... ﴾ النساء: ٤٠، "أي: إلى عشرة أمثالها إلى أكثر من ذلك بحسب حالها ونفعها وحال صاحبها إخلاصًا ومحبة وكمالًا[٢].

٣- لا تُنال حلاوة الإيمان وطمأنينة القلب إلا بعبادة المحبة :

لا يجد العبد حلاوة الإيمان ولذته إلا بعد امتلاء القلب بمحبة الله سبحانه ، ثم العمل وفق ما يريده المحبوب ، قال صلى الله عليه وسلم : "ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان : أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما ، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله ، وأن يكره أن يعود في الكفر بعد أن أنقذه الله منه كما يكره أن يقذف في النار"[٣].

فإذا اتصف العبد بهذه الصفات الثلاث فإن إيمانه يزيد حتى يجد حلاوته في قلبه ، ووَجْد الحلاوة بالشيء يتبع المحبة له ؛ فمن أحب شيئاً أو اشتهاه إذا حصل له مراده

---

[١] بهجة قلوب الأبرار (مجموع المؤلفات ١٠١/٥)

[٢] تفسير السعدي (مجموع المؤلفات ٢٦٩/٢)

[٣] أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الإيمان، باب حلاوة الإيمان ح (١٦)

وأخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب بيان خصال من اتصف بهن وجد حلاوة الإيمان، ح (٦٧) .

فإنه يجد الحلاوة واللذة والسرور بذلك ، واللذة أمر يحصل عقيب إدراك الملائم الذي هو المحبوب أو المشتهى ؛ فحلاوة الإيمان تتبع كمال محبة العبد لله[١].

والحلاوة التي يجدها المؤمن في قلبه فوق كل حلاوة ، والنعيم الذي يحصل له بذلك أتمُّ من كل نعيم ، واللذة التي تناله أعلى من كل لذة .

فإنه لا شيء أحب إلى القلوب من خالقها وفاطرها ، فهو إلهها ، ومعبودها ، ووليها ، ومولاها ، وربُّها ، ومدبرها ، ومحبته سبحانه هي نعيم النفوس ، وحياة الأرواح ، وقوتُ القلوب ، ونور العقول ، وقرة العيون ، وليس عند القلوب السليمة والأرواح الطيبة والعقول الزاكية أحلى – ولا ألذُّ ، ولا أطيبُ ، ولا أسرُّ ، ولا أنعمُ – من محبته والأنس به والشوق إلى لقائه[٢].

وعند ذوق هذه الحلاوة يجود العبد المحب بنفسه لله عز وجل ولا يبالي؛ فإن فرعون توعد السحرة فقال: ﴿ ... لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ الشعراء:٤٩، قال السحرة حين وجدوا حلاوة الإيمان وذاقوا لذته: ﴿ قَالُوا۟ لَا ضَيْرَ ۖ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَٰيَٰنَآ أَن كُنَّآ أَوَّلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ الشعراء:٥٠-٥١[٣].

ومن أثر تحقيق محبة الله في قلب المؤمن زوال همه وطمأنينة قلبه وسعادته ؛ فإن حب الله إذا ثبت في القلب أورثه قياماً بالطاعات وتجنباً للمحرمات ، وإذا حصل هذا نال المؤمن السعادة والانشراح والطمأنينة ، وقد بيَّن الشيخ عبدالرحمن السعدي – رحمه الله – هذه الثمرة فقال : "فإن الذكر لله يغرس شجرة الإيمان في القلب ، ويغذيها وينميها ، وكلما ازداد العبد ذكراً لله قوي إيمانه ، كما أن الإيمان يدعو إلى كثرة الذكر . فمن أحب شيئاً أكثر من ذكره ، ومحبة الله هي الإيمان ، بل هي روحه "[٤].

وقال رحمه الله: "من أكبر الأسباب لانشراح الصدر وطمأنينته: الإكثار من ذكر الله،

---

(١) مجموع فتاوى شيخ الإسلام (١٠/٢٠٦،٢٠٥)

(٢) إغاثة اللهفان (٢/١٩٧)

(٣) تفسير السعدي (مجموع المؤلفات ٢/٨٢٥)

(٤) التوضيح والبيان (مجموع المؤلفات ٦ / ١٤٠، ١٤١)

فإن لذلك تأثيرًا عجيبًا في انشراح الصدر وطمأنينته، وزوال همه وغمه، قال تعالى: ﴿... أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴾ الرعد: ٢٨، فلذكر الله أثر عظيم في حصول هذا المطلوب لخاصيته، ولما يرجوه العبد من ثوابه وأجره"[١].

والقلوب المحبة لله لا تطمئن لشيء سوى ذكره ؛ فإنه لا شيء ألذ للقلوب ولا أشهى ولا أحلى من محبة خالقها والأنس به ومعرفته ، وعلى قدر معرفتها بالله ومحبتها له يكون ذكرها له[٢].

ومن أعظم الذكر تلاوة كتاب الله العظيم ، والمؤمن المحب يكثر من تلاوة كتاب الله وتدبره والعمل به آناء الليل وأطراف النهار ، ولا شيء عند المحبوبين أحلى من كلام محبوبهم ، فهو لذة قلوبهم وغاية مطلوبهم.

وإدراك هذه المراتب العالية والمنازل السامية هو بحسب قوة المحبة وضعفها ، وبحسب إدراك جمال المحبوب والقرب منه .

وكلما كانت المحبةُ أكملَ ، وإدراك المحبوب أتم ، والقرب منه أوفر ، كانت الحلاوةُ واللذةُ والنعيمُ أقوى .

فمن كان بالله سبحانه وأسمائه وصفاته أعرف ، وفيه أرغب ، وله أحب ، وإليه أقرب وجد من هذه الحلاوة في قلبه ما لا يمكن التعبير عنه ، ولا يُعْرَف إلا بالذوق والوَجْد ، ومتى ذاق القلب ذلك لم يُمْكِنْهُ أن يقدِّم عليه حُبَّاً لغيره ، ولا أنساً به ، وكلما ازداد له حباً ازداد له : عبودية ، وذلاً ، وخضوعاً ، ورِقَّاً له ، وحرية من رق غيره[٣].

٤- محبة الله سبحانه في قلب المؤمن من أعظم ما يحمل على ترك المعاصي :

إنَّ كمال المحبة في قلب العبد – التي هي أصل الإيمان – سبب عظيم يدعو العبد إلى اجتناب المعاصي ، وقد أشار الشيخ عبدالرحمن السعدي – رحمه الله – إلى هذا الأثر ، فقال في سياق ذكره بثمرات الإيمان : "ومنها : أن الإيمان الصحيح يمنع العبد

---

(١) الوسائل المفيدة (مجموع المؤلفات ٢٦/٤٨)

(٢) تفسير السعدي (مجموع المؤلفات ٢/٥٨٨)

(٣) إغاثة اللهفان (٢/١٩٨)

من الوقوع في الموبقات المهلكة ؛ كما ثبت في الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : (لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن ، ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن ...) [(١)]"[(٢)].

ومن وقعت منه فإنه لضعف إيمانه ، وذهاب نوره ، وزوال الحياء ممن يراه حيث نهاه ، وهذا معروف مشاهد .

والإيمان الصادق الصحيح يصحبه الحياء من الله ، والحب له ، والرجاء القوي لثوابه ، والخوف من عقابه ، والنور الذي ينافي الظلمة ، وهذه الأمور – التي هي من مكملات الإيمان – لا ريب أنها تأمر صاحبها بكل خير ، وتزجره عن كل قبيح .

فأخبر أن الإيمان – إذا صحبه عند وجود أسباب هذه الفواحش – يمنعه من الوقوع فيها ؛ فإن النور الذي يصحب الإيمان الصادق ، ووجود حلاوة الإيمان ، والحياء من الله الذي هو من أعظم شعب الإيمان – بلا شك – يمنع من مواقعة هذه الفواحش[(٣)].

إن المحب لمن يحب مطيع ، وكلما قوي سلطانُ المحبةِ في القلب كان اقتضاؤه للطاعة ، وترك المخالفة أقوى[(٤)].

ونظير هذا ما حصل لنبي الله يوسف – عليه السلام – فإنه نجا من فتنة امرأة العزيز بتقديمه محبة الله سبحانه على سائر الدواعي التي دعته لفعل الفاحشة.

٥- مغفرة الذنوب:

﴿ ... فَإِنَّهُۥ كَانَ لِلْأَوَّٰبِينَ غَفُورًا ﴾الإسراء: ٢٥، أي: الرجاعين إليه في جميع

---

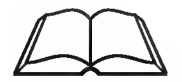
(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المظالم والغصب، باب النهبى بغير إذن صاحبه، (٣/ ١٣٦) ح:(٢٤٧٥). ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب بيان نقصان الإيمان بالمعاصي ونفيه عن المتلبس بالمعصية على إرادة نفي كماله، ح:(٥٧) (١/ ٧٦).

(٢) التوضيح والبيان (مجموع المؤلفات ٦ / ١٤٩)

(٣) التوضيح والبيان (مجموع المؤلفات ٦ / ١٥٧)

(٤) طريق الهجرتين (ص٢٧١)

الأوقات ﴿غَفُورًا﴾، فمن اطلع الله على قلبه، وعلم أنه ليس فيه إلا الإنابة إليه ومحبته ومحبة ما يقرب إليه، فإنه – وإن جرى منه في بعض الأوقات ما هو مقتضى الطبائع البشرية – يعفو عنه ويغفر له الأمور العارضة غير المستقرة(١).



(١) تفسير السعدي (مجموع المؤلفات ٢/٦٤٤)

المبحث الثالث: الخوف والخشية

وفيه ثلاثة مطالب:

المسألة الأولى: تعريف الخوف

المسألة الثانية: أدلة الخوف

المسألة الثالثة: ثمرات الخوف

المسألة الأولى: تعريف الخوف

الخوف مأخوذ في اللغة من الفعل الثلاثي : خاف يخاف خوفاً وخيفة ومخافة ، فهو خائف .

ومعنى الخَوْفُ : الفَزَعُ ، خافَه يخافُه خَوْفاً وخِيفةً ومخافة ، وإنما صارت الواو أَلفاً في يَخافُ ؛ لأَنه على بناء : عمِلَ يَعْمَلُ ، فاستثقلوا الواو فأَلقَوْها ... ، ومنه : التَّخْويفُ والإخافةُ والتَّخَوّف ، والنعت : خائفٌ ، وهو الفَزِعُ[١].

قال ابن فارس : "الخاء والواو والفاء أصلٌ واحد يدلُّ على الذُّعْرِ والفزَع . يقال : خِفْتُ الشّيءَ خوفاً وخِيفةً . والياء مبدَلةٌ من واو لمكان الكسرة"[٢].

وقد ورد الخوف في القرآن على خمسة وجوه[٣]:

الأَوّل: بمعنى المصيبة تصيب المسلمين، كقوله تعالى: ﴿ وَإِذَا جَآءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ ٱلْأَمْنِ أَوِ ٱلْخَوْفِ أَذَاعُواْ بِهِۦ... ﴾ النساء: ٨٣، قال السعدي رحمه الله: "إذا جاءهم أمر من الأمور المهمة والمصالح العامة ما يتعلق بالأمن وسرور المؤمنين، أو بالخوف الذي فيه مصيبة عليهم"[٤]، وقال تعالى: ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ ... ﴾ البقرة: ١٥٥.

الثاني: بمعنى الحرب والقتال، كقوله تعالى: ﴿...فَإِذَا ذَهَبَ ٱلْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ... ﴾ الأحزاب: ١٩، أي: إذا انجلى الحرب ﴿... فَإِذَا جَآءَ ٱلْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ... ﴾ الأحزاب: ١٩، أي: الحرب .

وفي تفسير قوله تعالى: ﴿ ... فَإِذَا جَآءَ ٱلْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَٱلَّذِى يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ... ﴾الأحزاب: ١٩، قال السعدي رحمه الله: "من شدة الجبن، الذي خلع قلوبهم، والقلق الذي أذهلهم، وخوفًا من إجبارهم على ما يكرهون

---

(١) لسان العرب (١٢٩٠/٢)

(٢) مقاييس اللغة (٢٣٠/٢)

(٣) بصائر ذوي التمييز (٥٧٨/٢)

(٤)تفسير السعدي (مجموع المؤلفات ٢٨٢/٢)

من القتال"[١].

الثالث: بمعنى العلم والدّراية، كقوله تعالى: ﴿ فَمَنْ خَافَ مِن مُّوصٍ جَنَفًا ... ﴾ البقرة: ١٨٢، أي: عِلم، وقوله تعالى: ﴿ ... إِلَّآ أَن يَخَافَآ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ ... ﴾ البقرة: ٢٢٩، أي: يعلما، وقوله تعالى: ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُواْ فِي ٱلْيَتَٰمَىٰ ... ﴾ النساء: ٣، أي: علمتم.

الرّابع: بمعنى النقص، كقوله تعالى: ﴿ أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ... ﴾ النحل: ٤٧، أي: تنقُّص.

الخامس: بمعني الرُّعب والخشية من العذاب والعقوبة، كقوله تعالى: ﴿ ...يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ السجدة: ١٦، أي: خوفًا من عذاب اللّه، وطمعًا في ثوابه[٢].

ثانياً: تعريفه شرعاً:

تنوعت أقوال العلماء في ذكر المعنى العام للخوف، ومنها:

- وقال بعضهم "الخوف اضطراب القلب وحركته من تذكر الخوف"[٣].
- قال الراغب: "الخوف: توقع مكروه عن أمارة مظنونة، أو معلومة ...، ويضاد الخوف الأمن، ويستعمل ذلك في الأمور الدنيوية والأخروية.قال تعالى: ﴿ ...وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ ... ﴾ الإسراء:٥٧، وقال: ﴿ وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِٱللَّهِ... ﴾ الأنعام: ٨١، وقال

---

(١) تفسير السعدي (مجموع المؤلفات ٢/٩١٦)

(٢) تفسير السعدي (مجموع المؤلفات ٢/٩٠٨)

(٣) مدارج السالكين (١/٥٠٨)

تعالى: ﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا ... ﴾ السجدة:١٦، وقال: ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا ... ﴾النساء:٣ [١].

أما تعريف الخوف المأمور به شرعًا؛ وهو الخوف من الله، فقد عرفه السعدي – رحمه الله – بأنه: "ما حجز العبد عن محارم الله"[٢].

وقال – رحمه الله – مبيناً حقيقة الخوف وأثره على العبد : "وحقيقة الخوف والخشية : أن يخاف العبد مقامه بين يدي الله ، ومقامه عليه ، فينهى نفسه بهذا الخوف عن كل ما حرم الله"[٣].

وفي هذا إشارة إلى ثمرة الخوف ، وهو أن يحجز العبد عن المحرمات ، ويقوده إلى فعل الطاعات ؛ فليس الخوف هو مجرد توقع المخوف ؛ وإنما لابد من وجود ثمرته .

قال الراغب : "والخوف من الله لا يراد به ما يخطر بالبال من الرعب ، كاستشعار الخوف من الأسد ، بل إنما يراد به الكف عن المعاصي واختيار الطاعات ، ولذلك قيل : لا يعد خائفاً من لم يكن للذنوب تاركاً"[٤].

وقال الطاهر ابن عاشور رحمه الله : "وَالْخَوْفُ تَوَقُّعُ حُصُولِ مَا تَكْرَهُهُ النَّفْسُ وَهُوَ ضِدُّ الْأَمْنِ . وَيُطْلَقُ عَلَى أَثَرِهِ وَهُوَ السَّعْيُ فِي مَرْضَاةِ الْمَخُوفِ مِنْهُ ، وَامْتِثَالُ أَوَامِرِهِ"[٥].

ولذا يمكن أن يعرف الخوف من الله تعالى شرعًا بتعريف يجمع بين أصله اللغوي مع بيان ثمرته التي ندب إليها الشرع بأنه: فزع العبد من الله باجتناب مساخطه.

ثالثا: الفرق بين الخوف والخشية:

وردت في القرآن الكريم عدة ألفاظ مقاربة للخوف، منها الخشية، ولفظ الخشية دال على الخوف، "خشي الرجل يخشى خشية، أي: خاف"[٦]. وأما معنى الخشية

---

(١) المفردات (ص٣٠٣)

(٢)تفسير السعدي (مجموع المؤلفات ٢/٢٤٢)

(٣)تفسير السعدي (مجموع المؤلفات ٢/٩٢)

(٤) المفردات (ص٣٠٣)

(٥) التحرير والتنوير (٢/٤٠٩)

(٦) الصحاح (٦/٢٣٦٧).

بحسب دلالة الشرع فقد بيَّن السعدي – رحمه الله – أن الخشية أخص من الخوف، فقد بيَّن أن الخوف والخشية "معانيها متقاربة"[١]، ثم أشار إلى ما تفارق به الخشيةُ الخوفَ، فقال رحمه الله: "فالخوف يمنع العبد عن محارم الله، وتشاركه الخشية في ذلك، وتزيد أن خوفه مقرون بمعرفة الله"[٢].

فهي تشترك مع الخوف بأنها تحجز عن فعل المعاصي وتزيد عليه بأن متعلقها هو كمال العلم بالمخوف؛ لأن الله تعالى يقول: ﴿...إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ...﴾ فاطر:٢٨.

قال السعدي رحمه الله مبينًا أثر الخشية: "فكل من كان باللّه أعلم، كان أكثر له خشية، وأوجبت له خشية اللّه الانكفاف عن المعاصي، والاستعداد للقاء من يخشاه، وهذا دليل على فضيلة العلم، فإنه داع إلى خشية اللّه، وأهل خشيته هم أهل كرامته، كما قال تعالى: ﴿...رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُۥ﴾ البينة:٨"[٣].

ولذا كان رسول الله ﷺ -الذي هو أعلم الخلق بالله سبحانه- هو أشدهم خشية له، قال ﷺ: «لأنا أعلمُهم باللهِ، وأشدُّهم لهُ خشيةً»[٤].

فالخوف حركة، والخشية انجماع وانقباض وسكون، فإن الذي يرى العدو والسيل ونحو ذلك: له حالتان:

إحداهما: حركة للهرب منه وهي حالة الخوف.

والثانية: سكونه وقراره في مكان لا يصل إليه فيه، وهي الخشية ...

فصاحب الخوف: يلتجئ إلى الهرب والإمساك، وصاحب الخشية: يلتجئ إلى الاعتصام بالعلم، ومثلُهما مثل من لا علم له بالطب ومثل الطبيب الحاذق، فالأول

---

(١) تيسير اللطيف المنان (مجموع المؤلفات ٣/٣٦٧)

(٢) المصدر نفسه.

(٣) تفسير السعدي (مجموع المؤلفات ٢/٩٥٢)

(٤) رواه مسلم في صحيحه، كتاب الفضائل، باب باب عِلْمِهِ -صلى الله عليه وسلم- بِاللَّهِ تَعَالَى وَشِدَّةِ خَشْيَتِهِ (٧/٩٠) ح(٦٢٥٠).

يلتجئ إلى الحمية والهرب، والطبيب يلتجئ إلى معرفته بالأدوية والأدواء[١].

فهاهنا فرق بين الخوف والخشية من جهة كمال العلم بالله، فالخشية تكون مع العلم بالمخشي، والخوف قد يكون من الجاهل، وثمة فرق آخر وهو أثر هذا العلم، وهو تعظيمه وإجلاله سبحانه وتعالى، فالخشية تكون بسبب عظمة المخشي بخلاف الخوف فقد يكون من ضعف الخائف لا من قوة المخوف[٢].

وقال الألوسي في تفسيره: "الخشية تكون من عظم المخشي وإن كان الخاشي قويًا، والخوف من ضعف الخائف وإن كان المخوف أمرًا يسيرًا "[٣].



(١) مدارج السالكين (٥٠٩/١)

(٢) القول المفيد (٧٣/٢) .

(٣) تفسير الألوسي (١٣٤/٧) .

المسألة الثانية: أنواع أدلة الخوف

١- الخوف شرط في الإيمان:

جعل الله عبادة الخوف منه من لوازم حصول إيمان العبد في القلب؛ فقال جل شأنه: ﴿... فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ آل عمران: ١٧٥، قال السعدي - رحمه الله - في هذه الآية: "وفي هذه الآية وجوب الخوف من الله وحده، وأنه من لوازم الإيمان، فعلى قدر إيمان العبد يكون خوفه من الله""[١].

وجَعلُ الخوف من الله من لوازم الإيمان = دال على اختصاص الله به ، وما اختص به الله وجب إفراده به ، وعليه فصرفه لغيره شرك أكبر مخرج من الملة .

قال الحسن البصري رحمه الله : " **العالِم من خشي الرحمن بالغيب، ورغب فيما رغب الله فيه، وزهد فيما سخط الله فيه** "[٢].

٢- أمر الله سبحانه بالخوف منه:

وذلك في آيات كثيرة في كتاب الله، منها قوله سبحانه وتعالى: ﴿... ٱلْيَوْمَ يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ ... ﴾ المائدة: ٣، وقال جل وعلا: ﴿...فَلَا تَخْشَوُا۟ ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ ...﴾ المائدة: ٤٤، وقال سبحانه: ﴿... إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِى ... ﴾ البقرة: ١٥٠.

قال السعدي رحمه الله: "أمر تعالى بخشيته، التي هي أصل كل خير، فمن لم يخش الله، لم ينكف عن معصيته، ولم يمتثل أمره"[٣].

ويُلحظ في سياق الآيات الثلاث نهي الله عز وجل عن الخوف من الكافرين والظالمين والناس أجمعين.

---

[١] تفسير السعدي (مجموع المؤلفات ٢/٢٤٢)

[٢] تفسير ابن كثير (٦/٥٤٥)

[٣] تفسير السعدي (مجموع المؤلفات ٢/١٥٠)

ومعلوم أن أمر الله بشيء دليل على محبته إياه، فالخوف عبادة؛ لأن الله أمر به وهو سبحانه يحبه، فوجب صرفه لله وحده.

٣- ذم ضد الخوف، وهو الأمن من مكر الله سبحانه:

جاءت النصوص الكثيرة الناهية عن الأمن من مكر الله ونسيان بأسه والغفلة عن عذابه وأليم عقابه على من تمادى في الذنوب والعصيان، ومنها قوله تعالى: ﴿ أَفَأَمِنَ ٱلَّذِينَ مَكَرُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَخْسِفَ ٱللَّهُ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٤٥﴾ أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِى تَقَلُّبِهِمْ فَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٤٦﴾ أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ النحل:٤٥-٤٧.

وفي الآيات تحذير من أن نأمن مكر الله، يقول السعدي - رحمه الله - مفسرًا الآية السابقة: "هذا تخويف من الله تعالى لأهل الكفر والتكذيب وأنواع المعاصي، من أن يأخذهم بالعذاب على غرَّة وهم لا يشعرون، إما أن يأخذهم العذاب من فوقهم، أو من أسفل منهم بالخسف وغيره، وإما في حال تقلُّبهم وشغلهم وعدم خطور العذاب ببالهم، وإما في حال تخوفهم من العذاب، فليسوا بمعجزين لله في حالة من هذه الأحوال، بل هم تحت قبضته ونواصيهم بيده".

ولكنه رءوف رحيم لا يعاجل العاصين بالعقوبة، بل يمهلهم ويعافيهم ويرزقهم وهم يؤذونه ويؤذون أولياءه، ومع هذا يفتح لهم أبواب التوبة، ويدعوهم إلى الإقلاع عن السيئات التي تضرهم، ويعدهم بذلك أفضل الكرامات، ومغفرة ما صدر منهم من الذنوب، فليستح المجرم من ربه أن تكون نعم الله عليه نازلة في جميع اللحظات، ومعاصيه صاعدة إلى ربه في كل الأوقات، وليعلم أن الله يمهل ولا يهمل، وأنه إذا أخذ العاصي أخذه أخذ عزيز مقتدر، فليتب إليه، وليرجع في جميع أموره إليه، فإنه رءوف رحيم. فالبدار البدار إلى رحمته الواسعة وبره العميم وسلوك الطرق الموصلة إلى فضل الرب الرحيم، ألا وهي تقواه والعمل بما يحبه ويرضاه"[1].

---

(1) تفسير السعدي (مجموع المؤلفات ٢/٦٢٣)

إنَّ أمن مكر الله ليس شأن أهل الإيمان ولا صفتهم، وإنما شأنهم دوام الخوف والوجل من عذاب الله سبحانه.

ومن الأدلة -أيضًا- قوله تعالى: ﴿ أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَاتًا وَهُمْ نَائِمُونَ (٩٧) أَوَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ (٩٨) أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ ۚ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ الأعراف:٩٧-٩٩.

ففي الآية إنذار من الله للمخالفين للرسل من أهل القرى الكافرة بألا يغتروا بنعم الله النازلة عليهم قبل أن ينزل عليهم عذاب الله وسخطه، قال السعدي – رحمه الله – في سياق تفسير الآية السابقة: "﴿ أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ ﴾، أي: المكذبة، بقرينة السياق ﴿ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ﴾ أي: عذابنا الشديد ﴿ بَيَاتًا وَهُمْ نَائِمُونَ ﴾، أي: في غفلتهم، وغرتهم وراحتهم.﴿ أَوَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴾، أي: أي شيء يؤمنهم من ذلك، وهم قد فعلوا أسبابه، وارتكبوا من الجرائم العظيمة، ما يوجب بعضه الهلاك ؟!

﴿ أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ ﴾ حيث يستدرجهم من حيث لا يعلمون، ويملي لهم، إن كيده متين، ﴿ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ ﴾، فإن من أمن من عذاب اللّه، فهو لم يصدق بالجزاء على الأعمال، ولا آمن بالرسل حقيقة الإيمان"[1].

ثم بين السعدي – رحمه الله – أن العبد المؤمن لا بد أن يكون خائفاً وجلاً غير آمن من عذاب الله مبيناً مغبة هذا الأمن ، فقال : "وهذه الآية الكريمة فيها من التخويف البليغ ، على أن العبد لا ينبغي له أن يكون آمناً على ما معه من الإيمان ؛ بل لا يزال خائفاً وجلاً أن يبتلى ببلية تسلب ما معه من الإيمان ، وأن لا يزال داعياً بقوله : (يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك) وأن يعمل ويسعى ، في كل سبب يخلصه من الشر ، عند وقوع الفتن ، فإن العبد – ولو بلغت به الحال ما بلغت – فليس على

---

(١) تفسير السعدي (مجموع المؤلفات ٢/٤٢٥)

يقين من السلامة"[1].

ونظير هذا ما جاء عن الحسن البصري رحمه الله : "المؤمن يعمل بالطاعات وهو مشفق وجل خائف ، والفاجر يعمل بالمعاصي وهو آمن"[2].

ومن الأدلة على عدم الأمن من مكر الله قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ ﴿٤٢﴾ فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا۟ وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴾ الأنعام: ٤٢-٤٤.

يقول السعدي رحمه الله مبينًا خطر الأمن من مكر الله: "يقول تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ ﴾ من الأمم السالفين، والقرون المتقدمين، فكذبوا رسلنا، وجحدوا بآياتنا.﴿ فَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ ﴾، أي: بالفقر والمرض والآفات والمصائب، رحمة منا بهم.﴿ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ ﴾ إلينا، ويلجأون عند الشدة إلينا.﴿ فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا۟ وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾، أي: استحجرت فلا تلين للحق.﴿ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾، فظنوا أن ما هم عليه دين الحق، فتمتعوا في باطلهم برهة من الزمان، ولعب بعقولهم الشيطان.﴿ فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ ﴾ من الدنيا ولذاتها وغفلاتها.﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴾، أي: آيسون من كل خير، وهذا أشد ما يكون من العذاب، أن يؤخذوا على غرة، وغفلة وطمأنينة، ليكون أشد لعقوبتهم، وأعظم لمصيبتهم"[3].

٤- من مهمة الرسل تخويف الناس من عذاب الله:

كما قال الله تعالى: ﴿ وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ۖ فَمَنْ ءَامَنَ وَأَصْلَحَ

---

(1) تفسير السعدي (مجموع المؤلفات ٤٢٥/٢)

(2) تفسير ابن كثير (٤٥١/٣)

(3) تفسير السعدي (مجموع المؤلفات ٣٦٨/٢)

فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٤٨﴾ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا يَمَسُّهُمُ الْعَذَابُ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴾ الأنعام:٤٨-٤٩.

قال السعدي رحمه الله في تفسير الآية: "يذكر تعالى زبدة ما أرسل به المرسلين؛ أنه البشارة والنذارة، وذلك مستلزم لبيان المبشر والمبشر به، والأعمال التي إذا عملها العبد، حصلت له البشارة. والمنذر والمنذر به، والأعمال التي من عملها، حقت عليه النذارة""[١].

و"الإنذار هو : الإعلام بالمخوف على وجه الترهيب"[٢]، كما قاله السعدي رحمه الله . فالتخويف من عذاب الله إحدى مهمتي الرسل عليهم السلام ، فهم "يدعون الناس إلى كل خير ، وينهون عن كل شر ، ويبشرونهم على امتثال ذلك بالثواب العاجل والآجل ، وينذرونهم على معصية ذلك بالعقاب العاجل والآجل ، فقامت بذلك حجة الله على العباد"[٣].

وقد وصف الله رسوله ﷺ بأنه نذير كما قال تعالى: ﴿...إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴾ سبأ:٤٦.

قال السعدي رحمه الله في تفسير قوله تعالى: ﴿ فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴾ الذاريات:٥٠، "أي: منذر لكم من عذاب الله، ومخوف بيِّن النذارة"[٤].

وقال تعالى آمرًا نبيه ﷺ بأن يقول: ﴿... إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ...﴾ الأعراف:١٨٨، قال السعدي رحمه الله: "﴿ نَذِيرٌ﴾ أنذر العقوبات الدينية والدنيوية والأخروية، وأبين الأعمال المفضية إلى ذلك، وأحذر منها"[٥].

---

[١] تفسير السعدي (مجموع المؤلفات ٢/٣٦٩)

[٢] تفسير السعدي (مجموع المؤلفات ٢/٦٩٣)

[٣] تفسير السعدي (مجموع المؤلفات ٢/٦٧٥)

[٤] تفسير السعدي (مجموع المؤلفات ٢/١١١٩)

[٥] تفسير السعدي (مجموع المؤلفات ٢/٤٤٤)

المسألة الثالثة: ثمرات الخوف

إن لهذه العبادة الجليلة فضائل عظيمة، دلت عليها نصوص الكتاب والسنة، منها:

١- دخول الجنة:

ولا شك أن النجاة من النار ودخول الجنة من أعظم مطالب المؤمنين، والآيات الدالة على هذا المعنى كثيرة، منها ما جاء فيمن ترك المعصية خوف الله تعالى ولعلمه باطلاعه عليه وأن جزاءه الجنة، كما في قوله تعالى: ﴿ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴾النازعات: ٤٠-٤١، وقد أشار السعدي – رحمه الله – لهذه الثمرة حيث قال في تفسير الآية السابقة: "﴿ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ ﴾، أي: خاف القيام عليه ومجازاته بالعدل، فأثر هذا الخوف في قلبه فنهى نفسه عن هواها الذي يقيدها عن طاعة الله، وصار هواه تبعًا لما جاء به الرسول، وجاهد الهوى والشهوة الصادين عن الخير، ﴿ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ ﴾ المشتملة على كل خير وسرور ونعيم ﴿ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴾ لمن هذا وصفه"[1].

وقد حصر الله تعالى الفوز –وهو النجاة من العذاب ودخول الجنة– بطاعته وطاعة رسوله ﷺ وخشية الله تعالى وتقواه، فقال تعالى: ﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخْشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴾النور: ٥٢، قال السعدي رحمه الله مشيرًا إلى ثمرة خشية الله تعالى: "﴿ وَيَخْشَ ٱللَّهَ ﴾، أي: يخافه خوفًا مقرونًا بمعرفة، فيترك ما نهى عنه، ويكف نفسه عما تهوى ... ﴿ فَأُو۟لَٰٓئِكَ ﴾ –الذين جمعوا بين طاعة الله وطاعة رسوله، وخشية الله وتقواه– ﴿ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴾ بنجاتهم من العذاب، لتركهم أسبابه، ووصولهم إلى الثواب، لفعلهم أسبابه، فالفوز محصور فيهم، وأما من لم يتصف بوصفهم، فإنه

---

[1] تفسير السعدي (مجموع المؤلفات ٢/١٢٤٠)

يفوته من الفوز بحسب ما قصر عنه من هذه الأوصاف الحميدة"[١].

وأخبر عز وجل عن إحلال رضوانه وما يليه من نعيم جناته على أهل الخشية منه، فقال سبحانه وتعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ خَيۡرُ ٱلۡبَرِيَّةِ ٧ جَزَآؤُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۖ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ ذَٰلِكَ لِمَنۡ خَشِيَ رَبَّهُۥ ﴾البينة:٧-٨، قال السعدي - رحمه الله - مشيرًا إلى المعنى المتقدم: ﴿ جَزَآؤُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ ﴾، أي: جنات إقامة، لا ظعن فيها ولا رحيل، ولا طلب لغاية فوقها، ﴿ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۖ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُ ﴾، فرضي عنهم بما قاموا به من مراضيه، ورضوا عنه بما أعد لهم من أنواع الكرامات وجزيل المثوبات، ﴿ ذَٰلِكَ ﴾ الجزاء الحسن ﴿ لِمَنۡ خَشِيَ رَبَّهُۥ ﴾، أي: لمن خاف الله، فأحجم عن معاصيه، وقام بواجباته"[٢].

والخوف النافع الذي ينال به المسلم هذه المراتب العالية هو خشية الله في الغيب والشهادة كما قال تعالى: ﴿ وَأُزۡلِفَتِ ٱلۡجَنَّةُ لِلۡمُتَّقِينَ غَيۡرَ بَعِيدٍ ٣١ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٖ ٣٢ مَّنۡ خَشِيَ ٱلرَّحۡمَٰنَ بِٱلۡغَيۡبِ وَجَآءَ بِقَلۡبٖ مُّنِيبٍ ٣٣ ٱدۡخُلُوهَا بِسَلَٰمٖۖ ذَٰلِكَ يَوۡمُ ٱلۡخُلُودِ ٣٤ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيۡنَا مَزِيدٞ ﴾ ق:٣١-٣٥، قال السعدي رحمه الله: " ﴿ مَّنۡ خَشِيَ ٱلرَّحۡمَٰنَ ﴾، أي: خافه على وجه المعرفة بربه والرجاء لرحمته، ولازم على خشية الله في حال غيبه، أي: مغيبه عن أعين الناس، وهذه هي الخشية الحقيقية، وأما خشيته في حال نظر الناس وحضورهم، فقد تكون رياء وسمعة، فلا تدل على الخشية، وإنما الخشية النافعة، خشية الله في الغيب والشهادة ويحتمل أن المراد بخشية الله بالغيب كالمراد بالإيمان بالغيب وأن هذا مقابل للشهادة حيث يكون الإيمان والخشية ضروريًا لا اختياريًا، حيث يعاين العذاب وتأتي آيات الله، وهذا هو الظاهر"[٣].

---

(١) تفسير السعدي (مجموع المؤلفات ٢/٧٩٩)

(٢) تفسير السعدي (مجموع المؤلفات ٢/١٢٦٧)

(٣) تفسير السعدي (مجموع المؤلفات ٢/١١١٢)

ووعد الله تعالى الخائفين منه أعالي الجنات كما قال تعالى: ﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴾الرحمن:٤٦، وهاتان الجنتان أعلى من الجنتين اللتين دونهما، حيث قال سبحانه بعدها بآيات: ﴿ وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ ﴾الرحمن:٦٢،

قال السعدي رحمه الله في بيان معنى الآية: "أي: وللذي خاف ربه وقيامه عليه، فترك ما نهى عنه، وفعل ما أمره به، له جنتان من ذهب آنيتهما وحليتهما وبنيانهما وما فيهما، إحدى الجنتين جزاء على ترك المنهيات، والأخرى على فعل الطاعات"[١].

٢- الخائف من الله يظله في ظل عرشه:

قال ﷺ: "سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمْ اَللَّهُ فِي ظِلِّهِ، يَوْمَ لَا ظِلَّ إِلَّا ظِلُّهُ: إِمَامٌ عَادِلٌ، وَشَابٌّ نَشَأَ فِي طَاعَةِ اَللَّهِ، وَرَجُلٌ قَلْبُهُ مُعَلَّقٌ بِالْمَسَاجِدِ، وَرَجُلَانِ تَحَابَّا فِي اَللَّهِ، اِجْتَمَعَا عَلَيْهِ وَتَفَرَّقَا عَلَيْهِ، وَرَجُلٌ دَعَتْهُ اِمْرَأَةٌ ذَاتُ مَنْصِبٍ وَجَمَالٍ، فَقَالَ: إِنِّي أَخَافُ اَللَّهَ، وَرَجُلٌ تَصَدَّقَ بِصَدَقَةٍ فَأَخْفَاهَا حَتَّى لَا تَعْلَمَ شِمَالُهُ مَا تُنْفِقُ يَمِينُهُ"[٢].

ولذا فإن يوسف عليه السلام لما دعته امرأة العزيز وهَمَّت به وهمَّ بها قدَّم داعي الخوف من الله تعالى فنجاه الله من فتنتها ، "فكان ممن خاف مقام ربه ، ونهى النفس عن الهوى ، ومن أعلى السبعة الذين يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله ، فذكر صلى الله عليه وسلم منهم رجلاً دعته امرأة ذات منصب وجمال فقال : إني أخاف الله"[٣].

ولهذا " كان كل من يتشبه به ويقف أحدَ السبعة الذين يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله ، (رجل دعته امرأة ذات منصب وجمال ، فقال : إني أخاف الله)[٤] "[١].

([١]) تفسير السعدي (مجموع المؤلفات ١١٤٢/٢)

([٢]) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأذان، باب من جلس في المسجد ينتظر الصلاة وفضل المساجد (١/ ١٣٣)، ح:(٦٦٠)، ومسلم في صحيحه كتاب الزكاة باب فضل إخفاء الصدقة (٢/ ٧١٥)ح:(١٠٣١) واللفظ للبخاري

([٣]) تيسير اللطيف المنان (مجموع المؤلفات ٢٦١/٣)

([٤]) تقدم تخريجه آنفا.

٣- النجاة من كل سوء وفتنة:

بيَّن السعدي - رحمه الله - هذه الثمرة من ثمرات الخوف في سياق حديث عن فوائد قصة يوسف ﷺ، فقال: "فإن الهم والهوى ونحوها إذا قاومه العبد وقدم عليه الخوف والإيمان فهو كمال ، كما قال تعالى: ﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴾، ومنها ما عليه يوسف -صلوات الله عليه- من الجمال الظاهر الذي أخذ بلب امرأة العزيز وشغفها حبًا، وحين رأته النسوة قطعن أيديهن وأكبرنه وقلن: ﴿ ...حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴾ يوسف:٣١، ومن الجمال الباطن، وهو العفة والإخلاص الكامل والصيانة.

﴿ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ ۖ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ ... ﴾يوسف:٢٤، وهو أنه لما رجع إلى ما معه من الإيمان ومراقبة الله وخوفه وخشيته ورجائه، دفع عنه هذا الهم وموجبه واضمحل، وصارت إرادته التامة فيما يرضي ربه"[٢].

٤- سبب للتمكين في الأرض:

وهو وعد الله تعالى لأتباع الرسل، قال عز وجل: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ۖ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٣﴾ وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِى وَخَافَ وَعِيدِ ﴾ إبراهيم:١٣-١٤، قال السعدي رحمه الله: "﴿ وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۚ ذَٰلِكَ ﴾، أي: العاقبة الحسنة التي جعلها الله للرسل ومن تبعهم جزاء ﴿ لِمَنْ خَافَ مَقَامِى ﴾ عليه في الدنيا، وراقب الله مراقبة من يعلم أنه يراه، ﴿وَخَافَ وَعِيدِ ﴾،

([١]) القواعد الحسان (مجموع المؤلفات ٣/٥٣٣)

([٢]) تيسير اللطيف المنان (مجموع المؤلفات ٣/٥٣٣)

أي: ما توعدت به من عصاني، فأوجب له ذلك الانكفاف عما يكرهه الله والمبادرة إلى ما يحبه الله"[١].

٥- حصوله عند الذكر علامة الإيمان:

جعل الله تعالى من صفات عباده المؤمنين خوف قلوبهم عند سماع ذكر الله تعالى كما قال عز وجل: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ... ﴾ الأنفال:٢، قال السعدي – رحمه الله – مبينًا علامة المؤمنين: "﴿ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾، أي: خافت ورهبت، فأوجبت لهم خشية اللّه تعالى الانكفاف عن المحارم، فإن خوف اللّه تعالى أكبر علاماته أن يحجز صاحبه عن الذنوب"[٢].

٦- الخائفون هم المنتفعون بالذكرى:

فالتأثر بالموعظة والتذكير لا يكون إلا لمن قلب وجل خائف، وقد بيَّن السعدي رحمه الله سبب ذلك، فقال: "وأخبر الله أن الذكرى تنفع المؤمنين، لأن ما معهم من الإيمان والخشية والإنابة، واتباع رضوان الله، يوجب لهم أن تنفع فيهم الذكرى، وتقع الموعظة منهم موقعها كما قال تعالى: ﴿ فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ ﴿٩﴾ سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ ﴿١٠﴾ وَيَتَجَنَّبُهَا ٱلْأَشْقَى ﴾ الأعلى:٩-١١. وأما من ليس له معه إيمان ولا استعداد لقبول التذكير، فهذا لا ينفع تذكيره، بمنزلة الأرض السبخة، التي لا يفيدها المطر شيئا، وهؤلاء الصنف، لو جاءتهم كل آية، لم يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم"[٣].

بل إن الله عز وجل أخبر أن الغاية من إنزال القرآن هو تذكرة من يخشى، فقال تعالى: ﴿ طه ﴿١﴾ مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ ﴿٢﴾ إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ ﴾ طه:٣، قال الشيخ عبدالرحمن السعدي – رحمه الله – مشيرًا إلى هذه الثمرة: "﴿ إِلَّا تَذْكِرَةً

(١) تفسير السعدي (مجموع المؤلفات ٢/٥٩٦)

(٢) تفسير السعدي (مجموع المؤلفات ٢/٤٤٩)

(٣) تفسير السعدي (مجموع المؤلفات ٢/١١٢٠)

﴿لِّمَن يَخۡشَىٰ﴾: إلا ليتذكر به من يخشى الله تعالى، فيتذكر ما فيه من الترغيب إلى أجل المطالب، فيعمل بذلك، ومن الترهيب عن الشقاء والخسران، فيرهب منه، ويتذكر به الأحكام الحسنة الشرعية المفصلة، التي كان مستقرا في عقله حسنها مجملا فوافق التفصيل ما يجده في فطرته وعقله، ولهذا سماه الله ﴿تَذۡكِرَةً﴾ ... وخص بالتذكرة ﴿مَن يَخۡشَىٰ﴾ لأن غيره لا ينتفع به، وكيف ينتفع به من لم يؤمن بجنة ولا نار، ولا في قلبه من خشية الله مثقال ذرة ؟ هذا ما لا يكون"[١].

وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكۡرَ وَخَشِيَ ٱلرَّحۡمَٰنَ بِٱلۡغَيۡبِۖ فَبَشِّرۡهُ بِمَغۡفِرَةٖ وَأَجۡرٖ كَرِيمٍ﴾ يس:١١، قال السعدي رحمه الله مبينًا من ينتفع بالنذارة: "﴿إِنَّمَا تُنذِرُ﴾، أي: إنما تنفع نذارتك، ويتعظ بنصحك ﴿مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكۡرَ﴾ مَن قصده اتباع الحق وما ذكر به، ﴿وَخَشِيَ ٱلرَّحۡمَٰنَ بِٱلۡغَيۡبِ﴾ أي: من اتصف بهذين الأمرين، القصد الحسن في طلب الحق، وخشية اللّه تعالى، فهم الذين ينتفعون برسالتك، ويزكون بتعليمك"[٢].

وقال تعالى منوهًا إلى أن هذا القرآن العظيم تقشعر منه جلود الخائفين وتوجل به أفئدة الخاشين: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ كِتَٰبٗا مُّتَشَٰبِهٗا مَّثَانِيَ تَقۡشَعِرُّ مِنۡهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمۡ وَقُلُوبُهُمۡ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهۡدِي بِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٍ﴾الزمر:٢٣، قال السعدي رحمه الله: "﴿تَقۡشَعِرُّ مِنۡهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ﴾ لما فيه من التخويف والترهيب المزعج، ﴿ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمۡ وَقُلُوبُهُمۡ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِ﴾، أي: عند ذكر الرجاء والترغيب، فهو تارة يرغبهم لعمل الخير، وتارة يرهبهم من عمل الشر"[٣].

٧- سبب لنيل هداية الله ورحمته:

---

(١) تفسير السعدي (مجموع المؤلفات ٢/٧٠٤)

(٢) تفسير السعدي (مجموع المؤلفات ٢/٩٥٨)

(٣) تفسير السعدي (مجموع المؤلفات ٢/٩٩٩)

قال تعالى: ﴿ وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى ٱلْغَضَبُ أَخَذَ ٱلْأَلْوَاحَ وَفِي نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ ﴾ الأعراف:١٥٤، قال الشيخ عبدالرحمن السعدي رحمه الله: "أي: فيها الهدى من الضلالة، وبيان الحق من الباطل، وأعمال الخير وأعمال الشر، والهدى لأحسن الأعمال، والأخلاق، والآداب، ورحمة وسعادة لمن عمل بها، وعلم أحكامها ومعانيها، ولكن ليس كل أحد يقبل هدى اللّه ورحمته، وإنما يقبل ذلك وينقاد له، ويتلقاه بالقبول الذين ﴿ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ ﴾، أي: يخافون منه ويخشونه، وأما من لم يخف اللّه ولا المقام بين يديه، فإنه لا يزداد بها إلا عتوا ونفورا وتقوم عليه حجة اللّه فيها"[1].

٨- سبب للمبادرة إلى الخيرات ونيل أعلى الدرجات:

فالخوف من الله إذا امتلأ به قلب العبد قاده إلى عمل الصالحات، بل وإلى المسابقة للخيرات، قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ﴿٦٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ ﴾ المؤمنون:٥٧-٦١، قال السعدي رحمه الله في تفسير الآية: "﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴾، أي: وجلون، مشفقة قلوبهم كل ذلك من خشية ربهم، خوفا أن يضع عليهم عدله، فلا يبقى لهم حسنة، وسوء ظن بأنفسهم، أن لا يكونوا قد قاموا بحق الله تعالى، وخوفا على إيمانهم من الزوال، ومعرفة منهم بربهم، وما يستحقه من الإجلال والإكرام، وخوفهم وإشفاقهم يوجب لهم الكف عما يوجب الأمر المخوف من الذنوب، والتقصير في الواجبات"[2].

ثم أشار الله تعالى إلى جزائهم، قال السعدي رحمه الله مفسرًا قوله تعالى: ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ ﴾: "أي: في ميدان التسارع في أفعال الخير، همهم ما

---

(١) تفسير السعدي (مجموع المؤلفات ٤٣٦/٢)

(٢) تفسير السعدي (مجموع المؤلفات ٧٧٤/٢)

يقربهم إلى الله، وإرادتهم مصروفة فيما ينجي من عذابه، فكل خير سمعوا به، أو سنحت لهم الفرصة إليه، انتهزوه وبادروه، قد نظروا إلى أولياء الله وأصفيائه، أمامهم، ويمنة، ويسرة، يسارعون في كل خير، وينافسون في الزلفى عند ربهم، فنافسوهم.ولما كان السابق لغيره المسارع قد يسبق لجده وتشميره، وقد لا يسبق لتقصيره، أخبر تعالى أن هؤلاء من القسم السابقين فقال: ﴿ وَهُمْ لَهَا ﴾، أي: للخيرات ﴿ سَٰبِقُونَ ﴾ قد بلغوا ذروتها، وتباروا هم والرعيل الأول، ومع هذا، قد سبقت لهم من الله سابقة السعادة، أنهم سابقون"[١].

وقال تعالى: ﴿ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا ۚ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴾الأنعام:٩٢، قال السعدي رحمه الله مبينًا أثر الخوف في امتلاء القلب بالإيمان والعمل بما يرضي الله: " ﴿ وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا ﴾ ... فتحذِّر الناس عقوبة الله، وأخذه الأمم، وتحذرهم مما يوجب ذلك.﴿ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ﴾؛ لأن الخوف إذا كان في القلب عمرت أركانه، وانقاد لمراضي الله"[٢].

وقال تبارك وتعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ ﴾الرعد:٢١، قال السعدي رحمه الله: "﴿ وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ ﴾، وهذا عام في كل ما أمر الله بوصله، من الإيمان به وبرسوله، ومحبته ومحبة رسوله، والانقياد لعبادته وحده لا شريك له، ولطاعة رسوله.ويصلون آباءهم وأمهاتهم ... والسبب الذي يجعل العبد واصلًا ما أمر الله به أن يوصل، خشية الله وخوف يوم الحساب، ولهذا قال: ﴿ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ﴾، أي: يخافونه، فيمنعهم خوفهم منه، ومن القدوم عليه يوم الحساب، أن يتجرؤوا على معاصي الله، أو يقصروا في شيء مما أمر الله

---

(١) تفسير السعدي (مجموع المؤلفات ٧٧٥/٢)

(٢) تفسير السعدي (مجموع المؤلفات ٣٧٩/٢)

به خوفا من العقاب ورجاء للثواب"[١].

والسنة الصحيحة عن رسول الله ﷺ تشهد لهذا المعنى، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من خاف أدلج، ومن أدلج بلغ المنزل، ألا إن سلعة الله غالية، ألا إن سلعة الله الجنة!»[٢].

(١) تفسير السعدي (مجموع المؤلفات ٢/٥٨٧)

(٢) رواه الترمذي في سننه، أبواب صفة القيامة والرقائق والورع. (٤/٤١٤) ح(٢٤٥٠) .

المبحث الرابع: الرجاء

وفيه ثلاثة مطالب:

المسألة الأولى: تعريف الرجاء

المسألة الثانية: أدلة الرجاء

المسألة الثالثة: ثمرات الرجاء

المسألة الأولى: تعريف الرجاء

أولًا: الرجاء لغة:

كلمة الرجاء مأخوذة من الفعل الثلاثي: رجا يرجو رجوا ورجاءً ورجاوة ومرجاة ورجاة؛ وهي ممدود رجا يرجو.

ومادة (ر ج و) تدل على الأمل الذي هو ضد اليأس.

وهمزة الرجاء ليست أصلية لأنها منقلبة عن واو بدليل ظهورها في رجاوة.

قال ابن فارس: "الراء والجيم والحرف المعتلّ أصلان متباينان، يدلُّ أحدُهما على الأمَل، والآخَر على ناحية الشيء. فالأول الرَّجاءُ، وهو الأمل. يقال: رجَوت الأمْرَ أرجُوه رجاءً.ثم يُتَّسع في ذلك، فربما عُبِّر عن الخوف بالرَّجاء.قال الله تعالى: ﴿مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا﴾ نوح:١٣، أي لا تخافون له عَظَمَةً ... وأمَّا الآخَر فالرَّجَا، مقصور: النَّاحية من البئر؛ وكل ناحيةٍ رَجا.قال الله جلّ جلاله: ﴿وَٱلْمَلَكُ عَلَىٰٓ أَرْجَآئِهَا...﴾ الحاقة:١٧" [(١)].

ومن معاني هذا الفعل (ر ج و) : المبالاة ، يقال : ما أرجو ، أي ما أبالي[(٢)].

فنخلص حينئذ إلى أن هذه المادة لها ثلاثة استعمالات في اللغة:

١- الرجاء بالمد، وهو الأمل الذي هو نقيض اليأس .

٢- الرجا بالقصر، وهو حافة البئر .

٣- الرجو بمعنى المبالاة .

ثانياً: الرجاء شرعاً:

في المعنى الشرعي للرجاء لابد أن تُلاحَظ جهتان:

١- جهة الطمع فيما عند الله.

---

(١) مقاييس اللغة (٢/٤٩٤)

(٢) تهذيب اللغة (١١/١٢٤)

٢- إتباع هذا الطمع بفعل الطاعات.

وقد عُرف الرجاء بتعريفات متنوعة، تصب جميعها في معنى الرغبة والطمع في حصول المحبوب.

ومن تلكم التعريفات:

- الرجاء: هو الطمع في فضل الله ورحمته.

وقيل: الرجاء هو الإخبار عن تهيؤ وقوع أمر في المستقبل وقوعًا مؤكدًا(١).

- وقيل : الرجاء هو النظر إلى سعة رحمة الله(٢).

- وقيل : هو الاستبشار بجود وفضل الرب تبارك وتعالى ، والارتياح لمطالعة كرمه سبحانه(٣).

وقيل : هو الثقه بجود الرب تعالى(٤).

وقد عرفه الشيخ السعدي رحمه الله بقوله : "والرجاء : أن يرجو العبد رحمة الله العامة ، ورحمته الخاصة به . فيرجو قبول ما تفضل الله عليه به من الطاعات ، وغفران ما تاب منه من الزلات ، ويعلق رجاءه بربه في كل حال من أحواله"(٥) .

ففي هذا التعريف إشارة إلى متعلقات الرجاء وهو الطمع في قبول العمل الذي قام به العبد ، والطمع في مغفرة ذنب تاب منه العبد .

وفيه – أيضاً – ملاحظة فعل السبب المشروع ؛ فإن هذا الرجاء وهذه الرغبة إنما جاءت بعد السبب المشروع ، وهو فعل الطاعة والتوبة من الذنب.

وبهذا يفارق الرجاءُ التمني ، قال ابن القيم رحمه الله : "والفرق بينه وبين التمني أن التمني يكون مع الكسل ولا يسلك بصاحبه طريق الجد والاجتهاد و الرجاء يكون

---

(١) التحرير والتنوير (٣٢٨/١)

(٢) مدراج السالكين (٣٦/٢)

(٣) مدارج السالكين (٣٧/٢)

(٤) مدراج السالكين (٣٦/٢)

(٥) تفسير السعدي (مجموع المؤلفات ٤٤/٢)

مع بذل الجهد وحسن التوكل فالأول : كحال من يتمنى أن يكون له أرض يبذرها ويأخذ زرعها والثاني : كحال من يشق أرضه ويفلحها ويبذرها ويرجو طلوع الزرع ولهذا أجمع العارفون على أن الرجاء لا يصح إلا مع العمل"[1].



(١) مدراج السالكين (٢/٣٧)

المسألة الثانية: أنواع أدلة الرجاء

وردت أدلة كثيرة في نصوص الكتاب والسنة تبين أهمية الرجاء ومنزلته، وتتضح في الوجوه الآتية :

١- أمر الله عز وجل بالرجاء:

جاءت النصوص الكثيرة الآمرة بإفراد الله، وأمر الله بالشيء دليل على وجوبه، ويتفرع على هذا - أيضًا - محبته إياه .

ومن الآيات المشتملة على ذلك قوله تعالى: ﴿ ٱدۡعُواْ رَبَّكُمۡ تَضَرُّعٗا وَخُفۡيَةًۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ ﴿٥٥﴾ وَلَا تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ بَعۡدَ إِصۡلَٰحِهَا وَٱدۡعُوهُ خَوۡفٗا وَطَمَعًاۚ إِنَّ رَحۡمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٞ مِّنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾الأعراف:٥٥-٥٦، قال السعدي - رحمه الله - مبينًا ما اشتملت عليه الآية من الطمع في رحمة الله ورجائه: "﴿ وَٱدۡعُوهُ خَوۡفٗا وَطَمَعًا ﴾، أي: خوفًا من عقابه، وطمعًا في ثوابه، طمعًا في قبولها، وخوفًا من ردها، لا دعاء عبد مدل على ربه قد أعجبته نفسه، ونزل نفسه فوق منزلته، أو دعاء من هو غافل لاهٍ"(١).

ومما يعضد هذ المعنى ما ذكره ابن جرير الطبري - رحمه الله - في تفسير هذه الآية، إذ قال: "وأخلصوا له الدعاء والعمل، ولا تشركوا في عملكم له شيئًا غيره من الآلهة والأصنام وغير ذلك، وليكن ما يكون منكم في ذلك خوفًا من عقابه، وطمعًا في ثوابه.وإنّ مَن كان دعاؤه إياه على غير ذلك، فهو بالآخرة من المكذبين؛ لأنّ من لم يخف عقابَ الله ولم يرجُ ثوابه، لم يبال ما ركب من أمر يسخَطه الله ولا يرضاه"(٢).

قال الشيخ عبد الرحمن السعدي رحمه الله: "وفي قوله: ﴿... ٱبۡتِغَآءَ رَحۡمَةٖ مِّن رَّبِّكَ... ﴾ الإسراء:٢٨، فيه: الحث على تعليق القلب والرجاء والطمع بالله، وصرف

---

(١) تفسير السعدي (مجموع المؤلفات ٤١٦/٣)

(٢) تفسير الطبري (٤٨٧/١٢)

التعلق بالمخلوقين، فالموفق: في حال الوجود والغنى قلبه متعلق بحمد الله وشكره والثناء عليه، لا ينسى ولا يبطر النعمة، وفي حال الفقد والفقر صابر راض راج من الله فضله وخيره ورحمته، وهذا من أجل عبادات القلوب المقربة إلى علام الغيوب"[١].

٢- الرجاء من سمة الأنبياء الداعين إلى الله سبحانه وتعالى:

قال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ ﴿٨١﴾ وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴾ الشعراء:٧٩-٨٢، وقال تعالى: ﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱرْجُوا۟ ٱلْيَوْمَ ٱلْـَٔاخِرَ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٣٦﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴾ العنكبوت: ٣٦-٣٧.

٣- ثناء الله على الراجين له وحده:

في قوله تعالى: ﴿ أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْـَٔاخِرَةَ وَيَرْجُوا۟ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾الزمر:٩، قال الشيخ عبد الرحمن السعدي رحمه الله: "هذه مقابلة بين العامل بطاعة اللّه وغيره، وبين العالم والجاهل، وأن هذا من الأمور التي تقرر في العقول تباينها، وعلم علمًا يقينًا تفاوتها، فليس المعرض عن طاعة ربه، المتبع لهواه، كمن هو قانت، أي: مطيع للّه بأفضل العبادات وهي الصلاة، وأفضل الأوقات وهو أوقات الليل، فوصفه بكثرة العمل وأفضله، ثم وصفه بالخوف والرجاء، وذكر أن متعلق الخوف عذاب الآخرة، على ما سلف من الذنوب، وأن متعلق الرجاء رحمة اللّه، فوصفه بالعمل الظاهر والباطن"[٢].

قال الشيخ عبد الرحمن السعدي رحمه الله : "وهذه الأمور الثلاثة : الخوف والرجاء والمحبة التي وصف الله بها هؤلاء المقربين عنده هي الأصل والمادة في كل خير . فمن تمت له تمت له أموره ، وإذا خلا القلب منها ترحلت عنه الخيرات ، وأحاطت به

---

(١) تيسير اللطيف المنان (مجموع المؤلفات ٣/٦٦)

(٢) تفسير السعدي (مجموع المؤلفات ٢/٩٩٦)

الشرور"[١].

٤- النهي عن ضد الرجاء وهو القنوط من رحمة الله:

والقنوط من رحمة الله هو أشد اليأس، وقد نهى الله عباده عنه فقال: ﴿... فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْقَٰنِطِينَ﴾ الحجر:٥٥، قال الشيخ عبد الرحمن السعدي رحمه الله: في معنى الآية " ﴿... فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْقَٰنِطِينَ﴾ الذين يستبعدون وجود الخير، بل لا تزال راجيًا لفضل الله وإحسانه، وبره وامتنانه، فأجابهم إبراهيم بقوله: ﴿... وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ﴾ الحجر:٥٦، الذين لا علم لهم بربهم، وكمال اقتداره، وأما من أنعم الله عليه بالهداية والعلم العظيم، فلا سبيل إلى القنوط إليه؛ لأنه يعرف من كثرة الأسباب والوسائل والطرق لرحمة الله شيئًا كثيرًا"[٢].

ومما جاء من النهي عن القنوط من رحمة الله قوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾الزمر:٥٣، قال الشيخ عبد الرحمن السعدي رحمه الله: "﴿لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ﴾ أي: لا تيأسوا منها، فتلقوا بأيديكم إلى التهلكة، وتقولوا قد كثرت ذنوبنا وتراكمت عيوبنا، فليس لها طريق يزيلها ولا سبيل يصرفها، فتبقون بسبب ذلك مصرين على العصيان، متزودين ما يغضب عليكم الرحمن، ولكن اعرفوا ربكم بأسمائه الدالة على كرمه وجوده، واعلموا أنه يغفر الذنوب جميعا من الشرك، والقتل، والزنا، والربا، والظلم، وغير ذلك من الذنوب الكبار والصغار.﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾، أي: وصفه المغفرة والرحمة، وصفان لازمان ذاتيان، لا تنفك ذاته عنهما، ولم تزل آثارهما سارية في الوجود، مالئة للموجود، تسح يداه من الخيرات آناء الليل والنهار، ويوالي النعم على العباد والفواضل في السر والجهار، والعطاء أحب إليه من المنع، والرحمة

---

(١) تفسير السعدي (مجموع المؤلفات ٢/٦٥٠)

(٢) تفسير السعدي (مجموع المؤلفات ٢/٦١٠)

سبقت الغضب وغلبته، ولكن لمغفرته ورحمته ونيلهما أسباب إن لم يأت بها العبد، فقد أغلق على نفسه باب الرحمة والمغفرة، أعظمها وأجلها، بل لا سبب لها غيره، الإنابة إلى اللّه تعالى بالتوبة النصوح، والدعاء والتضرع والتأله والتعبد، فهلم إلى هذا السبب الأجلّ، والطريق الأعظم"[1].

وقد وضح الشيخ عبد الرحمن السعدي – رحمه الله – السببين المؤديين إلى القنوط من رحمة الله فقال: "وللقنوط من رحمة الله واليأس من روحه سببان محذوران:

أحدهما: أن يسرف العبد على نفسه ويتجرأ على المحارم فيصر عليها ويصمم على الإقامة على المعصية، ويقطع طمعه من رحمة الله؛ لأجل أنه مقيم على الأسباب التي تمنع الرحمة، فلا يزال كذلك حتى يصير له هذا وصفًا وخلقًا لازمًا، وهذا غاية ما يريده الشيطان من العبد، ومتى وصل إلى هذا الحد لم يرج له خير إلا بتوبة نصوح وإقلاع قوي .

الثاني: أن يقوى خوف العبد بما جنت يداه من الجرائم، ويضعف علمه بما لله من واسع الرحمة والمغفرة، ويظن بجهله أن الله لا يغفر له ولا يرحمه ولو تاب وأناب، وتضعف إرادته فييأس من الرحمة، وهذا من المحاذير الضارة الناشئة من ضعف علم العبد بربه، وما له من الحقوق، ومن ضعف النفس وعجزها ومهانتها.فلو عرف هذا ربه ولم يخلد إلى الكسل، لعلم أن أدنى سعي يوصله إلى ربه، وإلى رحمته وجوده وكرمه"[2].

٥- الرجاء صفة المؤمنين المجاهدين وهي الفارق بينهم وبين أعدائهم المجرمين:

قال الله تعالى: ﴿ وَلَا تَهِنُوا۟ فِى ٱبْتِغَآءِ ٱلْقَوْمِ ۖ إِن تَكُونُوا۟ تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ ۖ وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾النساء:١٠٤، قال السعدي رحمه الله: "أي: لا تضعفوا ولا تكسلوا في ابتغاء عدوكم من الكفار، أي: في

---

(١) تفسير السعدي (مجموع المؤلفات ٢/١٠٠٥)

(٢) القول السديد (مجموع المؤلفات ٦/٨٣٥، ٨٣٦)

جهادهم والمرابطة على ذلك، فإن وَهَن القلب مستدع لوَهَن البدن، وذلك يضعف عن مقاومة الأعداء.بل كونوا أقوياء نشيطين في قتالهم"[١].

ثم ذكر ما يقوي قلوب المؤمنين، فذكر شيئين:

الأول: أن ما يصيبكم من الألم والتعب والجراح ونحو ذلك فإنه يصيب أعداءكم، فليس من المروءة الإنسانية والشهامة الإسلامية أن تكونوا أضعف منهم، وأنتم وإياهم قد تساويتم فيما يوجب ذلك، لأن العادة الجارية لا يضعف إلا من توالت عليه الآلام وانتصر عليه الأعداء على الدوام، لا من يدال مرة، ويدال عليه أخرى .

الثاني: أنكم ترجون من الله ما لا يرجون، فترجون الفوز بثوابه والنجاة من عقابه، بل خواص المؤمنين لهم مقاصد عالية وآمال رفيعة من نصر دين الله، وإقامة شرعه، واتساع دائرة الإسلام، وهداية الضالين، وقمع أعداء الدين، فهذه الأمور توجب للمؤمن المصدق زيادة القوة، وتضاعف النشاط والشجاعة التامة؛ لأن من يقاتل ويصبر على نيل عزه الدنيوي إن ناله، ليس كمن يقاتل لنيل السعادة الدنيوية والأخروية، والفوز برضوان الله وجنته، فسبحان من فاوت بين العباد وفرق بينهم بعلمه وحكمته، ولهذا قال: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ كامل العلم كامل الحكمة"[٢].



(١)تفسير السعدي (مجموع المؤلفات ٣/٢١٤)

(٢) المصدر نفسه.

المسألة الثالثة: ثمرات الرجاء

إن لرجاء المؤمنين رحمة الله تعالى والرغبة فيما عنده آثاراً حسنة ، وثماراً يانعة ، وقد أجمل السعدي رحمه الله بعض ثمراته المتنوعة فقال: "متى آمن المؤمن ووثق بوعد الله، وقوي طمعه في فضله، هانت عليه، وهان عليه ترك المحرمات، وكثير من المؤمنين يستحلي طاعة الله لإيمانه بالله وقوة محبته له، وطمعه في فضله وثوابه واعتياده للطاعة"[١] ، ومن هذه الثمرات على وجه التفصيل ما يأتي:

١- قيام العبد بعبادة الرجاء فيه تحقيقٌ للعبادة التي خُلقنا من أجلها ؛ بل إن الرجاء من أعظم ما يرغب العبد ويعينه على تحقيق العبودية الكاملة لله سبحانه وتعالى .

وقد أشار السعدي رحمه الله إلى ذلك حيث قال : "لا يمكن للعبد أن يقوم بالإخلاص لله ولعباد الله ونصيحتهم على وجه الكمال إلا بالإيمان ، فإن المؤمن تحمله عبودية الله ، وطلب التقرب إلى الله ، ورجاء ثوابه ، والخشية من عقابه على القيام بالواجبات التي لله ، والتي لعباد الله "[٢].

٢- الرجاء حادٍ إلى التأسي بالنبي ﷺ:

قال تعالى: ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا ﴾ الأحزاب:٢١، قال السعدي رحمه الله: "فالأسوة الحسنة في الرسول - ﷺ، فإن المتأسِّي به، سالك الطريق الموصل إلى كرامة اللّه، وهو الصراط المستقيم ... وهذه الأسوة الحسنة إنما يسلكها ويوفق لها، من كان يرجو اللّه، واليوم الآخر، فإن ما معه من الإيمان، وخوف اللّه، ورجاء ثوابه، وخوف عقابه، يحثه على

---

(١) الرياض الناضرة (مجموع المؤلفات ٢٢/١٦٠)

(٢) تفسير السعدي (مجموع المؤلفات ٣/٩١٧)

التأسي بالرسول ﷺ"[١].

٣- الرجاء ييسر الحصول على المرجو:

إن الدعاء المقرون بالرجاء وحسن الظن بالله حري بالإجابة، قال الله تعالى: ﴿ وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَـٰحِهَا وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا ۚ إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾ ﴾الأعراف:٥٦، وقد أبان السعدي – رحمه الله – عن هذا المعنى، إذ قال: "ومن براهينِ رُبوبيته ووحدانيته: إجابتُه للدعواتِ في كلِّ الأوقات، فلا يحصي الخلقُ ما يعطيه السائلين، وما يجيبُ به أدعيةَ الداعين، من بَرٍّ وفاجر، ومسلمٍ وكافر.تحصلُ للعباد المطالبُ الكثيرة ولا يعرفون لها شيئًا من الأسباب سوى الدعاء، والطمع في فضل الله والرجاء لرحمته.هذا برهانٌ مشاهدٌ في كلِّ الأوقات، لا ينكره إلا مباهت جاحد"[٢].

وقال ابن القيِّم : "كلما كان العبد حَسن الظَّن بالله ، حَسن الرَّجاء له ، صادق التوكُّل عليه : فإنَّ الله لا يخيِّب أمله فيه البتَّة ؛ فإنَّه سبحانه لا يخيِّب أمل آمل ، ولا يضيِّع عمل عامل ، وعبَّر عن الثقة وحُسْن الظَّن بالسَّعة ؛ فإنَّه لا أشرح للصَّدر ، ولا أوسع له بعد الإيمان من ثقته بالله ، ورجائه له ، وحُسْن ظنِّه به"[٣]

٤- الرجاء يدعو العبد إلى العمل:

في شأن يعقوب – عليه السلام – مع بنيه ما يبين أن عبودية الرجاء لله تعالى تستحث العبد على العمل كما قال الله تعالى على لسان يعقوب عليه السلام: ﴿ يَـٰبَنِىَّ ٱذْهَبُوا۟ فَتَحَسَّسُوا۟ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَا۟يْـَٔسُوا۟ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ لَا يَا۟يْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴾يوسف:٨٧، قال السعدي – رحمه الله – مبينًا هذا المعنى: "فإن

---

(١) تفسير السعدي (مجموع المؤلفات ٢/٩١٧)

(٢) تفسير السعدي (مجموع المؤلفات ٢/٤١٥)

(٣) مدارج السالكين (٤٦٩/١)

الرجاء يوجب للعبد السعي والاجتهاد فيما رجاه، والإياس: يوجب له التثاقل والتباطؤ، وأولى ما رجا العباد، فضل الله وإحسانه ورحمته وروحه، ﴿إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾، فإنهم لكفرهم يستبعدون رحمته، ورحمته بعيدة منهم، فلا تتشبهوا بالكافرين، ودل هذا على أنه بحسب إيمان العبد يكون رجاؤه لرحمة الله وروحه"[1].

٥- الرجاء موصل إلى الجنات:

قال تعالى: ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحْمَـٰنِ وَفْدًا ﴿٨٥﴾ وَنَسُوقُ ٱلْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا ﴿٨٦﴾ لَّا يَمْلِكُونَ ٱلشَّفَـٰعَةَ إِلَّا مَنِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَـٰنِ عَهْدًا﴾ مريم:٨٥-٨٧، قال الشيخ عبد الرحمن السعدي رحمه الله: "يخبر تعالى عن تفاوت الفريقين: المتقين، والمجرمين، وأن المتقين له - باتقاء الشرك والبدع والمعاصي - يحشرهم إلى موقف القيامة مكرمين، مبجلين معظمين، وأن مآلهم الرحمن، وقصدهم المنان، وفودًا إليه، والوافد لا بد أن يكون في قلبه من الرجاء، وحسن الظن بالوافد إليه ما هو معلوم، فالمتقون يفدون إلى الرحمن، راجين منه رحمته وعميم إحسانه، والفوز بعطاياه في دار رضوانه، وذلك بسبب ما قدموه من العمل بتقواه، واتباع مراضيه، وأن الله عهد إليهم بذلك الثواب على ألسنة رسله فتوجهوا إلى ربهم مطمئنين به، واثقين بفضله"[2].

٦- يقرب العبد من ربه:

قال الله تعالى: ﴿مَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ ٱللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَءَاتٍ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٥﴾ وَمَن جَـٰهَدَ فَإِنَّمَا يُجَـٰهِدُ لِنَفْسِهِۦٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ العنكبوت:٥-٦، قال الشيخ عبد الرحمن السعدي رحمه الله: "يعني: يا أيها المحب لربه، المشتاق لقربه ولقائه، المسارع في مرضاته، أبشر بقرب لقاء الحبيب، فإنه آت، وكل آت إنما هو قريب، فتزود للقائه، وسر نحوه، مستصحبًا الرجاء، مؤملًا الوصول إليه، ولكن ما كل من يَدَّعِي

---

(١) تفسير السعدي (مجموع المؤلفات ٢/٥١٢)

(٢) تفسير السعدي (مجموع المؤلفات ٢/٧٠٢)

يُعْطَى بدعواه، ولا كل من تمنى يعطى ما تمناه، فإن اللّه سميع للأصوات، عليم بالنيات، فمن كان صادقًا في ذلك أناله ما يرجو، ومن كان كاذبًا لم تنفعه دعواه، وهو العليم بمن يصلح لحبه ومن لا يصلح"(١).

٧- رجاء المؤمن لربه يهون المشاق ويذلل الصعاب:

كما قال تعالى: ﴿ ...إِن تَكُونُواْ تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ... ﴾ النساء:١٠٤، قال السعدي – رحمه الله – في تفسيرها: "فحثهم على الصبر بتأملهم وطمعهم في الأجر والثواب وإدراك المقامات العالية "(٢).

وإذا ضاقت الأمور بالعبد، وانقطعت به السبل، ولجأ إلى الله تعالى، وطمع في أن يفرج عنه كربته وأن يعطيه سؤله، فإن الله عز وجل سميع قريب مجيب، فتزول عنه الشدائد وتنقلب أحزانه أفراحًا، ويرجع وقد امتلأ سعادة وانشراحًا، كما حصل للثلاثة الذين خلفوا عن غزوة تبوك، كما في قوله تعالى: ﴿ وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴾التوبة:١١٨.

فهؤلاء لما انقطع رجاؤهم من المخلوقين ورجوا ما عند الله رب العالمين أتاهم الفرج المبين وذهب عنهم الحزن والأنين وصارت قصتهم عبرة للمؤمنين.

قال السعدي رحمه الله مشيرًا إلى هذه الثمرة الجليلة: " ﴿ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ ﴾ التي هي أحب إليهم من كل شيء، فضاق عليهم الفضاء الواسع، والمحبوب الذي لم تجر العادة بالضيق منه، وذلك لا يكون إلا من أمر مزعج، بلغ من الشدة والمشقة ما لا يمكن التعبير عنه، وذلك لأنهم قدموا رضا اللّه ورضا رسوله على كل شيء.﴿ وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ﴾، أي: تيقنوا وعرفوا بحالهم، أنه لا ينجي من الشدائد، ويلجأ إليه، إلا اللّه وحده لا شريك له، فانقطع تعلقهم بالمخلوقين،

---

(١) تفسير السعدي (مجموع المؤلفات ٢/٨٧١)

(٢) تفسير السعدي (مجموع المؤلفات ٣/٢١٤)

وتعلقوا باللّه ربهم، وفروا منه إليه، فمكثوا بهذه الشدة نحو خمسين ليلة..."[١].

ثم أشار - رحمه الله - إلى أن من فوائد القصة: "أن علامة الخير وزوال الشدة، إذا تعلق القلب بالله تعالى تعلقًا تامًا، وانقطع عن المخلوقين"[٢].



---

(١) تفسير السعدي (مجموع المؤلفات ٣/٥٠٢)

(٢) تفسير السعدي (مجموع المؤلفات ٣/٥٠٣)

المبحث الخامس: الصدق

وفيه ثلاثة مطالب:

المسألة الأولى: تعـريف الصدق

المسألة الثانية: أنواع أدلة الصدق

المسألة الثالثة: ثمـرات الصدق

المسألة الأولى: تعريف الصدق

أولًا: التعريف اللغوي:

الصدق مصدر: صدق يصدق صدقًا، وهو مأخوذ من مادّة (ص د ق) التي تدلّ على قوّة في الشّيء.

قال ابن فارس: "(صدق) الصاد والدال والقاف أصلٌ يدلُّ على قوّةٍ في الشيء قولًا وغيرَه.من ذلك الصِّدق: خلاف الكَذِبَ، سمِّيَ لقوّته في نفسه، ولأنَّ الكذِبَ لا قُوَّة له، هو باطلٌ.وأصل هذا من قولهم شيءٌ صَدْقٌ، أي: صُلْب، ورُمْح صَدْقٌ.ويقال صَدَقُوهم القِتالَ، وفي خلاف ذلك كَذَبوهم.والصِّدِّيق: الملازم للصِّدْق.والصَّدَاق: صَدَاقَ المرأة، سُمِّيَ بذلك لقوّته وأنَّه حقٌّ يَلزمُ.ويقال صَدَاقٌ وصُدْقة وصَدُقة"[1].

وقال الرّاغب: الصّدق والكذب أصلهما في القول ماضيًا كان أو مستقبلًا، وعدًا كان أو غيره، ولا يكونان في القول إلّا في الخبر دون غيره من أصناف الكلام، ولذلك قال تعالى: ﴿... وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا ﴾ النساء:٨٧" [2].

ثانياً: التعريف الشرعي:

- قال الرّاغب : "الصّدق مطابقة القول الضّمير والمخبر عنه معاً ، ومتى انخرم شرط من ذلك لم يكن صدقاً تامّاً"[3].
- قال الشيخ عبد الرحمن السعدي رحمه الله : "الصدق ، هو : استواء الظاهر والباطن في الاستقامة على الصراط المستقيم ، والكذب بخلاف ذلك"[4].

وقال أيضاً : " والصادقون هم الذين استقامت أعمالهم وأقوالهم ونياتهم على

---

(١) مقاييس اللغة (٣/٣٣٩)

(٢) المفردات (ص٤٧٨)

(٣) نفس المصدر والموضع.

(٤) تفسير السعدي (مجموع المؤلفات ٢/٩٢)

الصراط المستقيم والهدْي القويم"[١].

وفي تفصيل معنى الصدق وما يلزم منه يقول الشيخ السعدي –رحمه الله– : "قوله (وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِى مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِى مُخْرَجَ صِدْقٍ وَٱجْعَل لِّى مِن لَّدُنكَ سُلْطَٰنًا نَّصِيرًا) الإسراء: ٨٠ فهذا توسل إلى الله بربوبيته أن تكون مداخل العبد ومخارجه كلها صدقاً ، وذلك أن تكون صالحة خالصة لوجه الله ، مقرونة بالاستعانة بالله والتوكل عليه ، وذلك يستلزم أن تكون حركات العبد كلها ظاهرها وباطنها طاعة لله وعملاً بما يحبه ويرضاه ، وهذا هو الكمال من جهة العمل ، وأما الكمال من جهة العلم ، فإنه يجعله الله له سلطاناً نصيراً"[٢] .



(١) تفسير السعدي (مجموع المؤلفات ٢/٣٥٩)

(٢) المواهب الربانية (مجموع المؤلفات ٣/٦٣٧)

المسألة الثانية: أنواع أدلة الصدق

١-الصدق صفة الصفوة من عباد الله المؤمنين من النبيين والملائكة والصالحين :

قال الله تعالى : ﴿ وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِبۡرَٰهِيمَۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقٗا نَّبِيًّا ﴾مريم:٤١، وقال تعالى:﴿ وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِدۡرِيسَۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقٗا نَّبِيًّا ﴾ مريم:٥٦، قال الشيخ عبد الرحمن السعدي رحمه الله : "قد قص الله علينا في كتابه قصصاً طيبة من أخبار أنبيائه ، ووصفها بأنها أحسن القصص ، وهذا الوصف من الله العظيم يدل على أنها أصدقها وأبلغها وأنفعها للعباد ؛ فمن أهم منافع هذه القصص أن بها يتم ويكمل الإيمان بالأنبياء - صلى الله عليهم وسلم - فإننا وإن كنا مؤمنين بجميع الأنبياء على وجه العموم والإجمال ، فالإيمان التفصيلي المستفاد من قصصهم ، وما وصفهم الله به من الصدق الكامل والأوصاف الكاملة التي هي أعلى الأوصاف"(١).

وقال الشيخ عبد الرحمن السعدي رحمه الله : "وفي قصصهم - أيضاً - عبرة للمؤمنين يقتدون بهم في جميع مقامات الدين : في مقام التوحيد والقيام بالعبودية ، وفي مقامات الدعوة والصبر والثبات عند جميع النوائب المقلقة ، ومقابلة ذلك بالطمأنينة والسكون والثبات التام ، وفي مقام الصدق والإخلاص لله في جميع الحركات والسكنات واحتساب الأجر والثواب من الله تعالى"(٢).

قال الشيخ عبد الرحمن السعدي رحمه الله : "ومن الإيمان بالرسل - صلوات الله وسلامه عليهم - الإيمان بأنَّ الله اختصهم بوحيه ورسالته ، وجعلهم وسائط بينه وبين عباده في تبليغ رسالاته وأمره وشرعه ، وجمع فيهم من صفات الكمال ما فاقوا فيه الأولين والآخرين ، من الصدق العظيم ، والأمانة التامة ، والقوة العظيمة ، والشجاعة ، والعلم العظيم ، والدعوة والتعليم ، والإرشاد والهداية ، والنصح التام ، والشفقة والرحمة بالعباد ، والحلم والصبر الواسع ، واليقين الكامل . فهم أعلى الخلق علوماً وأخلاقاً ،

---

(١) تيسير اللطيف المنان (مجموع المؤلفات ٣/١٦٨)

(٢) تيسير اللطيف المنان (مجموع المؤلفات ٣/١٦٨)

وأكملهم أعمالاً وآداباً ، وأرفعهم عقولاً ، وأصوبهم آراء ، وأسماهم نفوساً"[١].

٢- الصدق عنوان الإسلام وميزان الإيمان :

قال الشيخ عبد الرحمن السعدي رحمه الله : "والصدق عنوان الإسلام وميزان الإيمان وعلامة الكمال ، وإن لصاحبه المقام الأعلى عند الملك المتعال ، بالصدق يصل إلى منازل الأبرار ، وبه تحصل النجاة من الآفات وعذاب القبر وعذاب النار ، بالصدق يكون العبد معتبراً عند الله وعند الخلق"[٢] بل "إن جميع خصال التقوى ترجع إلى الصدق بالحق والتصديق به"[٣].



(١) فتح الرحيم الملك العلام (مجموع المؤلفات ٣/٧٩٥)

(٢) الفواكه الشهية (مجموع المؤلفات ٢٣/٢٤٤)

(٣) تفسير السعدي (مجموع المؤلفات ٢/١٠٠١)

المسألة الثالثة: ثمرات الصدق

للصدق ثمرات جليلة، وآثار حسنة في الدنيا والآخرة، فهو " عنوان الإسلام وميزان الإيمان وعلامة الكمال، ... لصاحبه المقام الأعلى عند الملك المتعال، بالصدق يصل إلى منازل الأبرار، وبه تحصل النجاة من الآفات وعذاب القبر وعذاب النار، بالصدق يكون العبد معتبرًا عند الله وعند الخلق"[(١)] بل "إن جميع خصال التقوى ترجع إلى الصدق بالحق والتصديق به"[(٢)].

ومن هذه الآثار:

١- حسن المآل لأهله في الدنيا والآخرة:

الصادق مع ربه يثيبه الله تعالى بالعاقبة الحسنة من كل الوجوه، **قَالَ تَعَالَى:** ﴿فَإِذَا عَزَمَ ٱلْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا۟ ٱللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ﴿٢١﴾﴾ **محمد: ٢١**

قال الشيخ عبد الرحمن السعدي -رحمه الله- : "{فَإِذَا عَزَمَ الأَمْرُ} أي: جاءهم الأمر جد، وأمر محتم، ففي هذه الحال لو صدقوا الله بالاستعانة به، وبذل الجهد في امتثاله {لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ} من حالهم الأولى، وذلك من وجوه:

منها: أن العبد ناقص من كل وجه، لا قدرة له إلا إن أعانه الله، فلا يطلب زيادة على ما هو قائم بصدده.

ومنها: أنه إذا تعلقت نفسه بالمستقبل، ضعف عن العمل، بوظيفة وقته، وبوظيفة المستقبل، أما الحال، فلأن الهمة انتقلت عنه إلى غيره، والعمل تبع للهمة، وأما المستقبل، فإنه لا يجيء حتى تفتر الهمة عن نشاطها فلا يعان عليه.

ومنها: أن العبد المؤمل للآمال المستقبلة، مع كسله عن عمل الوقت الحاضر، شبيه بالمتألي الذي يجزم بقدرته، على ما يستقبل من أموره، فأحرى به أن يخذل ولا يقوم بما هم به ووطن نفسه عليه، فالذي ينبغي أن يجمع العبد همه وفكرته ونشاطه على وقته

(١) الفواكه الشهية (مجموع المؤلفات ٢٣/٢٤٤)

(٢) تفسير السعدي (مجموع المؤلفات ٢/١٠٠١)

الحاضر، ويؤدي وظيفته بحسب قدرته، ثم كلما جاء وقت استقبله بنشاط وهمة عالية مجتمعة غير متفرقة، مستعينا بربه في ذلك، فهذا حري بالتوفيق والتسديد في جميع أموره"[1] .

فهو في الدنيا على حال طيبة، وماله وتجارته في نماء وزيادة وبركة، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "البيعان بالخيار ما لم يتفرقا. فإن صدقا وبينا: بورك لهما في بيعهما. وإن كذبا وكتما: محقت بركة بيعهما"[2] .

قال الشيخ عبد الرحمن السعدي -رحمه الله- : "من صدق في معاملته، وبين جميع ما تتوقف عليه المعاملة من الأوصاف المقصودة، ومن العيوب والنقص. فهذه معاملة نافعة في العاجل بامتثال أمر الله ورسوله، والسلامة من الإثم، وبنزول البركة في معاملته. وفي الآجلة بحصول الثواب، والسلامة من العقاب"[3] .

وهو في الآخرة موعود بالجزاء العظيم: جنات تجري من تحتها الأنهار، قال تعالى: ﴿ قَالَ ٱللَّهُ هَٰذَا يَوۡمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدۡقُهُمۡۚ لَهُمۡ جَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۖ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ﴾ المائدة:١١٩، قال الشيخ عبد الرحمن السعدي رحمه الله: "فيوم القيامة يجدون ثمرة ذلك الصدق، إذا أحلهم الله في مقعد صدق عند مليك مقتدر ...، والكاذبون بضدهم، سيجدون ضرر كذبهم وافترائهم، وثمرة أعمالهم الفاسدة"[4].

وقال رحمه الله: "الذين أقوالهم صدق، وأعمالهم، وأحوالهم لا تكون إلا صدقًا خلية من الكسل والفتور، سالمة من المقاصد السيئة، مشتملة على الإخلاص والنية الصالحة، فإن الصدق يهدي إلى البر، وإن البر يهدي إلى الجنة"[5].

---

(١) تفسير السعدي (مجموع المؤلفات ٢/١٠٨٩)

(٢) رواه البخاري في صحيحه، كتاب البيوع، باب إذا بين البيعان ولم يكتما ونصحا (٤٧٥/٧) ح(٢٠٧٩). ورواه مسلم في صحيحه، كتاب البيوع، باب الصدق والبيان في البيع (١٠/٥) ح(٣٨٥٣) .

(٣) بهجة قلوب الأبرار (مجموع المؤلفات ٥/١٠٣)

(٤) تفسير السعدي (مجموع المؤلفات ٢/٣٥٩)

(٥) تفسير السعدي (مجموع المؤلفات ٢/٥٠٣)

٤- السلامة من الإثم وتكفير السيئات:

قال تعالى: ﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى ٱللَّهِ وَكَذَّبَ بِٱلصِّدْقِ إِذْ جَآءَهُۥٓ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٢﴾ وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿٣٣﴾ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٤﴾ لِيُكَفِّرَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ الزمر: ٣٢-٣٥، قال الشيخ عبد الرحمن السعدي رحمه الله: "ولما ذكر الكاذب المكذب وجنايته وعقوبته، ذكر الصادق المصدق وثوابه، فقال: ﴿ وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ ﴾ في قوله وعمله، فدخل في ذلك الأنبياء ومن قام مقامهم، ممن صدق فيما قاله عن خبر اللّه وأحكامه، وفيما فعله من خصال الصدق.﴿ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ ﴾، أي: بالصدق لأنه قد يجيء الإنسان بالصدق، ولكن قد لا يصدق به، بسبب استكباره، أو احتقاره لمن قاله وأتى به، فلا بد في المدح من الصدق والتصديق، فصدقه يدل على علمه وعدله، وتصديقه يدل على تواضعه وعدم استكباره.﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ﴾، أي: الذين وفقوا للجمع بين الأمرين ﴿ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴾، فإن جميع خصال التقوى ترجع إلى الصدق بالحق والتصديق به.﴿ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ﴾ من الثواب، مما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر.فكل ما تعلقت به إرادتهم ومشيئتهم، من أصناف اللذات والمشتهيات، فإنه حاصل لهم، معد مهيأ، ﴿ ذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ الذين يعبدون اللّه كأنهم يرونه، فإن لم يكونوا يرونه فإنه يراهم ﴿ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ إلى عباد اللّه.﴿ لِيُكَفِّرَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾، عمل الإنسان له ثلاث حالات: إما أسوأ، أو أحسن، أو: لا أسوأ، ولا أحسن"[١].

---

(١) تفسير السعدي (مجموع المؤلفات ٢/١٠٠١)

٥- يفضل العمل بحسب الصدق:

قال الشيخ عبد الرحمن السعدي رحمه الله: " التوبة من الأعمال العظيمة، التي قد تكون كاملة بسبب تمام الإخلاص والصدق فيها، وقد تكون ناقصة عند نقصهما، وقد تكون فاسدة إذا كان القصد منها بلوغ غرض من الأغراض الدنيوية"[١].

٦- الثناء على أهله في الدنيا:

فغ، الله عز وجل قد أثنى عليهم، وأمرنا أن نكون معهم في سائر أحوالهم واعتقاداتهم، وأعظم الصادقين النبي صلى الله عليه وسلم، ثم من بعده أصحابه، **قَالَ تَعَالَىٰ:** ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴿١١٩﴾ ﴾ **التوبة: ١١٩**

قال الشيخ عبد الرحمن السعدي -رحمه الله- : "{وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ} في أقوالهم وأفعالهم وأحوالهم، الذين أقوالهم صدق، وأعمالهم، وأحوالهم لا تكون إلا صدقا خلية من الكسل والفتور، سالمة من المقاصد السيئة، مشتملة على الإخلاص والنية الصالحة، فإن الصدق يهدي إلى البر، وإن البر يهدي إلى الجنة"[٢] .

٧- الصدق من أسباب الإعانة والنصر والهداية إلى الحق:

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَٱلَّذِينَ جَـٰهَدُواْ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٦٩﴾ ﴾

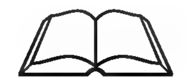
قال الشيخ عبد الرحمن السعدي -رحمه الله- : "{وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا} وهم الذين هاجروا في سبيل الله، وجاهدوا أعداءهم، وبذلوا مجهودهم في اتباع مرضاته، {لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا} أي: الطرق الموصلة إلينا، وذلك لأنهم محسنون.

---

(١) تفسير السعدي (مجموع المؤلفات ٢/١٠٤٨)

(٢) تفسير السعدي (مجموع المؤلفات ٢/٥٠٣)

{وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ} بالعون والنصر والهداية. دل هذا، على أن أحرى الناس بموافقة الصواب أهل الجهاد، وعلى أن من أحسن فيما أمر به أعانه الله ويسر له أسباب الهداية، وعلى أن من جد واجتهد في طلب العلم الشرعي، فإنه يحصل له من الهداية والمعونة على تحصيل مطلوبه أمور إلهية، خارجة عن مدرك اجتهاده، وتيسر له أمر العلم، فإن طلب العلم الشرعي من الجهاد في سبيل الله، بل هو أحد نَوْعَي الجهاد، الذي لا يقوم به إلا خواص الخلق، وهو الجهاد بالقول واللسان، للكفار والمنافقين، والجهاد على تعليم أمور الدين، وعلى رد نزاع المخالفين للحق، ولو كانوا من المسلمين"[١]



---

(١) تفسير السعدي (مجموع المؤلفات ٢/٨٨٤)

المبحث السادس: التوكل

وفيه ثلاثة مطالب:

المسألة الأولى: تعـريف التوكل

المسألة الثانية: أدلة التوكل

المسألة الثالثة: ثمـرات التوكل

المسألة الأولى: تعريف التوكل

أولًا: التعريف اللغوي:

لفظ التوكل مأخوذ من الفعل الثلاثي (وكل) ، يقال : "وكل بالله وتوكل عليه واتكل : استسلم له"[١]، ويقال "توكَّل بالأَمر إِذا ضَمِن القِيامَ به ، ووَكَلْت أَمري إِلى فلان ، أَي : أَلجَأْتُه إِليه واعتمدت فيه عليه . ووَكَّل فلانٌ فلاناً إِذا استَكْفاه أَمرَه ثِقةً بكِفايتِه أَو عَجْزاً عن القِيام بأَمر نفسه ، ووَكَل إِليه الأَمرَ : سلَّمه ، ووَكَلَه إِلى رأْيه وَكْلاً ووُكُولاً : تركه"[٢].

والتوكل مصدر الفعل (توكّل) .

ومعنى التوكل هو "إظهار العجز والاعتماد على غيرك ، والاسم التكلان . واتكلت على فلان في أمر ، إذا اعتمدته . وأصله : اوتكلت ، قلبت الواو ياء لانكسار ما قبلها ، ثم أبدلت منها التاء فأدغمت في تاء الافتعال"[٣].

"والتوكل يقال على وجهين؛ يقال: توكلت لفلان بمعنى: توليت له، ويقال: وكلته فتوكل لي، وتوكلت عليه بمعنى: اعتمدته، قال عز وجل: ﴿ ... فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾ التوبة:٥١، ﴿ ... وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ... ﴾ الطلاق:٣، ﴿ ...رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا... ﴾ الممتحنة:٤، ﴿ ...وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ ... ﴾ المائدة:٢٣، ﴿ ...وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴾ النساء:٨١، ﴿ ...وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ... ﴾ هود:١٢٣، ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَىِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ ... ﴾ الفرقان:٥٨،.وواكل فلانٌ: إذا ضيع أمره متكلًا على غيره، وتواكل القوم: إذا اتكل كل على الآخر"[٤].

---

(١) لسان العرب (٤٩٠٩/٦)

(٢) نفس المصدر والموضع.

(٣) المصدر نفسه (٤٩١٠/٦)

(٤) مفردات القرآن (ص ٨٨٢)

قال الأزهري : "رجل وُكلة إذا كان يكل أمره إلى الناس"[١]، والوكيل : فعيل بمعنى مفعول : الذي يقوم بأمر موكله .

قال الأزهري : "سمي وكيلاً ؛ لأن موكله به قد وكل إليه القيام بأمره ، فهــو موكول إليه الأمر"[٢].

ثانياً : التعريف الشرعي :

عرف التوكل بعدة تعريفات :

- قال ابن رجب : هو صدق اعتماد القلب على الله عز وجل في استجلاب المصالح ودفع المضار من أمور الدنيا والآخرة كلها[٣].
- وقال ابن حجر : هو قطع النظر عن الأسباب بعد تهيئة الأسباب[٤].

وقد عرفه الشيخ عبد الرحمن السعدي – رحمه الله – بقوله : "هو اعتماد القلب على الله في جلب المنافع ودفع المضار ، مع الثقة بالله"[٥].

وقال رحمه الله مبينا المعنى الحقيقي للتوكل : "قد أمر الله في عدة آيات بالقيام بجميع الأسباب النافعة ، والسعي في كل وسيلة فيها صلاح الأحوال . كما أمر في عدة آيات بالتوكل عليه والاعتماد على حوله وقوته . فبالقيام بهذين الأصلين العظيمين تقوم الأمور كلها وتتم وتكمل . والنقص والقصور إنما يجيء من الإخلال بهما أو بأحدهما ، فالتوكل الذي لا يصحبه جد واجتهاد ليس بتوكل ، وإنما هو إخلاد إلى الكسل وتقاعد عن الأمور النافعة ؛ كما أن العمل بالأسباب – من دون اعتماد وتوكل على مسببها واستعانة به – مآله الخسار والزهو والإعجاب بالنفس والخذلان . فالجمع بين التوكل على الله وبين الاجتهاد في فعل الأسباب هو الذي حث عليه الدين ، وهو الذي كان

---

(١) تهذيب اللغة للأزهري (٣٧١/١٠) .

(٢) تهذيب اللغة للأزهري (٣٧١/١٠) .

(٣) جامع العلوم والحكم (٤٩٧/٢)

(٤) فتح الباري (٣٨٤/٣).

(٥) تفسير السعدي (مجموع المؤلفات ٢٢٧/٢)

عليه سيد المرسلين ، وبهما يتحقق الإيمان ، وتقوى دعائم الدين ، وبهما تقوى معنوية المسلمين ، حيث اعتمدوا على رب العباد ، وأدوا ما في مقدورهم من جد واجتهاد "[١].

وقال – رحمه الله – في توضيح أعم لمفهوم التوكل في الشرع : "والمقصود أن المسلمين بالمعنى الحقيقي لا يغترون بقوة هؤلاء الماديين ، وإنما يقومون بالعدل التام في جميع أمورهم ، وبالوفاء الكامل في حق الصديق والعدو . وهذه الأمور كلها مضطرة إلى التوكل على الله ، والاعتماد على حوله وقوته ، وكمال الثقة به في تيسير الأمور وتذليل الصعاب ، فيكون المتوكل يعمل بجد واجتهاد ، مطمئناً بالله ، واثقاً بوعده وكفايته ، لا يرجو غيره ولا يخاف سواه ، لا يملكه اليأس ولا يساوره القنوط ؛ غير هياب ولا وجل ولا متردد ، لأنه يعلم أن الأمور بيد الله ، وأن نواصي الخليقة في قبضته وتحت تدبيره . بهذا التوكل التام والعمل الكامل نال المسلمون الأولون العز والشرف والسلطان وصلاح الأحوال . وهذا الذي يجب أن يكون عليه المسلمون الآن ، وأن يكون العمل والتوكل نصب أعينهم ، فلا يميلوا إلى التواكل والتخاذل والإخلاد إلى البطالة والكسل ، فإن هذا ينافي التوكل الحقيقي غاية المنافاة ؛ كحال كثير من الناس في هذه الأوقات : يشاهدون عدوهم يحاربهم ، ويسلبهم حقوقهم ، وهم ساكتون لا يدفعونه بوسيلة من الوسائل ، ولا يبدون ما يقدرون عليه من مقاومته التي لا يعذرون عن القيام بها ، فتكون النتيجة من هذا السكوت والتقاعد الضار ضياع استقلالهم ، وذهاب ملكهم وأموالهم ، والسيطرة على حقوقهم وحلول المصائب المتنوعة بهم من كل جانب ، ويقولون : نحن متوكلون .

كلا والله ، بل هم كسالى متواكلون ، قد استولى عليهم الخور ، وأعقبه الذل واستعباد الأجانب لهم"[٢].

وقال الشيخ رحمه الله :" أمر الله تعالى بالتوكل عليه ، فقال : ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْعَزِيزِ

(١) وجوب التعاون بين المسلمين (مجموع المؤلفات ١٢٥/٢٦)

(٢) وجوب التعاون بين المسلمين (مجموع المؤلفات ١٢٥/٢٦)

ﭐلرَّحِيمِ ﴾الشعراء:٢١٧، والتوكل : هو اعتماد القلب على الله تعالى في جلب المنافع ، ودفع المضار ، مع ثقته به ، وحسن ظنه بحصول مطلوبه ، فإنه عزيز رحيم ، بعزته يقدر على إيصال الخير ، ودفع الشر عن عبده ، وبرحمته به ، يفعل ذلك"(١).

وقال الشيخ عبد الرحمن السعدي – رحمه الله – في الإشارة إلى أعلى مراتب التوكل : "وإذا توكل العبد على ربه حق التوكل ، بأن اعتمد بقلبه على ربه اعتماداً قوياً كاملاً في تحصيل مصالحه ودفع مضاره ، وقويت ثقته وحسن ظنه بربه ، حصلت له الكفاية التامة..."(٢).

وقد أفاض الشيخ رحمه الله في عَرض صورة التوكل في جواب سؤال: "كيف صورة التوكل وتوضيحه؛ فإني لا أكاد أتصور معناه فضلاً عن كوني متصفاً به ؟

فأجاب: إذا علمت أن الله بكل شيء عليم وعلى كل شيء قدير، وأنه متفرد بالعطاء والمنع وجلب المنافع ودفع المضار، وهو مع ذلك كامل الحكمة واسع الرحمة أرحم بك من نفسك ومن كل أحد.

ومع ذلك أيضا؛ فقد أمرك بالتوكل عليه ، ووعدك بالكفاية ؛ فمتى تحققت ذلك تحقيقاً قلبيًّا يقينيًّا ؛ فقم بجد واجتهاد في امتثال الأمر واجتناب النهي بحسب مقدورك ، وأنت في ذلك معتمد غاية الاعتماد بقلبك على الله في حصول ما سعيت فيه وتكمليه ، وواثق به وطامع في فضله في تيسيره لك ما سعيت فيه ، ومتبرئ من حولك وقوتك ، عالم أنه لا حول ولا قوة إلا بالله ، وأنك وجميع الخلق أضعف وأعجز من ان تقوموا بأمر من الأمور بغير معونة الله وتيسيره ؛ فمتى دمت على هذا العمل والاعتماد والتفويض وحسن الظن ؛ فقد حققت مقام التوكل .

---

(١) تفسير السعدي (مجموع المؤلفات ٢/٨٣٥)

(٢) فتح الرحيم الملك العلام (مجموع المؤلفات ٣/٧٨٣)

وكذلك فاصنع في أمور معاشك ، اعمل كل ما يناسبك من الأسباب النافعة متوكلاً على الله ، راجياً لفضله ، مطمئنًّا لكفايته ، معتمدا غاية الاعتماد ، راضيا بما قدره ودبره لك من مُسرٍّ ومحزن ، والتوكل على هذا الوجه نصف الإيمان[1] ، والله تعالى قد ضمن الكفاية للمتوكلين ، ومما يقوي التوكل الدعاء بقلب حاضر ورجاء قوي "[2]

۞۞۞

---

[1] قال ابن القيم رحمه الله: (التَّوَكُّلُ نِصْفُ الدِّينِ. وَالنِّصْفُ الثَّانِي الْإِنَابَةُ، فَإِنَّ الدِّينَ اسْتِعَانَةٌ وَعِبَادَةٌ. فَالتَّوَكُّلُ هُوَ الِاسْتِعَانَةُ، وَالْإِنَابَةُ هِيَ الْعِبَادَةُ). مدارج السالكين (١١٣/٢)

[2] مجموع الفوائد (مجموع المؤلفات ٣٩/٢١)

المسألة الثانية: أنواع أدلة التوكل

التوكل على الله تعالى من أعظم أصول الدين وأعمال القلوب، وهو من محاسن هذا الدين، قال الشيخ عبد الرحمن السعدي -رحمه الله- في معرض رده على أحد الملحدين المنكرين لأصل التوكل في الإسلام: " يزعم هذا الكاتب أن إيمان المتدينين يمنعهم من مباشرة

الأسباب، وإن باشروها فعلى وجه ضعيف؛ هذا حاصل المعنى الذي

طوّل فيه الكلام، وردده واستنتج منه، أنه يتحتم على الناس رفض

الإيمان بالله وبأقداره، حتى يخرجوا من غلهم وحبسهم، وينطلق سراحهم، لقد صدق هذا الكاتب في أن الإيمان حبس لهم، ولكن عن التهتك في الأخلاق الرذيلة، وعن الانغماس في الفجور والفواحش الظاهرة والباطنة، وقيد لهم عن التجري على الظلم للخلق، في دمائهم وأموالهم وأعراضهم، وجميع حقوقهم، وأن أهله لا يمكن أن يكونوا إباحيين ما داموا متمسكين به؛ لكن بتركه والإعراض عنه، تنحل عنهم القيود الشرعية فيصيروا كالبهائم، وتكون أمورهم فوضى.

وهذا ما أراده هذا الكاتب وهو يعلم حق العلم، أن هذه الثمرات الجليلة من أعظم محاسن الدين وأجلّ ثمراته، ولكنه يسعى أحث السعي لقطعها {{وَيَأْبَى اللَّهُ إِلاَّ أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ}} [التوبة: ٣٢] . فهذا الرجل لم يسلك مسلك الحذاق من الملحدين؛ الذين يموهون بأشياء تروّج على كثير من الناس، ولكنه جاء إلى أظهر الأشياء وأجلاها وأوضحها، فأنكره غاية الإنكار، وكابر فيه أعظم مكابرة. زعم أن الإيمان بالله يضعف القوى ويوهن العزائم؛ والحال أنه لا تقوم القوى كلها، ولا تنهض إلا بالإيمان بالله، فإنه لا حول ولا قوة إلا بالله، فكل حول وقوة مستمدة من حول الله وقوته، والعبد إذا وكل إلى نفسه، فقد وكل إلى ضعف وعجز ونقص من جميع الوجوه، فالمؤمنون بالله حقاً هم أقوى الخلق قلوباً، وأبلغهم شجاعة، وأصبرهم على المكاره،

وأثبتهم في المواطن الحرجة؛ لإيمانهم الكامل بالله ورجائهم لثوابه، وخوفهم من عقابه. فالإيمان هو مادة كل خير، وكل صلاح وإصلاح، وبه تندفع شرور الدنيا والآخرة"[١] .

وقد جاءت الأدلة الكثيرة مبينة منزلة هذه العبادة، ويتبين هذا من خلال المسائل الآتية:

١- الأمر بالتوكل وأنه من لوازم الإيمان :

قال الشيخ عبد الرحمن السعدي رحمه الله : "قد أمر الله في عدة آيات بالقيام بجميع الأسباب النافعة ، والسعي في كل وسيلة فيها صلاح الأحوال . كما أمر في عدة آيات بالتوكل عليه والاعتماد على حوله وقوته . فبالقيام بهذين الأصلين العظيمين تقوم الأمور كلها وتتم وتكمل"[٢].

قال تعالى : ﴿ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۖ إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ ﴾النمل:٧٩، قال الشيخ عبد الرحمن السعدي رحمه الله :"أي : اعتمد على ربك في جلب المصالح ودفع المضار ، وفي تبليغ الرسالة وإقامة الدين وجهاد الأعداء"[٣].

قال تعالى :﴿... وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾إبراهيم:١١، قال الشيخ عبد الرحمن السعدي رحمه الله :"﴿وَعَلَى ٱللَّهِ ﴾ ، لا على غيره ، ﴿فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾فيعتمدون عليه في جلب مصالحهم ودفع مضارهم لعلمهم بتمام كفايته وكمال قدرته وعميم إحسانه ، ويثقون به في تيسير ذلك ، وبحسب ما معهم من الإيمان يكون توكلهم .فعلم بهذا وجوب التوكل ، وأنه من لوازم الإيمان ، ومن العبادات الكبار التي يحبها الله ويرضاها ، لتوقف سائر العبادات عليه"[٤].

٢- التوكل من أعظم أوصاف عباد الله المقربين من الأنبياء والصالحين :

قال الشيخ عبد الرحمن السعدي رحمه الله : "واعلم أن الرسل – عليهم الصلاة والسلام – توكلهم في أعلى المطالب وأشرف المراتب ، وهو التوكل على الله في إقامة

---

(١) تنزيه الدين (مجموع المؤلفات ١٨٨/٦-١٨٩)

(٢) وجوب التعاون بين المسلمين (مجموع المؤلفات ١٢٥/٢٦)

(٣) تفسير السعدي (مجموع المؤلفات ٨٤٩/٢)

(٤) تفسير السعدي (مجموع المؤلفات ٥٩٦/٢)

دينه ونصره وهداية عبيده وإزالة الضلال عنهم ، وهذا أكمل ما يكون من التوكل"[١].

ومن أمثلة ما دلت عليه النصوص من توكل الأنبياء عليهم السلام :

- قول الله تعالى : ﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِى وَتَذْكِيرِى بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوٓا۟ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ ٱقْضُوٓا۟ إِلَىَّ وَلَا تُنظِرُونِ ﴾يونس:٧١، قال الشيخ عبد الرحمن السعدي رحمه الله :"﴿ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْتُ ﴾ ، أي : اعتمدت على الله ، في دفع كل شر يراد بي ، وبما أدعو إليه ، فهذا جندي ، وعدتي . وأنتم ، فأتوا بما قدرتم عليه ، من أنواع العَدَدَ والعُدد"[٢].
- وقال الشيخ عبد الرحمن السعدي – رحمه الله – في شأن توكل يعقوب عليه السلام : "﴿ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ﴾ ، أي : اعتمدت على الله ، لا على ما وصيتكم به من السبب ، ﴿ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴾ ، فإنه بالتوكل يحصل كل مطلوب ، ويندفع كل مرهوب"[٣].
- وقال الشيخ عبد الرحمن السعدي – رحمه الله – في توكل موسى عليه السلام : "﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ ﴾ موصياً لقومه بالصبر ، ومذكراً لهم ما يستعينون به على ذلك فقال : ﴿ يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ ﴾ فقوموا بوظيفة الإيمان . ﴿ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ﴾ ، أي : اعتمدوا عليه، والجؤوا إليه واستنصروه"[٤].
- وقال الشيخ عبد الرحمن السعدي – رحمه الله – في توكل هود عليه السلام :

---

(١) تفسير السعدي (مجموع المؤلفات ٢/٥٩٦)

(٢) تفسير السعدي (مجموع المؤلفات ٢/٥٢٢)

(٣) تفسير السعدي (مجموع المؤلفات ٢/٥٦٨)

(٤) تفسير السعدي (مجموع المؤلفات ٢/٥٢٥)

"﴿ إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ ﴾ ، أي : اعتمدت في أمري كله على الله ، ﴿ رَبِّي وَرَبِّكُم ﴾ ، أي : هو خالق الجميع ومدبرنا وإياكم ، وهو الذي ربانا . ﴿ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذُۢ بِنَاصِيَتِهَآ ﴾ فلا تتحرك ولا تسكن إلا بإذنه ، فلو اجتمعتم جميعاً على الإيقاع بي – والله لم يسلطكم علي – لم تقدروا على ذلك ، فإن سلطكم فلحكمة أرادها"[١].

- وقال الشيخ عبد الرحمن السعدي – رحمه الله – في شأن توكل إبراهيم – عليه السلام – في قوله تعالى : ﴿ رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ ﴾إبراهيم:٣٧: "وذلك أنه أتى بـ (هاجر) أم إسماعيل وبابنها إسماعيل – عليه الصلاة والسلام – وهو في الرضاع ، من الشام حتى وضعهما في مكة ، وهي إذ ذاك ليس فيها سكن ، ولا داع ولا مجيب ، فلما وضعهما دعا ربه بهذا الدعاء ، فقال متضرعاً متوكلاً على ربه : ﴿ رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي ﴾ ، أي : لا كل ذريتي ؛ لأن إسحاق في الشام وباقي بنيه كذلك ، وإنما أسكن في مكة إسماعيل وذريته ، وقوله : ﴿ بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ ﴾ ، أي : لأن أرض مكة لا تصلح للزراعة"[٢].

قال الشيخ عبد الرحمن السعدي رحمه الله :"ولكم أسوة حسنة في إبراهيم ومن معه ، حين دعوا الله وتوكلوا عليه وأنابوا إليه ، واعترفوا بالعجز والتقصير ، فقالوا :﴿ عليك توكلنا ﴾ ، أي : اعتمدنا عليك في جلب ما ينفعنا ودفع ما يضرنا، ووثقنا بك يا ربنا في ذلك"[٣] .

قال الشيخ عبد الرحمن السعدي رحمه الله : "﴿ وَإِلَيۡهِ يُرۡجَعُ ٱلۡأَمۡرُ كُلُّهُۥ ﴾ من الأعمال والعمال ، فيميز الخبيث من الطيب ﴿ فَٱعۡبُدۡهُ وَتَوَكَّلۡ عَلَيۡهِ ﴾ ، أي

---

(١) تفسير السعدي (مجموع المؤلفات ٢/٥٤١)

(٢) تفسير السعدي (مجموع المؤلفات ٢/٦٠٢،٦٠١)

(٣) تفسير السعدي (مجموع المؤلفات ٢/١١٧٢ ، ١١٧٣)

: قم بعبادته ، وهي جميع ما أمر الله به مما تقدر عليه ، وتوكل على الله في ذلك"[١].

٣- الاهتداء للحق يوجب التوكل على الله تعالى :

قال تعالى : ﴿ قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَمَا كَانَ لَنَآ أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَٰنٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾ وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنَا سُبُلَنَا ۚ وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيْتُمُونَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴾ إبراهيم:١١-١٢،قال الشيخ عبد الرحمن السعدي - رحمه الله - في تفسير قوله تعالى :﴿ وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنَا سُبُلَنَا ﴾، "أي : أي شيء يمنعنا من التوكل على الله والحال أننا على الحق والهدى ، ومن كان على الحق والهدى فإن هداه يوجب له تمام التوكل، وكذلك ما يعلم من أن الله متكفل بمعونة المهتدي وكفايته ، يدعو إلى ذلك ، بخلاف من لم يكن على الحق والهدى ، فإنه ليس ضامناً على الله ، فإن حاله مناقضة لحال المتوكل . وفي هذا كالإشارة من الرسل - عليهم الصلاة والسلام - لقومهم بآية عظيمة ، وهو أن قومهم - في الغالب - لهم القهر والغلبة عليهم ، فتحدتهم رسلهم بأنهم متوكلون على الله في دفع كيدكم ومكركم ، وجازمون بكفايته إياهم ، وقد كفاهم الله شرهم مع حرصهم على إتلافهم وإطفاء ما معهم من الحق"[٢].

٤- وجوب إفراد الله تعالى بالتوكل والمؤمنون أولى بالتوكل على الله من غيرهم :

قال تعالى : ﴿ إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ ۖ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا ٱلَّذِى يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعْدِهِۦ ۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾آل عمران:١٦٠، قال الشيخ عبد الرحمن السعدي رحمه الله :"﴿ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾ بتقديم المعمول يؤذن بالحصر ، أي : على الله توكلوا لا على غيره ، لأنه قد علم أنه هو الناصر وحده ،

---

(١) تفسير السعدي (مجموع المؤلفات ٢/٥٥٤)

(٢) تفسير السعدي (مجموع المؤلفات ٢/٥٩٦)

فالاعتماد عليه توحيد محصل للمقصود ، والاعتماد على غيره شرك غير نافع لصاحبه ، بل ضار . وفي هذه الآية الأمر بالتوكل على الله وحده ، وأنه بحسب إيمان العبد يكون توكله"[(١)].

(١) تفسير السعدي (مجموع المؤلفات ٢/٢٣٨)

المسألة الثالثة : ثمرات التوكل

للتوكل على الله تعالى ثمرات جليلة ، وثمار يانعة ، فقد جاء في النصوص الإشارة إلى كونه سببا لتحقيق الإيمان ، وموجبا لكفاية الله تعالى عبده ، وهو من أعظم أعمال القلوب، ويمكن إجمال الثمرات التي أشار إليها السعدي في العناصر الآتية :

١- سبب لتحقيق الإيمان :

قال تعالى : ﴿ ...وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ ئجئحئم ﴾المائدة:٢٣، وقال تعالى : ﴿ قُلْ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ءَامَنَّا بِهِۦ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٩﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِينٍ ﴾الملك:٢٩-٣٠، قال الشيخ عبد الرحمن السعدي رحمه الله : "﴿ ءَامَنَّا بِهِۦ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا ﴾ والإيمان يشمل التصديق الباطن ، والأعمال الباطنة والظاهرة ، ولما كانت الأعمال ، وجودها وكمالها ، متوقفة على التوكل ، خص الله التوكل من بين سائر الأعمال ، وإلا فهو داخل في الإيمان ، ومن جملة لوازمه كما قال تعالى : ﴿ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ ئجئحئم ﴾ ، فإذا كانت هذه حال الرسول وحال من اتبعه ، وهي الحال التي تتعين للفلاح ، وتتوقف عليها السعادة ، وحالة أعدائه بضدها ، فلا إيمان [لهم] ولا توكل ، علم بذلك من هو على هدى ، ومن هو في ضلال مبين"[١].

٢- طمأنينة النفس وارتياح القلب :

قال الشيخ عبد الرحمن السعدي رحمه الله : "وقيل لبعضهم : بم يُعرَف الله ؟ فقال : من نظر في موادِّ الرزق ، وتأمل حالة من لهم موجوداتُ كثيرة ، وعقارات وغلاَّت كثيرة ، ولكنهم قد اتكلوا عليها ، فضاقت عليهم الأمور ، وركبتهم الديون ، وجاءت الأمور على خلاف ما يأملون . ثم نظر إلى أناسٍ كثيرين ؛ ليس لهم عقارات ولا غلاَّت ولا موجودات ، وإنما يسرت لهم أسباب بسيطة ، لا تخطر على بال أحدٍ أن تكفيهم ، ولكن الله بارك فيها ، وبسط لهم الرزقَ ، فكانوا أبسط قلوباً ، وأريح نفوساً ، وأرغد عيشاً من الأولين . والسبب في ذلك أنهم قاموا بالأسباب ؛ متوكلين على مسبِّبها ، فقلوبُهم على الدوام متطلعةٌ إلى ما عند الله ، راجيةٌ منه تسهيلَ الرزق ، والأولون

---

(١) تفسير السعدي (مجموع المؤلفات ٢/١٢٠١)

بالعكس : قلوبُهم متعلقةٌ بأملاكِهم وموجوداتِهم ، فبذلك يُعرَف اللهُ ، ويعرف أن الأمرَ كلَّه للهِ"[١].

٣- كفاية الله المتوكل جميع شئونه :

قوله تعالى : ﴿ ...وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ... ﴾الطلاق:٣، قال الشيخ عبد الرحمن السعدي رحمه الله : "فكفايته : عامة وخاصة . أما العامة فقد كفى الله تعالى جميع المخلوقات ، وقام بإيجادها وإرزاقها وإمدادها وإعدادها لكلٍّ ما خلقت له ، وهيأ للعباد من جميع الأسباب ما يغنيهم ويقنيهم ويطعمهم ويسقيهم . وأما كفايته وحسبه الخاص فهو كفايته للمتوكِّلين ، وقيامه بإصلاح أحوال عباده المتقين . قال تعالى : ﴿ ...وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ... ﴾الطلاق:٣، أي كافيه كلَّ أموره الدينية والدنيوية . قال تعالى : ﴿ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ... ﴾الزمر:٣٦، أي : من قام بعبوديته الظاهرة والباطنة كفاه الله ما أهمَّه ، وقام تعالى بمصالحه ، ويسر له أموره ... وإذا توكل العبد على ربه حق التوكل ، بأن اعتمد بقلبه على ربه اعتماداً قوياً كاملاً في تحصيل مصالحه ودفع مضاره ، وقويت ثقته وحسن ظنه بربه حصلت له الكفاية التامة ، وأتم الله له أحواله وسدَّده في أقواله وأفعاله ، وكفاه همَّه وجلا غمه"[٢].

قال الشيخ عبد الرحمن السعدي رحمه الله : ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ﴾ ، أي : في أمر دينه ودنياه ، بأن يعتمد على الله في جلب ما ينفعه ودفع ما يضره ، ويثق به في تسهيل ذلك ﴿فَهُوَحَسْبُهُۥٓ ﴾ ، أي : كافيه الأمر الذي توكل عليه به ، وإذا كان الأمر في كفالة الغني القوي العزيز الرحيم ، فهو أقرب إلى العبد من كل شيء"[٣].

قال ابن القيم :"أي : كافيه ، ومن كان الله كافيه وواقيه فلا مطمع فيه لعدوه ولا يضره إلا بأذى لا بد منه : كالحر والبرد والجوع والعطش ، وأما أن يضره بما يبلغ به

---

(١) البراهين العقلية (مجموع المؤلفات ٦/٥٨٥)

(٢) فتح الرحيم الملك العلام (مجموع المؤلفات ٣/٧٨٣)

(٣) تفسير السعدي (مجموع المؤلفات ٢/١١٩١)

مراده فلا يكون أبداً . وهذا أعظم جزاء أن جعل الله تعالى نفسه جزاء المتوكل عليه وكفايته ، فلو توكل العبد على الله حق توكله وكادته السماوات والأرض ومن فيهن لجعل الله له مخرجاً وكفاه رزقه ونصره"(١).

٤- من أقوى الأسباب في جلب المنافع ودفع المضار :

قال ابن عباس : (حسبنا الله ونعم الوكيل) قالها إبراهيم – صلى الله عليه وسلم – حين ألقي في النار ، وقالها محمد – صلى الله عليه وسلم – حين قال له الناس ﴿ **إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم زادهم إيمانا وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل** ﴾"آل عمران:١٧٣. قال ابن القيم رحمه الله : "هو حسب من توكل عليه وكافي من لجأ إليه ، وهو الذي يؤمن الخائف ويجير المستجير ، فمن تولاه واستنصر به وتوكل عليه وانقطع بكليته إليه تولاه وحفظه وحرسه وصانه ، ومن خافه واتقاه أمنّه مما يخاف ويحذر ، وجلب إليه ما يحتاج إليه من المنافع"(٢).

٥- يورث محبة الله تعالى للعبد :

لقوله تعالى : ﴿ ...إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴾آل عمران:١٥٩

٦- يورث قوة القلب وشجاعته وثباته :

قال تعالى : ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴾الشعراء:٢١٧، ﴿ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾الأنفال:٤٩، ﴿ إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ ... ﴾ آل عمران:١٦٠، ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴾الأحزاب:٣. قال الحسن : "العز والغنى يجولان في طلب التوكل فإذا ظفرا أوطنا"(٣).

قال الشيخ عبد الرحمن السعدي رحمه الله : "ومتى اعتمد القلب على الله ، وتوكل عليه ، ولم يستسلم للأوهام ولا ملكته الخيالات السيئة ، ووثق بالله وطمع في فضله ، اندفعت عنه بذلك الهموم والغموم ، وزالت عنه كثير من الأسقام البدنية

---

(١) بدائع الفوائد (٧٦٦/٢)

(٢) المصدر نفسه (٧٦٣/٢).

(٣) حلية الأولياء (٣٠٥/٦)

والقلبية ، وحصل للقلب من القوة والانشراح والسرور ما لا يمكن التعبير عنه ، فكم ملئت المستشفيات من مرضى الأوهام والخيالات الفاسدة ، وكم أثَّرت هذه الأمور على قلوب كثيرين من الأقوياء ، فضلاً عن الضعفاء ، وكم أدت إلى الحمق والجنون ، والمعافى من عافاه الله ووفقه لجهاد نفسه لتحصيل الأسباب النافعة المقوية للقلب ، الدافعة لقلقه ، قال تعالى : ﴿ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ﴾ ، أي كافيه جميع ما يهمه من أمر دينه ودنياه . فالمتوكل على الله قوي القلب لا تؤثر فيه الأوهام ، ولا تزعجه الحوادث لعلمه أن ذلك من ضعف النفس ، ومن الخور والخوف الذي لا حقيقة له ، ويعلم مع ذلك أن الله قد تكفل لمن توكل عليه بالكفاية التامة ، فيثق بالله ويطمئن لوعده ، فيزول همه وقلقه ، ويتبدل عسره يسراً ، وترحه فرحاً ، وخوفه أمناً ، فنسأله تعالى العافية وأن يتفضل علينا بقوة القلب وثباته ، وبالتوكل الكامل الذي تكفل الله لأهله بكل خير ، ودفع كل مكروه وضير"[١].

٧- يورث الصبر والتحمل:

اقترن الصبر بالتوكل على الله في مواضع من القرآن منها:

- ﴿ ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ النحل:٤٢ .
- ﴿ وَلَنَصۡبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيۡتُمُونَاۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُتَوَكِّلُونَ ﴾ إبراهيم:١٢ .

قال الشيخ عبد الرحمن السعدي رحمه الله: "ومن دواعي الصبر الثقة بالله وبوعده؛ فإن الله وعد الصابرين العون والنصر، وأنه معهم في كل أحوالهم، ومن كان الله معه فلو اجتمع عليه من بأقطارها لم يخف إلا الله، ومما يعين على الصبر والثبات (الأمر الثاني) وهو التوكل على الله، وقوة الاعتماد عليه، والتضرع إليه في طلب النصر، والإكثار من ذكره، كما قال تعالى هنا حيث رتب على هذا الفلاح: ﴿ ...وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴾ الأنفال:٤٥، وقال تعالى: ﴿ ...كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتۡ

(١) الوسائل المفيدة (٢٦/٥٣ ، ٥٤)

فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴾ البقرة:٢٤٩، وقال تعالى: ﴿ وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَـٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا۟ لِمَآ أَصَابَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا۟ وَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴿١٤٦﴾ وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِىٓ أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿١٤٧﴾ فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ ٱلْـَٔاخِرَةِ... ﴾"[(١)] آل عمران:١٤٦-١٤٨.

٨- يورث النصر والتمكين:

ولهذا قرن الله تعالى بينه وبين التوكل في قوله: ﴿ إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ ... وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٦٠﴾ ﴾آل عمران:١٦٠.

٩- يقوي العزيمة والثبات على الأمر:

قال تعالى: ﴿ ...فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ... ﴾آل عمران:١٥٩، وقال تعالى: ﴿ قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا... ﴾التوبة:٥١، قال الشيخ عبد الرحمن السعدي رحمه الله: "﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُوا۟ وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٤٥﴾ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَـٰزَعُوا۟ فَتَفْشَلُوا۟ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْۖ وَٱصْبِرُوٓا۟ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴿٤٦﴾ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِم بَطَرًا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴾الأنفال:٤٥-٤٧.

هذه الآيات تضمنت الأمر بجهاد الأعداء، والإرشاد إلى الأسباب التي ينبغي للجيوش والمجاهدين الأخذ بها، فمن أعظمها وأهمها أمران: الصبر، وهو الثبات التام وإبداء كل مجهود في تحصيل ذلك، والثاني: التوكل على الله، والتضرع إليه، والإكثار من ذكره، فمتى اجتمع الأمران على وجه الكمال والتكميل فقد أتى المجاهدون بالأسباب الوحيدة للنصر والفلاح، فليبشروا بنصر الله وليثقوا بوعده"[(٢)].

---

(١) تيسير اللطيف المنان (مجموع المؤلفات ١١٣/٣)

(٢) تيسير اللطيف المنان (مجموع المؤلفات ١١٢/٣)

قال تعالى: ﴿ قَالَ رَجُلَانِ مِنَ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمَا ٱدْخُلُواْ عَلَيْهِمُ ٱلْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَٰلِبُونَ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ المائدة:٢٣، قال الشيخ عبد الرحمن السعدي رحمه الله: "ثم أمَرَاهم بعدة هي أقوى العدد، فقالا: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾، فإن في التوكل على الله – وخصوصًا في هذا الموطن – تيسيرًا للأمر، ونصرًا على الأعداء"[١].

قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَن يَبْسُطُوٓاْ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ ۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾ المائدة:١١، قال الشيخ عبد الرحمن السعدي رحمه الله: "ثم أمرهم بما يستعينون به على الانتصار على عدوهم، وعلى جميع أمورهم، فقال: ﴿ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾، أي: يعتمدوا عليه في جلب مصالحهم الدينية والدنيوية، وتبرؤوا من حولهم وقوتهم، ويثقوا بالله تعالى في حصول ما يحبون.وعلى حسب إيمان العبد يكون توكله، وهو من واجبات القلب المتفق عليها"[٢].

١٠- يقي من تسلط الشيطان:

قال تعالى: ﴿ إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ النحل:٩٩، قال الشيخ عبد الرحمن السعدي رحمه الله: "فالطريق إلى السلامة من شره الالتجاء إلى الله، والاستعاذة به من شره، فيقول القارئ: (أعوذ بالله من الشيطان الرجيم) متدبرًا لمعناها، معتمدًا بقلبه على الله في صرفه عنه، مجتهدًا في دفع وساوسه وأفكاره الرديئة، مجتهدًا على السبب الأقوى في دفعه، وهو التحلي بحلية الإيمان والتوكل.فإن الشيطان ﴿لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ﴾، أي: تسلط ﴿ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ ﴾ وحده لا شريك له ﴿يَتَوَكَّلُونَ ﴾، فيدفع الله عن المؤمنين المتوكلين عليه

---

(١) تفسير السعدي (مجموع المؤلفات ٢/٣٣١)

(٢) تفسير السعدي (مجموع المؤلفات ٢/٣٢٦)

شر الشيطان، ولا يبقي له عليهم سبيلًا"[١].

١١ – يورث الرزق:

قال تعالى: ﴿...إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدۡ جَمَعُواْ لَكُمۡ ...﴾آل عمران:١٧٣، وعن عمر رضي الله عنه عن النبي – ﷺ – قال:"لو أنكم توكلون على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير، تغدو خماصًا وتعود بطانًا"[٢].

قال الشيخ عبد الرحمن السعدي رحمه الله: "وقيل لبعضهم: بم يُعرَف الله ؟ فقال: من نظر في موادِّ الرزق، وتأمل حالة من لهم موجوداتُ كثيرة، وعقارات وغلاَّت كثيرة، ولكنهم قد اتكلوا عليها، فضاقت عليهم الأمور، وركبتهم الديون، وجاءت الأمور على خلاف ما يأملون.ثم نظر إلى أناسٍ كثيرين؛ ليس لهم عقارات ولا غلاَّت ولا موجودات، وإنما يسرت لهم أسباب بسيطة، لا تخطر على بال أحدٍ أن تكفيهم، ولكن الله بارك فيها، وبسط لهم الرزقَ، فكانوا أبسط قلوبًا، وأريح نفوسًا، وأرغد عيشًا من الأولين.والسبب في ذلك أنهم قاموا بالأسباب؛ متوكلين على مسبِّبها، فقلوبُهم على الدوام متطلعةٌ إلى ما عند الله، راجيةٌ منه تسهيلَ الرزق، والأولون بالعكس: قلوبُهم متعلقةٌ بأملاكِهم وموجوداتِهم، فبذلك يُعرَف اللهُ، ويعرف أن الأمرَ كلَّه للهِ"[٣].

١٢– سبب في دخول الجنة بلا حساب ولا عذاب:

لحديث ابن عباس[٤] في السبعين ألفًا الذين يدخلون الجنة بغير حساب.

وفي تفسير قوله تعالى: ﴿... وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ ﴾الشورى:٣٦، قال الشيخ عبد الرحمن السعدي رحمه الله: "﴿ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ ﴾ من الثواب الجزيل، والأجر الجليل، والنعيم المقيم ﴿خَيْرٌ﴾ من لذات الدنيا، خيرية لا نسبة بينهما ﴿وَأَبْقَى﴾؛ لأنه نعيم لا منغص فيه، ولا كدر، ولا انتقال.ثم ذكر لمن هذا

---

(١) تفسير السعدي (مجموع المؤلفات ٢/٦٣٤)

(٢) رواه ابن ماجه في سننه، أبواب الزهد، باب التوكل واليقين. (٥/٢٦٦) ح(٤١٦٤)

(٣) البراهين العقلية (مجموع المؤلفات ٦/٥٨٥)

(٤) رواه البخاري في صحيحه، كتاب بدء الوحي، باب من لم يرق. (٧/١٧٤) ح(٥٧٥٢)

الثواب، فقال: ﴿لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾، أي: جمعوا بين الإيمان الصحيح، المستلزم لأعمال الإيمان الظاهرة والباطنة، وبين التوكل الذي هو الآلة لكل عمل، فكل عمل لا يصحبه التوكل فغير تام"[١].

وبعدُ: فهذه طائفة من ثمرات التوكل، وكلما قوي توكل العبد على ربه اسبغ الله عليه من واسع فضله وإحسانه بحسب ذلك، ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا﴾، "توكل إليه الأمور، فيقوم بها، وبما هو أصلح للعبد، وذلك لعلمه بمصالح عبده، من حيث لا يعلم العبد، وقدرته على إيصالها إليه، من حيث لا يقدر عليها العبد، وأنه أرحم بعبده من نفسه، ومن والديه، وأرأف به من كل أحد، خصوصًا خواص عبيده، الذين لم يزل يربيهم ببره، ويُدِرُّ عليهم بركاته الظاهرة والباطنة، خصوصًا وقد أمره بإلقاء أموره إليه، ووعده، فهناك لا تسأل عن كل أمر يتيسر، وصعب يسهل، وخطوب تهون، وكروب تزول، وأحوال وحوائج تقضى، وبركات تنزل، ونقم تدفع، وشرور ترفع.وهناك ترى العبد الضعيف، الذي فوض أمره لسيده، قد قام بأمور لا تقوم بها أمة من الناس، وقد سهل اللّه ما كان يصعب على فحول الرجال، وباللّه المستعان".



(١) تفسير السعدي (مجموع المؤلفات ٢/١٠٥٠)

المبحث السابع: الصبر

وفيه ثلاثة مطالب:

المسألة الأولى: تعريف الصبر

المسألة الثانية: أدلة الصبر

المسألة الثالثة: ثمرات الصبر

المسألة الأولى: تعريف الصبر

أولًا: التعريف اللغوي:

الصبر في اللغة مصدر من الفعل الثلاثي صبر يصبر صبراً ، فهو صابرٌ وصبَّار وصبيرٌ وصبور ، وجمعه صُبُرٌ ، والصبر : نقيض الجزع ، والتصبُّر : تكلف الصبر ، وتصبَّر واصطبر : جعل له صبراً ، وتقول : اصطبرت [1] .

وأصل الصبر : الحبس ، وسمي الصوم صبراً ؛ لما فيه من حبس النفس عن الطعام ، والشراب ، والنكاح .

أما أصل هذه الكلمة :

- هو المنع والحبس ، فالصبر حبس النفس عن الجزع ، واللسان عن التشكي ، والجوارح عن لطم الخدود وشق الثياب .
- وقيل : أصل الكلمة من الشدة والقوة ، ومنه الصبر للدواء المعروف لشدة مرارته وكراهته ، قال الأصمعي : إذا لقي الرجل الشدة بكمالها قيل لقيها بأصبارها ، ومنه الصُبر (بضم الصاد) للأرض ذات الحصب لشدها وصلابتها ، ومنه سميت الحرة أم صبار ، ومنه قولهم : وقع القوم في أمر صبُّور (بتشديد الباء) ، أي : أمرٌ شديدٌ ، ومنه صبَارة الشتاء (بتخفيف الباء وتشديد الراء) لشدة برده .
- وقيل : مأخوذ من الجمع والضم ، فالصابر يجمع نفسه ويضمها عن الهلع والجزع ، ومنه صبُرة الطعام ، وصبارة الحجارة . والتحقيق : أن في الصبر المعاني الثلاثة المنع والشدة والضم[2].
- قال الراغب : "الصبر : الإمساك في ضيق ، يقال : صبرت الدابة : حبستها بلا علف ، وصبرت فلاناً : خلفته خلفة لا خروج له منها ، والصبر : حبس النفس

---

(1) انظر: لسان العرب (٢٣٩٢/٤) ، القاموس المحيط (٢٧٣/١٢)

(2) عدة الصابرين (١٦/١)

على ما يقتضيه العقل والشرع ، أو عما يقتضيان حبسها عنه ، فالصبر لفظ عام ، وربما خولف بين أسمائه بحسب اختلاف مواقعه ؛ فإن كان حبس النفس لمصيبة سمي صبراً لا غير ، ويضـاده الجزع ، وإن كان في محاربة سمي شجاعة ، ويضاده الجبن ، وإن كان في نائبة مضجرة سمي رحب الصدر ، ويضاده الضجر ، وإن كان في إمساك الكلام سمي كتماناً..."[١].

ثانياً : التعريف الشرعي :

عرف الصبر اصطلاحاً بتعريفات كثيرة ، أذكر منها ما يأتي :

- عرفه الراغب الأصفهاني بأنه : حبس النفس على ما يقتضيه العقل والشرع ، وعما يقتضيان حبسها عنه[٢].
- وعرفه ابن القـيم بأنه : حبس النفس عن الجزع والتسخط ، وحبس اللسان عن الشكوى ، وحبس الجوارح عن التشويش[٣].

وعرفه السعدي رحمه الله بقوله "الصبر : حبس النفس على المشقات طلباً لرضا الله"[٤].

وقال رحمه الله : "والصبر : هو حبس النفس ومنعها ، مما تميل بطبعها إليه ، وهذا يشمل أنواع الصبر الثلاثة : الصبر على طاعة الله ، والصبر عن معصية الله ، والصبر على أقدار الله المؤلمة ، فلا يستحق العبد اسم الصبر التام ، حتى يوفي هذه الثلاثة حقها"[٥].



---

(١) المفردات (ص٤٧٤)

(٢) المصدر نفسه.

(٣) مدارج السالكين (١٥٥/٢)

(٤) تيسير اللطيف المنان (مجموع المؤلفات ٣٢٤/٣)

(٥) تفسير السعدي (مجموع المؤلفات ٧٤١/٢)

المسألة الثانية: أنواع أدلة الصبر

١- أمر الله الرسل الكرام بالصبر، وأخبر أنه من أخلاقهم:

فقد أمر اللهُ أكرمَ الخلق محمدًا - ﷺ - أن يصبر كما صبر أولوا العزم من الرسل، فقال تعالى: ﴿ فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ... ﴾ الأحقاف:٣٥.

قال الشيخ عبد الرحمن السعدي رحمه الله: "ثم أمر تعالى رسوله أن يصبر على أذية المكذبين المعادين له وأن لا يزال داعيًا لهم إلى الله وأن يقتدي بصبر أولي العزم من المرسلين سادات الخلق أولي العزائم والهمم العالية الذين عظم صبرهم، وتم يقينهم، فهم أحق الخلق بالأسوة بهم والقفو لآثارهم والاهتداء بمنارهم.

فامتثل ﷺ لأمر ربه فصبر صبرًا لم يصبره نبي قبله حتى رماه المعادون له عن قوس واحدة، وقاموا جميعًا بصده عن الدعوة إلى الله، وفعلوا ما يمكنهم من المعاداة والمحاربة، وهو ﷺ لم يزل صادعًا بأمر الله مقيمًا على جهاد أعداء الله صابرًا على ما يناله من الأذى، حتى مكن الله له في الأرض وأظهر دينه على سائر الأديان وأمته على الأمم، فـﷺ تسليمًا"[١].

وقد أثنى الله سبحانه على عبده أيوب بأحسن الثناء على صبره فقال: ﴿...إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًاۚ نِّعْمَ ٱلْعَبْدُۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴾ص:٤٤.

قال الشيخ عبد الرحمن السعدي رحمه الله: "﴿ إِنَّا وَجَدْنَٰهُ ﴾ أي: أيوب ﴿ صَابِرًا ﴾ أي: ابتليناه بالضر العظيم، فصبر لوجه الله تعالى.﴿ نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ ﴾ الذي كمل مراتب العبودية، في حال السراء والضراء، والشدة والرخاء .

﴿ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴾، أي: كثير الرجوع إلى الله، في مطالبه الدينية والدنيوية، كثير الذكر لربه والدعاء، والمحبة والتأله"[٢].

---

(١) تفسير السعدي (مجموع المؤلفات ٢/١٠٨٤)

(٢) تفسير السعدي (مجموع المؤلفات ٢/٩٨٨)

وقد تكرر أمر الله لنبيه بالصبر في القرآن الكريم في مواضع متعددة:

قال تعالى: ﴿ ...فَٱصۡبِرۡۖ إِنَّ ٱلۡعَٰقِبَةَ لِلۡمُتَّقِينَ ﴾هود:٤٩، وقال الله تعالى: ﴿ فَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ قَبۡلَ طُلُوعِ ٱلشَّمۡسِ وَقَبۡلَ غُرُوبِهَاۖ وَمِنۡ ءَانَآيِٕ ٱلَّيۡلِ فَسَبِّحۡ وَأَطۡرَافَ ٱلنَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرۡضَىٰ ﴾طه:١٣٠، وقال تعالى: ﴿ فَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ قَبۡلَ طُلُوعِ ٱلشَّمۡسِ وَقَبۡلَ ٱلۡغُرُوبِ ﴾ ق:٣٩.

قال الشيخ عبد الرحمن السعدي رحمه الله: "﴿ فَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ قَبۡلَ طُلُوعِ ٱلشَّمۡسِ وَقَبۡلَ غُرُوبِهَاۖ وَمِنۡ ءَانَآيِٕ ٱلَّيۡلِ فَسَبِّحۡ وَأَطۡرَافَ ٱلنَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرۡضَىٰ ﴾، هذا تسلية للرسول، وتصبير له عن المبادرة إلى إهلاك المكذبين المعرضين، ... ولهذا أمر الله رسوله بالصبر على أذيتهم بالقول، وأمره أن يتعوض عن ذلك، ويستعين عليه بالتسبيح بحمد ربه، في هذه الأوقات الفاضلة ... لعلك إن فعلت ذلك ترضى بما يعطيك ربك من الثواب العاجل والآجل، وليطمئن قلبك، وتقر عينك بعبادة ربك، وتتسلى بها عن أذيتهم، فيخف حينئذ عليك الصبر"(١).

٢- أنه سبحانه قرن الصبر بأركان الإسلام ومقامات الإيمان:

فقرنه بالصلاة في قوله: ﴿ وَٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ وَٱلصَّلَوٰةِ... ﴾البقرة:٤٥، وبالتقوى في قوله: ﴿ ...إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصۡبِرۡ... ﴾ يوسف:٩٠، وبالشكر في قوله: ﴿ ...إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّكُلِّ صَبَّارٖ شَكُورٖ ﴾لقمان:٣١، وبالرحمة في قوله: ﴿ ...وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡمَرۡحَمَةِ ﴾ البلد:١٧، وبالصدق في قوله: ﴿ ...وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ ... ﴾ الأحزاب:٣٥.



(١) تفسير السعدي (مجموع المؤلفات ٢/٧٢٣)

المسألة الثالثة: ثمرات الصبر

١- نيل الإمامة بالدين:

قال تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴾السجدة:٢٤.

قال الشيخ عبد الرحمن السعدي رحمه الله: "﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ ﴾ أي: من بني إسرائيل ﴿ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا ﴾، أي: علماء بالشرع، وطرق الهداية، مهتدين في أنفسهم، يهدون غيرهم بذلك الهدى، ... وإنما نالوا هذه الدرجة العالية بالصبر على التعلم والتعليم، والدعوة إلى الله، والأذى في سبيله، وكفوا أنفسهم عن جماحها في المعاصي، واسترسالها في الشهوات .

﴿ وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴾، أي: وصلوا في الإيمان بآيات الله إلى درجة اليقين، وهو العلم التام، الموجب للعمل، وإنما وصلوا إلى درجة اليقين؛ لأنهم تعلموا تعلمًا صحيحًا، وأخذوا المسائل عن أدلتها المفيدة لليقين.فما زالوا يتعلمون المسائل، ويستدلون عليها بكثرة الدلائل حتى وصلوا لذاك، فبالصبر واليقين تُنَالُ الإمامة في الدين"(١).

٢- وعد الله الصابرين أن يؤتيهم أجرهم مرتين:

قال: ﴿ أُولَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴾القصص:٥٤.

قال الشيخ عبد الرحمن السعدي رحمه الله: "﴿ أُولَئِكَ ﴾ الذين آمنوا بالكتابين ﴿يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ ﴾ أجرًا على الإيمان الأول، وأجرًا على الإيمان الثاني، ﴿ بِمَا صَبَرُوا ﴾ على الإيمان، وثبتوا على العمل، فلم تزعزعهم عن ذلك شبهة، ولا ثناهم عن

---

(١) تفسير السعدي (مجموع المؤلفات ٢/٩١٠)

الإيمان رياسة ولا شهوة"(١).

٣- معية الله عز وجل لعباده الصابرين:

ومن كان الله معه فقد ظفر ونجا من كل بلاء، قال الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ البقرة:١٥٣.

قال الشيخ عبد الرحمن السعدي رحمه الله: "﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾.وأخبر أنه ﴿مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾، أي: مع من كان الصبر لهم خلقًا وصفة وملكة بمعونته وتوفيقه وتسديده، فهانت عليهم بذلك المشاق والمكاره، وسهل عليهم كل عظيم، وزالت عنهم كل صعوبة، وهذه معية خاصة، تقتضي محبته ومعونته، ونصره وقربه، وهذه منقبة عظيمة للصابرين، فلو لم يكن للصابرين فضيلة إلا أنهم فازوا بهذه المعية من الله، لكفى بها فضلًا وشرفًا"(٢).

٤- ذكر الله محبته للصابرين:

قال الله تعالى: ﴿ وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُواْ لِمَآ أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُواْ وَمَا ٱسْتَكَانُواْۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ آل عمران:١٤٦.

قال الشيخ عبد الرحمن السعدي -رحمه الله- : " جعل الله لمحبته التي هي أعلى ما ناله العباد أسبابا، أهمها وأعظمها متابعة رسوله محمد صلى الله عليه وسلم في الأقوال والأفعال وسائر الأحوال، ... ومن أسبابها ما ذكره بقوله:﴿ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ "(3)

(١) تفسير السعدي (مجموع المؤلفات ٢/٨٦٣)

(٢) تفسير السعدي (مجموع المؤلفات ٢/١٥١)

(٣) تيسير اللطيف المنان (مجموع المؤلفات ٣/٣١٧)

٥- الصابرون تنالهم رحمة الله وصلواته، وهم المهتدون للخير والصواب:

قال الله تعالى: ﴿ ... وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةٞ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ صَلَوَٰتٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَرَحۡمَةٞۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُهۡتَدُونَ ﴾ البقرة:١٥٥-١٥٧.

قال الشيخ عبد الرحمن السعدي - رحمه الله - في تفسير الآية: "وأما من وفقه الله للصبر عند وجود هذه المصائب، فحبس نفسه عن التسخط قولًا وفعلًا، واحتسب أجرها عند الله، وعلم أن ما يدركه من الأجر بصبره أعظم من المصيبة التي حصلت له، بل المصيبة تكون نعمة في حقه، لأنها صارت طريقًا لحصول ما هو خير له وأنفع منها، فقد امتثل أمر الله، وفاز بالثواب، فلهذا قال تعالى: ﴿ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ أي: بشرهم بأنهم يوفون أجرهم بغير حساب.

ف (الصابرين) هم الذين فازوا بالبشارة العظيمة، والمنحة الجسيمة، ثم وصفهم بقوله: ﴿ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةٞ ﴾، وهي كل ما يؤلم القلب أو البدن أو كليهما مما تقدم ذكره.﴿ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ ﴾، أي: مملوكون لله، مدبرون تحت أمره وتصريفه، فليس لنا من أنفسنا وأموالنا شيء، فإذا ابتلانا بشيء منها، فقد تصرف أرحم الراحمين، بمماليكه وأموالهم، فلا اعتراض عليه، بل من كمال عبودية العبد علمه بأن وقوع البلية من المالك الحكيم الذي هو أرحم بعبده من نفسه، فيوجب له ذلك الرضا عن الله، والشكر له على تدبيره لما هو خير لعبده، وإن لم يشعر بذلك، ومع أننا مملوكون لله، فإنا إليه راجعون يوم المعاد، فمجاز كل عامل بعمله، فإن صبرنا واحتسبنا وجدنا أجرنا موفورًا عنده، وإن جزعنا وسخطنا، لم يكن حظنا إلا السخط وفوات الأجر، فكون العبد لله، وراجع إليه، من أقوى أسباب الصبر.

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ﴾ الموصوفون بالصبر المذكور ﴿ عَلَيۡهِمۡ صَلَوَٰتٞ مِّن رَّبِّهِمۡ ﴾، أي: ثناء وتنويه بحالهم ﴿ وَرَحۡمَةٞ ﴾ عظيمة، ومن رحمته إياهم أن وفقهم للصبر الذي ينالون به كمال الأجر، ﴿ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُهۡتَدُونَ ﴾ الذين عرفوا الحق، وهو في هذا الموضع، علمهم بأنهم لله، وأنهم إليه راجعون، وعملوا به، وهو هنا صبرهم لله.

ودلت هذه الآية، على أن من لم يصبر، فله ضد ما لهم، فحصل له الذم من الله والعقوبة والضلال والخسار، فما أعظم الفرق بين الفريقين ! وما أقل تعب الصابرين وأعظم عناء الجازعين ! فقد اشتملت هاتان الآيتان على توطين النفوس على المصائب قبل وقوعها، لتخف وتسهل إذا وقعت، وبيان ما تقابل به إذا وقعت، وهو الصبر، وبيان ما يعين على الصبر، وما للصابر من الأجر، ويعلم حال غير الصابر، بضد حال الصابر.

وأن هذا الابتلاء والامتحان سنة الله التي قد خلت، ولن تجد لسنة الله تبديلًا وبيان أنواع المصائب"[1].

٦- الصابرون يوفيهم الله أجرهم بغير حساب:

قال الله تعالى: ﴿ ... إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ الزمر: ١٠.

قال الشيخ عبد الرحمن السعدي رحمه الله: "﴿ ... إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ وهذا عام في جميع أنواع الصبر، الصبر على أقدار اللّه المؤلمة فلا يتسخطها، والصبر عن معاصيه فلا يرتكبها، والصبر على طاعته حتى يؤديها، فوعد اللّه الصابرين أجرهم بغير حساب، أي: بغير حد ولا عد ولا مقدار، وما ذاك إلا لفضيلة الصبر ومحله عند اللّه، وأنه معين على كل الأمور"[2].

٧- تعليق الفلاح في الدنيا والآخرة على الصبر:

قال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾آل عمران: ٢٠٠.

قال الشيخ عبد الرحمن السعدي رحمه الله: "ثم حض المؤمنين على ما يوصلهم إلى الفلاح - وهو: الفوز والسعادة والنجاح - وأن الطريق الموصل إلى ذلك لزوم الصبر،

---

(١) تفسير السعدي (مجموع المؤلفات ٢/١٥٣)

(٢) تفسير السعدي (مجموع المؤلفات ٢/٩٩٦)

الذي هو حبس النفس على ما تكرهه من ترك المعاصي، ومن الصبر على المصائب، وعلى الأوامر الثقيلة على النفوس، فأمرهم بالصبر على جميع ذلك.والمصابرة أي الملازمة والاستمرار على ذلك، على الدوام، ومقاومة الأعداء في جميع الأحوال.

والمرابطة: وهي لزوم المحل الذي يخاف من وصول العدو منه، وأن يراقبوا أعداءهم، ويمنعوهم من الوصول إلى مقاصدهم، لعلهم يفلحون: يفوزون بالمحبوب الديني والدنيوي والأخروي، وينجون من المكروه كذلك.

فعلم من هذا أنه لا سبيل إلى الفلاح بدون الصبر والمصابرة والمرابطة المذكورات، فلم يفلح من أفلح إلا بها، ولم يفت أحدًا الفلاح إلا بالإخلال بها أو ببعضها"[1].

٨- تعليق النصر عليه:

قال تعالى: ﴿ بَلَىٰٓۚ إِن تَصۡبِرُواْ وَتَتَّقُواْ وَيَأۡتُوكُم مِّن فَوۡرِهِمۡ هَٰذَا يُمۡدِدۡكُمۡ رَبُّكُم بِخَمۡسَةِ ءَالَٰفٖ مِّنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴾ آل عمران:١٢٥.

وقال تعالى ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمۡ فِئَةٗ فَٱثۡبُتُواْ وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرٗا لَّعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴿٤٥﴾ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفۡشَلُواْ وَتَذۡهَبَ رِيحُكُمۡۖ وَٱصۡبِرُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٤٦﴾ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بَطَرٗا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ بِمَا يَعۡمَلُونَ مُحِيطٞ ﴾الأنفال:٤٥-٤٧.

قال الشيخ عبد الرحمن السعدي -رحمه الله- في التعليق على الآيات السابقة: "هذه الآيات تضمنت الأمر بجهاد الأعداء، والإرشاد إلى الأسباب التي ينبغي للجيوش والمجاهدين الأخذ بها، فمن أعظمها وأهمها أمران: الصبر، وهو الثبات التام وإبداء كل مجهود في تحصيل ذلك، والثاني: التوكل على الله، والتضرع إليه، والإكثار من ذكره، فمتى اجتمع الأمران على وجه الكمال والتكميل فقد أتى المجاهدون بالأسباب الوحيدة للنصر والفلاح، فليبشروا بنصر الله وليثقوا بوعده"[2].

---

(١) تفسير السعدي (مجموع المؤلفات ٢٤٨/٢)

(٢) تيسير اللطيف المنان (مجموع المؤلفات ١١٢/٣)

٩- الإخبار بأن الفوز بالمطلوب المحبوب، والنجاة من المكروه المرهوب، ودخول الجنة، وسلام الملائكة عليهم، إنما نالوه بالصبر:

قال تعالى: ﴿ ... وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ ۚ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴾ الرعد:٢٣-٢٤.

قال الشيخ عبد الرحمن السعدي رحمه الله: "﴿ وَٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ ﴾ على المأمورات بالامتثال، وعن المنهيات بالانكفاف عنها والبعد منها، وعلى أقدار الله المؤلمة بعدم تسخطها. ولكن بشرط أن يكون ذلك الصبر ﴿ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ ﴾ لا لغير ذلك من المقاصد والأغراض الفاسدة، فإن هذا هو الصبر النافع الذي يحبس به العبد نفسه، طلبًا لمرضاة ربه، ورجاء للقرب منه، والحظوة بثوابه، وهو الصبر الذي من خصائص أهل الإيمان.وأما الصبر المشترك الذي غايته التجلد ومنتهاه الفخر، فهذا يصدر من البر والفاجر، والمؤمن والكافر، فليس هو الممدوح على الحقيقة ... ﴿ ... أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٢﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ ۖ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ... ﴾ الرعد:٢٢-٢٣، أي: صبركم هو الذي أوصلكم إلى هذه المنازل العالية، والجنان الغالية، ﴿ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴾"[(١)].

وقد بشر النبي – ﷺ – الذي يصبر على فقد عينيه بالجنة، فعن أنس بن مالك – رضي الله عنه – قال: سمعت النبي – ﷺ – يقول: "إن الله قال: إذا ابتليت عبدي بحبيبتيه فصبر عوضته منهما الجنة"[(٢)]، قال ابن حجر رحمه الله : "والمراد بالحبيبتين : المحبوبتان ؛ لأنهما أحب أعضاء الإنسان إليه لما يحصل له بفقدهما من الأسف على فوات رؤية ما يريد رؤيته من خير فيسر به أو شر فيجتنبه ، قوله : (فصبر) .... والمراد أنه يصبر مستحضراً ما وعد الله به الصابر من الثواب ، لا أن يصبر مجرداً عن ذلك ؛ لأن الأعمال بالنيات ، وابتلاء الله عبده في الدنيا ليس من سخطه عليه بل إما لدفع مكروه ، أو لكفارة

---

(١) تفسير السعدي (مجموع المؤلفات ٢/٥٨٧)

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، (٧/ ١١٦) ح:(٥٦٥٣).

ذنوب ، أو لرفع منزلة ، فإذا تلقى ذلك بالرضا تم له المراد"[١].

وقال عطاء بن أبي رباح قال : قال لي ابن عباس : ألا أريك امرأة من أهل الجنة ؟ قلت : بلى ، قال : هذه المرأة السوداء ، أتت النبي – صلى الله عليه وسلم – قالت : إني أصرع وإني أتكشف فادع الله لي ، قال : "إن شئت صبرت ولك الجنة ، وإن شئت دعوت الله أن يعافيك ، قالت : أصبر . قالت : فإني أتكشف ، فادع الله ألا أتكشف ، فدعا لها"[٢].

١٠- الإخبار أنه إنما ينتفع بآيات الله ويتعظ بها أهل الصبر:

قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكِّرْهُم بِأَيَّامِ اللَّهِ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴾إبراهيم:٥.

قال الشيخ عبد الرحمن السعدي رحمه الله: "﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴾، فهم المنتفعون بالآيات، صبار على الضراء، شكور على السراء، صبار على طاعة اللّه وعن معصيته، وعلى أقداره، شكور للّه، على نعمه الدينية والدنيوية"[٣].

"كثير الصبر على ما تكرهه نفسه ويشق عليها، فيكرهها عليه، من مشقة طاعة، أو ردع داع إلى معصية، أو ردع نفسه عند المصائب عن التسخط، ﴿شَكُورٍ﴾ في الرخاء وعند النعم، يعترف بنعمة ربه ويخضع له، ويصرفها في مرضاته، فهذا الذي ينتفع بآيات الله.

وأما الذي لا صبر عنده، ولا شكر له على نعم الله، فإنه معرض أو معاند لا

---

(١) فتح الباري (١٠/١١٦)

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجمعة، باب من انتظر حتى تدفن (٧/ ١١٦) ح:(٥٦٥٢)، ومسلم في صحيحه، كتاب الآداب، (٨/ ١٦) ح:(٦٦٦٣).

(٣) تفسير السعدي (مجموع المؤلفات ٢/٩٠٤)

ينتفع بالآيات"[١].

١١- الإخبار أن خصال الخير والحظوظ العظيمة لا يلقاها إلا أهل الصبر:

قال تعالى: ﴿... وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ﴾القصص:٨٠، وقوله: ﴿وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾فصلت:٣٥.

قال الشيخ عبد الرحمن السعدي رحمه الله: "﴿وَمَا يُلَقَّىٰهَآ﴾، أي: وما يوفق لهذه الخصلة الحميدة ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ﴾ نفوسهم على ما تكره، وأجبروها على ما يحبه الله، فإن النفوس مجبولة على مقابلة المسيء بإساءته وعدم العفو عنه، فكيف بالإحسان ؟ فإذا صبر الإنسان نفسه، وامتثل أمر ربه، وعرف جزيل الثواب، وعلم أن مقابلته للمسيء بجنس عمله لا يفيده شيئًا، ولا يزيد العداوة إلا شدة، وأن إحسانه إليه، ليس بواضع قدره، بل من تواضع للّه رفعه، هان عليه الأمر، وفعل ذلك، متلذذًا مستحليًا له.﴿وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾؛ لكونها من خصال خواص الخلق التي ينال بها العبد الرفعة في الدنيا والآخرة، التي هي من أكبر خصال مكارم الأخلاق"[٢].

١٢- وجعل الصبر - سبحانه وتعالى - عونًا وعدة، وأمر بالاستعانة به:

قال تعالى: ﴿وَٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ...﴾ البقرة:٤٥، فمن لا صبر له؛ لا عون له، وعلّق النصر على الصبر والتقوى، فقال تعالى: ﴿بَلَىٰٓ إِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ﴾ آل عمران:١٢٥.

و الصبر للمؤمن خير عظيم، إذا أصابته ضراء يكون الخير له، فعن صهيب قال: قال رسول الله ﷺ: "عجبًا لأمر المؤمن إن أمره كله خير، وليس ذاك لأحد إلا للمؤمن،

(١) تفسير السعدي (مجموع المؤلفات ١٠٥٠/٢)

(٢) تفسير السعدي (مجموع المؤلفات ١٠٣٦/٢)

إن أصابته سراء شكر فكان خيرًا له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرًا له"[١].

وبين الرسول - صلى الله عليه وسلم - أن الصبر ضياء ، فعن أبي مالك الأشعري قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "الطهور شطر الإيمان ، والحمد لله تملأ الميزان ، وسبحان الله والحمد لله تملآن ، أو تملأ ما بين السماوات والأرض ، والصلاة نور ، والصدقة برهان ، والصبر ضياء ، والقرآن حجةٌ لك أو عليك ، كل الناس يغدو فبايعٌ نفسه فمعتقها أو موبقها"[٢].

قال النووي رحمه الله : "وأما قوله صلى الله عليه وسلم : والصبر ضياءٌ ، فمعناه الصبر المحبوب في الشرع ، وهو الصبر على طاعة الله تعالى ، والصبر عن معصيته ، والصبر أيضاً على النائبات وأنواع المكاره في الدنيا ، والمراد أن الصبر محمود ولا يزال صاحبه مستضيئاً مهتدياً مستمراً على الصواب"[٣].

قال الشيخ عبد الرحمن السعدي رحمه الله : "وقد وعد الله الصابرين في كتابه وعلى لسان رسوله أموراً عالية جليلة . وعدهم بالإعانة في كل أمورهم ، وأنه معهم بالعناية والتوفيق والتسديد ، وأنه يحبهم ويثبت قلوبهم وأقدامهم ، ويلقي عليهم السكينة والطمأنينة ، ويسهل لهم الطاعات ، ويحفظهم من المخالفات ، ويتفضل عليهم بالصلوات والرحمة والهداية عند المصيبات . والله يرفعهم إلى أعلى المقامات في الدنيا والآخرة . وعدهم النصر ، وأن ييسرهم لليسرى ويجنبهم العُسرى . ووعدهم بالسعادة والفلاح والنجاح ، وأن يوفيهم أجرهم بغير حساب ، وأن يخلف عليهم في الدنيا أكثر مما أخذ منهم من محبوباتهم ، وأحسن ، يعوضهم عن وقوع المكروهات عوضاً عاجلاً يقابل أضعاف أضعاف ما وقع عليهم من كريهة ومصيبة . وهو في ابتدائه صعب شديد ، وفي انتهائه سهل حميد العواقب كما قيل :

والصبر مثل اسمه مُرٌّ مذاقته ... لكن عواقبه أحلى من العسل"[٤].

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الآداب، (٨/ ٢٢٧) ح:(٧٦١٠).

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، (١/ ١٣٩) ح:(٤٥٤).

(٣) شرح النووي على مسلم (١٠١/٣).

(٤) بهجة قلوب الأبرار (مجموع المؤلفات ٩٤/٥)

المبحث الثامن: الرضا

وفيه ثلاثة مطالب:

المسألة الأولى: تعريف الرضا

المسألة الثانية: أنواع أدلة الرضا

المسألة الثالثة: ثمرات الرضا

المسألة الأولى: تعريف الرضا

أولًا: التعريف اللغوي:

الرضا مصدر مأخوذ من الفعل الثلاثي : رضي يرضى ، وأصله من مادة (ر ض و) ، وهو ضد السُّخط ، ومنه قوله صلى الله عليه وسلم : "اللهم إني أَعوذُ برضاكَ من سَخَطِكَ ، وبِمُعافاتِكَ من عُقوبَتِكَ ، وأَعوذُ بك منك ، لا أُحْصي ثَناءً عليك ، أَنت كما أَثْنَيْتَ على نفسك"(١) .

قال ابن فارس : "(رضي) الراء والضاد والحرف المعتلّ أصلٌ واحد يدلُّ على خلاف السُّخْط .تقول رضِي يرضَى رِضىً .وهو راضٍ ، ومفعوله مرضِيٌّ عنه .ويقال إنّ أصله الواو ؛ لأنّه يقال منه رِضوَان"(٢).

والرضا يثنى على رِضَوانِ ورِضَيانِ ، ويقال في الرضى : رَضِيَ يَرْضى رِضاً ورُضاً ورِضْواناً ورُضْواناً ، وأرضاه : أعطاه ما يرضى به ، وترضاه : طلب رضاه(٣).

واسْتَرْضاهُ وتَرَضَّاهُ : طَلَبَ رِضاهُ ورَضِيتُهُ وبه ، فهو مَرْضُيٌّ ومَرْضِيٌّ ، وارْتَضاهُ لِصُحْبَتِهِ وخِدْمَتِهِ ، وتَراضَياهُ : وَقَعَ به التَّراضِي ، واسْتَرْضاهُ : طَلَبَ إليه أن يُرْضِيَهُ(٤).

فالرضا بالشيء الركون إليه وعدم النفرة منه ، فقد يرضى أحد شيئاً لنفسه فيقول : رضيت بكذا ، وقد يرضى شيئاً لغيره فهو بمعنى اختياره له ، واعتقاده مناسبته له ، فيعدى باللام للدلالة على أن رضاه لأجل غيره ، كما تقول : اعتذرت له "(٥).

قال الجوهري : "الرضوان : الرضا ، وكذلك الرُّضوان بالضم ، والمرضاة مثله . ورضيت الشيء وارتضيته فهو مرضي"(٦).

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الصلاة، (٢/ ٥١) ح:(١٠٢٤).

(٢) مقاييس (٢/٤٠٢).

(٣) لسان العرب (٣/١٦٦٣)

(٤) القاموس المحيط (ص١٢٨٨).

(٥) التحرير والتنوير (٦/١٠٧).

(٦) الصحاح (٦/٢٣٥٧).

وفي لسان العرب: "المرْضاةُ والرِّضْوان مصدران ....، وقيل في ﴿ عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴾، أَي: مَرْضِيَّة، أَي: ذات رضا"[١].

يقول الراغب الأصفهاني: رضي يرضى رضا، فهو: مرضي ومرضو، ورضا العبد عن الله: أن لا يكره ما يجري به قضاؤه، ورضا الله عن العبد هو أن يراه مؤتمرًا لأمره ومنتهيًا عن نهيه.قال الله تعالى: ﴿ ... رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُ... ﴾المائدة:١١٩، وقال تعالى: ﴿لَّقَدۡ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ... ﴾ الفتح:١٨، ... والرضوان: الرضا الكثير، ولما كان أعظم الرضا رضا الله تعالى خص لفظ الرضوان في القرآن بما كان من الله تعالى، قال عز وجل: ﴿ ...يَبۡتَغُونَ فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٗا... ﴾الفتح:٢٩، وقال: ﴿ يُبَشِّرُهُمۡ رَبُّهُم بِرَحۡمَةٖ مِّنۡهُ وَرِضۡوَٰنٖ ... ﴾ التوبة:٢١ [٢].

ثانياً: التعريف الشرعي:

- "قيل : الرضا ارتفاع الجزع في أي حكم كان .
- وقيل : استقبال الأحكام بالفرح .
- وقيل : سكون القلب تحت مجاري الأحكام .
- وقيل : نظر القلب إلى قديم اختيار الله للعبد ، وهو ترك السخط"[٣].
- وقال ابن العربي[٤] : الرضا سكون النفس إلى القدر والقضاء[٥].

وعرفه ابن رجب –رحمه الله– بقوله : "الرضا : انشراح الصدر وسعته بالقضاء ،

(١) لسان العرب (١٦٦٣/٣)

(٢) المفردات (٣٥٦)

(٣) مدارج السالكين (١٧٥/٢).

(٤) هو محمد بن عبد الله بن محمد المعافري الإشبيلي المالكي، أبو بكر ابن العربيّ: قاض، من حفاظ الحديث. ولد في إشبيلية، ورحل إلى المشرق، وبرع في الأدب، من كتبه (العواصم من القواصم) ، و (عارضة الأحوذي في شرح الترمذي) و (أحكام القرآن) ، توفي عام ٤٥٣ . انظر ترجمته في (الأعلام للزركلي ٢٣٠/٦)

(٥) عارضة الأحوذي (٢٦٥/٢).

وترك تمنِّي زوال ذلك المؤلم ، وإنْ وجدَ الإحساسُ بالألم"[١].

وقال الشيخ عبد الرحمن السعدي -رحمه الله- مشيرا إلى تعريف الرضا : "طمأنينة القلب عند المصيبة ، وأن لا يكون فيه تمني أنها ما كانت"[٢].

فالرضا أرفع درجة من الصبر، وهو سكون القلب وطمأنينته بتقدير الله واختياره.



(١) جامع العلوم والحكم (١/٤٨٨).

(٢) الدرة البهية (مجموع المؤلفات ٦/٩٣٧)

المسألة الثانية: أنواع أدلة الرضا

١- ثناء الله تعالى على أهل الرضا:

أثنى الله – تعالى – على أهل الرضا في مواطن كثيرة، فقال عز وجل: ﴿ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾ التوبة:١٠٠، وقال سبحانه: ﴿ ...وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ المجادلة:٢٢.

فهذه الآيات تضمنت: جزاءهم على صدقهم وإيمانهم وأعمالهم الصالحة ومجاهدة أعدائه وعدم ولايتهم بأن رضي الله عنهم فأرضاهم فرضوا عنه، وإنما حصل لهم هذا بعد الرضى به ربًا وبمحمد نبيًا وبالإسلام دينًا، قوله: وهو الرضى عنه في كل ما قضى فهنا ثلاثة أمور: الرضاء بالله، والرضا عن الله، والرضا بقضاء الله(١).

٢- الرضا من صفات أهل الإيمان:

قال تبارك وتعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴾ البقرة:٢٠٧، وقال سبحانه وتعالى: ﴿ لَّا خَيْرَ فِى كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَىٰهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَٰحٍۭ بَيْنَ ٱلنَّاسِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾النساء:١١٤.

رضا المولى – جل وعلا – هو أقصى ما يتمناه أهل الإيمان، فقد قال سبحانه وتعالى عن داود عليه السلام، وقد أعطي من الملك ما أعطي: ﴿ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا

(١) مدارج السالكين (١٨٤/٢).

وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِيٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾النمل:١٩.

قال الشيخ عبد الرحمن السعدي - رحمه الله - في فوائد قصة شعيب - عليه السلام - مع قومه: "﴿ بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ ... ﴾هود:٨٦، فيه الحث على الرضا بما أعطى الله، والاكتفاء بحلاله عن حرامه، وقصر النظر على الموجود عندك من غير تطلع إلى ما عند الناس"[١].



(١) تيسير اللطيف المنان (مجموع المؤلفات ٣/٢١٢)

المسألة الثالثة: ثمرات الرضا

١- الرضا يثمر ذوق طعم الإيمان:

الرضا يذوق معه المؤمن طعم الإيمان وحلاوته ، وهو — أيضاً - علامة على صحة الإيمان ، كما قال صلى الله عليه وسلم : "ذاق طعم الإيمان من رضي بالله رباً ، وبالإسلام ديناً ، وبمحمد رسولاً"[(١)].

قال النووي : "رضيت بالشيء أي قنعت به ، واكتفيت به ولم أطلب معه غيره ، فمعنى الحديث : لم يطلب غير الله تعالى ، ولم يسع في غير طريق الإسلام ، ولم يسلك إلا ما يوافق شريعة محمد صلى الله عليه وسلم ، ولا شك في أن من كانت هذه صفته فقد خلصت حلاوة الإيمان إلى قلبه وذاق طعمه"[(٢)].

وعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال : قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم : "قد أفلح من أسلم ، ورُزِقَ كفافاً ، وقنّعه الله بما آتاه"[(٣)].

قال الشيخ عبد الرحمن السعدي رحمه الله: "حكم - ﷺ - بالفلاح لمن جمع هذه الخلال الثلاث.

و(الفلاح) اسم جامع لحصول كلّ مطلوب محبوب ، والسلامة من كلّ مخوف مهوب.وذلك أنّ هذه الثلاث جمعت خير الدين والدنيا ، فإنّ العبد إذا هدي للإسلام الذي هو دين الله ، الذي لا يقبل دينًا سواه ، وهو مدار الفوز بالثواب والنجاة من العقاب ، وحصل له الرزق الذي يكفيه ويكفّ وجهه عن سؤال الخلق ، ثمّ تمّم الله عليه النعمة ، بأن قنعه بما آتاه ، أي: حصل له الرضا بما أوتي من الرزق والكفاف ، ولم تطمح نفسه لما وراء ذلك، فقد حصل له حسنة الدنيا والآخرة.

فإنّ النقص بفوات هذه الأمور الثلاثة أو أحدها: إمّا ألا يهدى للإسلام، فهذا مهما كانت حاله ، فإنّ عاقبته الشقاوة الأبديّة ، وإمّا بأن يهدي للإسلام ، ولكنّه

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، (١/ ٤٦) ح:(٦٠).

(٢) شرح النووي على مسلم (٢/٢).

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، أبواب الجمعة، (٣/ ١٠٢) ح:(٢٣٩٠).

يبتلى: إمّا بفقرٍ ينسي ، أو غنى يطغي: وكلاهما ضرر ونقص كبير ، وإمّا بأن يحصل له الرزق الكافي موسعًا أو مقدّرًا ، ولكنّه لا يقنع برزق الله ، ولا يطمئن قلبه بما آتاه الله، فهذا فقير القلب والنفس.

فإنّه ليس الغنى عن كثرة العرض ، إنّما الغنى غنى القلب، فكم من صاحب ثروة وقلبه فقير متحسر، وكم من فقير ذات اليد، وقلبه غني راض، قانع برزق الله.

فالحازم إذا ضاقت عليه الدنيا لم يجمع على نفسه بين ضيقها وفقرها، وبين فقر القلب وحسرته وحزنه، بل كما يسعى لتحصيل الرزق فليسع لراحة القلب، وسكونه وطمأنينته"[١].

٢- الرضا من أسباب مغفرة الذنوب:

صح عن رسول الله - ﷺ - أنه قال: "من قال حين يسمع المؤذن: أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمدًا عبده ورسوله، رضيت بالله ربًا، وبمحمد رسولًا،وبالإسلام دينًا غفر له ذنبه"[٢].

قال الشيخ عبد الرحمن السعدي رحمه الله: "وقد وردت أحاديث كثيرة في تكفير كثير من الأعمال للسيئات مع اقتضائها لزيادة الحسنات والدرجات، كما وردت نصوص كثيرة في تكفير المصائب للسيئات، خصوصًا الذي يحتسب ثوابها ويقوم بوظيفة الصبر أو الرضا، فإنَّه يحصل له التكفير من جهتين: من جهة النفس المصيبة وألمها القلبي والبدني، ومن جهة مقابلة العبد لها بالصبر والرضا اللذين هما من أعظم أعمال القلوب، فإنَّ أعمال القلوب في تكفيرها السيئات أعظمُ من أعمال الأبدان"[٣].

٣- طمأنينة القلب وراحة النفس:

قال الشيخ عبد الرحمن السعدي رحمه الله: "ثم إنه ﷺ حضّ على الرضا بقضاء

---

(١) بهجة قلوب الأبرار (مجموع المؤلفات ٥/١٧٦)

(٢) رواه مسلم في صحيحه، كتاب الصلاة. (٤/٢) ح(٧٨)

(٣) فتح الرحيم الملك العلام (مجموع المؤلفات ٣/٧٦٦، ٧٦٧)

الله وقدره، بعد بذل الجهد، واستفراغ الوسع في الحرص على النافع.فإذا أصاب العبد ما يكرهه فلا ينسب ذلك إلى ترك بعض الأسباب التي يظن نفعها لو فعلها، بل يسكن إلى قضاء الله وقدره ليزداد إيمانه، ويسكن قلبه وتستريح نفسه؛ فإن (لو) في هذه الحال تفتح عمل الشيطان بنقص إيمانه بالقدر، واعتراضه عليه، وفتح أبواب الهم والحزن المضعف للقلب.وهذه الحال التي أرشد إليها النبي - ﷺ - هي أعظم الطرق لراحة القلب، وأدعى لحصول القناعة والحياة الطيبة، وهو الحرص على الأمور النافعة، والاجتهاد في تحصيلها، والاستعانة بالله عليها، وشكر الله على ما يسره منها، والرضى عنه بما فات، ولم يحصل منها"[١].

قال الشيخ عبد الرحمن السعدي رحمه الله: "أما أهل الدِّين الحقِيقي فقد قَابلوا هذه النِّعم وتَلقوها على وجه الشُكر لله والاغتباطِ بفضله، وتناولوها على وجه الاستعَانَة بها على طَاعِة المنعِم، وعلموا أنها من أكبرِ الوسائل لهم إلى رضَى رَبِّهم وخيرِه وثوابِه إذا استعملوها فيما هُيِّئت له وخلِقَت لأجله، وقَد رضوا بها عَن الله كل الرضَا، فإنَّهم عَلموا أنها من عندِ الله الذي له الحِكمة التَّامة في جَميع أقضيته وأقدارِه، وله الرَّحمَة الواسِعَة في جميعِ تدابيرِه، وله النِّعمة السابِغَة في كل عطاياه، وهو أرحَم بِهم من الخَلق أجمعين، فحيث عَلموا العِلم اليقيني صدورها ممن هَذا شَأنه قنعوا بما أُعطوه منها، من قَليل وكثيرٍ، كل القَنَاعَة، وسكنت قلوبُهم عن التطلُّعِ والتطلُّبِ لما لم يقدَّر لهم.

ومتى حَصلت الطمأنينَة والقَناعة والرضَا عن الله بما أعطى فقد حَصَلت الحياة الطيبة، فإذا أدركْتَ حقَّ الإدراكِ نَعتهم هذا عرفتَ أن نَعيم الدنيا في الحقيقة هو نَعيم القَناعة برزق الله، وطمأنينة القلوبِ بذكر الله وطاعتِه، وأن الواحد مِن هؤلاء لو لم يكن عنده من هَذه الأمور - وهي القُوة والصحَة والمال والأهل والوَلَد وتَوابع ذَلك - إلا الشيء القَليل لكَان في راحةٍ وسرورٍ من جِهتَين:

جهة القناعةِ وعَدم تطلع النَّفس وتَشَوقها للأمورِ التي لم تَحصُل..."[٢].

قال الشيخ عبد الرحمن السعدي رحمه الله: "فإنَّ التعبد لله بمعرِفة نعمه والاعتراف

---

(١) بهجة قلوب الأبرار (مجموع المؤلفات ٣٥/٥، ٣٦

(٢) انتصار الحق (مجموع المؤلفات ٩٨/٦، ٩٩)

بها والرضَا بها والرجَاء لله أن يُديمها ويُتمَّها، وأن يَجعلها وسيلة إلى نِعَم أخرى، وأن يجعَلَها طريقًا للسعادةِ الأبدية، لا رَيب أن هَذه الأحوال القَلبية من أفضَلِ الطاعاتِ وأجلِ القرباتِ، فكم من فرق بين سرور هذا الذي تَعبَّد بروح الدِّين وحصلت له الحَياة الطَّيبة، وبين من تلقى هذه النِّعم بالغَفلَةِ وعدم الاعترافِ بنعمَةِ المُنعِم وشقي بهمومها وغُمومها، وكان إذا حَصَل له شيء من مطالبِ النفوس لم يرضَ به بل تَشَوَّق إلى غيره وتطلّعَ لسواه، فهذا ينتقلُ من كدرٍ إلى كَدرٍ آخر؛ لأن قَلبَه قَد تعلقَ تعلقًا شديدًا بمطَالب الجَسَد، فحيث جاءت على خلافِ ما يؤمله ويُريده قَلق أشد القَلق، وهو لا يزال في قَلقٍ مستمرٍ؛ لأنَّ المطالبَ النفسية مَتَنوعة جدًا، فلو وافقه واحدٌ لم يوافِقه الآخر، وربما اجتمع في الشيء الواحِد سرور مِن وجَه، وحزن مِن وجَه آخَر، فصَفوه مَمزوج بكَدره، وسروره مختَلِط بحزنه، فأينَ الحَياة الطَّيبة لهذا ؟! وإنما الحياة الطَّيبة لأربَاب البصَائِر والحجَى الذين يتلقَّونها كلها بالقَبولِ والقَنَاعةِ والرضَا"[١].

قال الشيخ عبد الرحمن السعدي رحمه الله: "وكذلك المصائب حين تنزل بالعبد ويريد أن يقابلها بالرضا والشكر والحمدِ لله على ذلك، لا يتم ذلك إلا بالصبر واحتساب الأجر، ومتى مرَّن العبد نفسه على الصبر ووطّنها على تحمُّل المشاق والمصاعب وجدّ واجتهد في تكميل ذلك، صار عاقبته الفلاح والنجاح.

وقلّ من جدّ في أمر تطلبه ... واستصحب الصبر إلاّ فاز بالظفر[٢]"[٣].

قال الشيخ عبد الرحمن السعدي رحمه الله: " الدين يحث غاية الحث على القناعة برزق الله، وبما آتى العباد من فضله وكرمه المتنوع. فالمؤمن إذا ابتلي بمرض أو فقر، أو نحوه من الأعراض التي كل أحد عرضة لها، فإنه – بإيمانه وبما عنده من القناعة والرضا بما قسم الله له – يكون قرير العين، لا يتطلب بقلبه أمرًا لم يقدر له، ينظر إلى من هو

---

(١) انتصار الحق (مجموع المؤلفات ٦/٩٨، ٩٩)

(٢) البيت لأبي حية النميري، وضبطه:

إني رأيت وفي الأيام تجربة ... للصبر عاقبة محمودة الأثر

وقلّ من جدّ في أمر يطالبه ... فاستصحب الصبر إلا فاز بالظفر

التذكرة الحمدونية (٤/٣٢٢)

(٣) فتح الرحيم الملك العلام (مجموع المؤلفات ٣/٨٣٣)

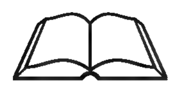
دونه، ولا ينظر إلى من هو فوقه، وربما زادت بهجته وسروره وراحته على من هو متحصل على جميع المطالب الدنيوية، إذا لم يؤت القناعة"[١].

٤- الرضا يهون المصيبة:

قال الشيخ عبد الرحمن السعدي رحمه الله: "المكروه والمصائب إذا ابتلى الله بها العبد، وأدى فيها وظيفة الصبر والرضى والتسليم، هانت وطأتها، وخفت مؤنتها، وكان تأميل العبد لأجرها وثوابها والتعبد لله بالقيام بوظيفة الصبر والرضا، يدع الأشياء المرة حلوة فتنسيه حلاوةُ أجرها مرارة صبرها.

ومن أنفع الأشياء في هذا الموضع استعمال ما أرشد إليه النبي - ﷺ - في الحديث الصحيح حيث قال: (انظروا إلى من هو أسفل منكم، ولا تنظروا إلى من هو فوقكم، فإنه أجدر أن لا تزدروا نعمة الله عليكم) [٢]، فإن العبد إذا نصب بين عينيه هذا الملحظ الجليل رآه يفوق جمعاً كثيراً من الخلق في العافية وتوابعها ، وفي الرزق وتوابعه مهما بلغت به الحال ، فيزول قلقه وهمه وغمه ، ويزداد سروره واغتباطه بنعم الله التي فاق فيها غيره ممن هو دونه فيها .

وكلما طال تأمل العبد بنعم الله الظاهرة والباطنة ، الدينية والدنيوية ، رأى ربه قد أعطاه خيراً ودفع عنه شروراً متعددة ، ولا شك أن هذا يدفع الهموم والغموم ، ويوجب الفرح والسرور"[٣].



---

(١) الوسائل المفيدة (مجموع المؤلفات ٢٦/٤٤)

(٢) أخرجه الترمذي في سننه، أبواب صفة القيامة (٤/ ٢٤٦) ح:(٢٥١٣).

(٣) الوسائل المفيدة (مجموع المؤلفات ٢٦/٤٨)

المبحث التاسع: اليقين

وفيه ثلاثة مطالب:

المسألة الأولى: تعريف اليقين

المسألة الثانية: أنواع أدلة اليقين

المسألة الثالثة: ثمرات اليقين

المسألة الأولى: تعريف اليقين

أولًا: التعريف اللغوي:

اليقين هو مصدر الفعل الثلاثي : يَقِن يَيْقَن يَقَنا فهو يقِن، وهو ضد الشك.

قال ابن فارس : "اليَقين : زَوال الشَّكِّ . يقال يَقِنْت ، واستَيْقَنْت ، وأيْقَنْت"[(١)].

قال الراغب : "اليقين من صفة العلم فوق المعرفة والدراية وأخواتها ، يقال : علم يقين ، ولا يقال : معرفة يقين ، وهو سكون الفهم مع ثبات الحكم"[(٢)].

ويطلق اليقين على الموت، كما في قوله تعالى: ﴿ وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ﴾الحجر:٩٩.

قال السعدي – رحمه الله – في تفسير الآية:"﴿ وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ﴾ أي: الموت"[(٣)].

ومنه قوله – صلى الله عليه وسلم – لما مات عثمان بن مظعون : "أما هو فقد جاءه اليقين"[(٤)].

ثانياً : التعريف الشرعي :

جاء تعريف اليقين عند أهل العلم بعبارات كثيرة متنوعة ، مؤداها واحد ، وهو اعتقاد جازم لا يخالطه شك بحال .

ومما قيل في تعريف اليقين :

---

(١) مقاييس اللغة (١٥٧/٦)

(٢) المفردات (ص٨٩٢)

(٣) تفسير السعدي (مجموع المؤلفات ٦١٤/٢)

(٤) رواه البخاري في صحيحه، كتاب الجمعة، باب الدخول على الميت بعد الموت إذا أدرج في كفنه (٢/ ٧٢) ح:(١٢٤٣).

- عرفه الجنيد بقوله : "استقــرار العلم الذي لا ينقلب ، ولا يحول ، ولا يتغير في القلب"(١).
- وقال ابن الجوزي : "اليقين ما حصلت به الثقة ، وثلج به الصدر ، وهو أبلغ علم مكتسب"(٢).

وعرفه السعدي بقوله : "اليقين : هو العلم التام الذي ليس فيه أدنى شك ، الموجب للعمل"(٣).

وفي هذا التعريف إشارة إلى ثمرة اليقين ، وهو ما أوجب عملاً .

وقال رحمه الله مبينا الفرق بين اليقين والعلم : " العلم واليقين : فالعلم هو تصور المعلومات على ما هي عليه ، ولهذا يقال : العلم ما قام عليه الدليل ، والعلم النافع : ما كان مأخوذا عن الرسول ، واليقين أخص من العلم بأمرين :

أحدهما : أنه العلم الراسخ القوي الذي ليس عرضة للريب والشك والموانع ، ويكون علم يقين إذا ثبت بالخبر ، وعين يقين إذا شاهدته العين والبصر ، ولهذا يقال : ليس الخبر كالمعاينة ، وحق يقين إذا ذاقه العبد وتحقق به .

الأمر الثاني : أن اليقين هو العلم الذي يحمل صاحبه على الطمأنينة بخبر الله ، والطمأنينة بذكر الله ، والصبر على المكاره ، والقوة في أمر الله ، والشجاعة القولية والفعلية ، والاستحلاء للطاعات ، وأن يهون على العبد في ذات الله المشقات وتحمل الكريهات ، فهذه الآثار الجميلة - التي هي أعلى وأحلى من كل شيء - من آثار اليقين "(٤).



---

(١) مدارج السالكين (٢/٢٩٤)

(٢) زاد المسير (١/٢٩).

(٣) تفسير السعدي (مجموع المؤلفات ٢/١٠٦)

(٤) تيسير اللطيف المنان (مجموع المؤلفات ٣/٣٢٤)

المسألة الثانية: أنواع أدلة اليقين

١- اليقين من أعظم صفات المؤمنين، ولا تحصل الهداية إلا به:

قال تعالى: ﴿ الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ۝٣ وَٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَ وَبِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ ۝٤ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدٗى مِّن رَّبِّهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴾ البقرة:١ – ٥.

قال السعدي رحمه الله: "فلما اشتمل على اليقين، وكانت الهداية لا تحصل إلا باليقين قال: ﴿ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ ﴾، والهدى: ما تحصل به الهداية من الضلالة والشبه، وما به الهداية إلى سلوك الطرق النافعة، ...ثم قال: ﴿ وَبِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ ﴾، و(الآخرة): اسم لما يكون بعد الموت، وخصه [بالذكر] بعد العموم، لأن الإيمان باليوم الآخر، أحد أركان الإيمان؛ ولأنه أعظم باعث على الرغبة والرهبة والعمل، و(اليقين): هو العلم التام الذي ليس فيه أدنى شك، الموجب للعمل"(١).

وقال تعالى: ﴿ طسٓۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡقُرۡءَانِ وَكِتَابٖ مُّبِينٍ ۝١ هُدٗى وَبُشۡرَىٰ لِلۡمُؤۡمِنِينَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ ﴾ النمل:١ – ٣.

قال السعدي رحمه الله: "أي: قد بلغ معهم الإيمان إلى أن وصل إلى درجة اليقين، وهو العلم التام الواصل إلى القلب الداعي إلى العمل.ويقينهم بالآخرة يقتضي كمال

---

(١) تفسير السعدي (مجموع المؤلفات ١٠٦/٢)

سعيهم لها، وحذرهم من أسباب العذاب وموجبات العقاب، وهذا أصل كل خير"[١].

٢- يذكر الله بعض حِكَمِه في بعض أفعاله، ليصل العبد إلى مرتبة اليقين:

قال تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلۡمُوقِنِينَ ﴾ الأنعام:٧٥.

وخيار الخلق – أيضًا – يطلبون ويتنافسون في الوصول إلى عين اليقين، بعد علم اليقين، وإلى حق اليقين .كما قال الله عن إبراهيم عليه السلام: ﴿ وَإِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِي كَيۡفَ تُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰۖ قَالَ أَوَلَمۡ تُؤۡمِنۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطۡمَئِنَّ قَلۡبِيۖ قَالَ فَخُذۡ أَرۡبَعَةٗ مِّنَ ٱلطَّيۡرِ فَصُرۡهُنَّ إِلَيۡكَ ثُمَّ ٱجۡعَلۡ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٖ مِّنۡهُنَّ جُزۡءٗا ثُمَّ ٱدۡعُهُنَّ يَأۡتِينَكَ سَعۡيٗاۚ وَٱعۡلَمۡ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ﴾ البقرة:٢٦٠، وقال تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلۡمُوقِنِينَ ﴾ الأنعام:٧٥.

قال الشيخ عبد الرحمن السعدي رحمه الله: "﴿ وَكَذَٰلِكَ ﴾ حين وفقناه للتوحيد والدعوة إليه ﴿ نُرِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ﴾، أي: ليرى ببصيرته، ما اشتملت عليه من الأدلة القاطعة، والبراهين الساطعة ﴿ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلۡمُوقِنِينَ ﴾، فإنه بحسب قيام الأدلة يحصل له الإيقان والعلم التام بجميع المطالب"[٢].

٣- ذم من لم يتصف باليقين:

قال تعالى: ﴿ وَإِذَا وَقَعَ ٱلۡقَوۡلُ عَلَيۡهِمۡ أَخۡرَجۡنَا لَهُمۡ دَآبَّةٗ مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ تُكَلِّمُهُمۡ أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ ﴾ النمل:٨٢.

قال الشيخ عبد الرحمن السعدي رحمه الله: "أي: تكلم العباد أن الناس كانوا

---

(١) تفسير السعدي (مجموع المؤلفات ٨٣٧/٢)

(٢) تفسير السعدي (مجموع المؤلفات ٣٧٦/٢)

بآياتنا لا يوقنون، أي: لأجل أن الناس ضعف علمهم ويقينهم بآيات الله، فإظهار الله هذه الدابة من آيات الله العجيبة ليبين للناس ما كانوا فيه يمترون"[(١)].



(١) تفسير السعدي (مجموع المؤلفات ٢/٨٤٩)

المسألة الثالثة: ثمرات اليقين

لليقين ثمرات جليلة، منها:

١- أهل اليقين هم المنتفعون بالآيات والبراهين:

قال تعالى: ﴿ وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ ﴾ الذاريات:٢٠.

قال السعدي - رحمه الله - في سياق ذكر فوائد قصة يوسف: "ومنها أن آيات الله إنما ينتفع بها السائل المستهدي الذي قصده معرفة الحق وأتباعه لقوله: ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِلسَّائِلِينَ ﴾ يوسف:٧.

أما الغافلون المعرضون أو المعارضون المعاندون فإنه يصدق عليهم قوله تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ (٩٦) وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴾يونس:٩٦ - ٩٧، فالنظر في آيات الله المتلوة وآيات الله الكونية تنفع من قصده الحق، كما قال تعالى: ﴿ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ ... ﴾ المائدة:١٦، كم في القرآن تقييد الانتفاع بهذا القيد، مثل: إن في ذلك لآيات للمؤمنين، لآيات للموقنين، لآيات لأولي الألباب، لأولي الألباب والأبصار"[١].

٢- سبب لنيل الإمامة في الدين:

قال السعدي - رحمه الله - في تفسير قوله تعالى: "﴿ ... وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴾ الفرقان:٧٤، أي: أوصلنا يا ربنا إلى هذه الدرجة العالية، درجة الصديقين والكمل من عباد الله الصالحين، وهي درجة الإمامة في الدين، وأن يكونوا قدوة للمتقين في أقوالهم وأفعالهم، يقتدى بأفعالهم، ويطمئن لأقوالهم، ويسير أهل الخير خلفهم، فيهدون ويهتدون.

ومن المعلوم أن الدعاء ببلوغ شيء دعاء بما لا يتم إلا به، وهذه الدرجة - درجة

---

(١) فوائد مستنبطة من قصة يوسف (مجموع المؤلفات ٣/٧٨٣)

الإمامة في الدين – لا تتم إلا بالصبر واليقين كما قال تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَيِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴾ السجدة:٢٤، فهذا الدعاء يستلزم من الأعمال والصبر على طاعة الله، وعن معصيته وأقداره المؤلمة، ومن العلم التام الذي يوصل صاحبه إلى درجة اليقين، خيرًا كثيرًا وعطاء جزيلًا، وأن يكونوا في أعلى ما يمكن من درجات الخلق بعد الرسل"[1].

وفي تفسير قوله تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَيِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴾، قال الشيخ السعدي رحمه الله: "﴿ وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴾، أي: وصلوا في الإيمان بآيات اللّه إلى درجة اليقين، وهو العلم التام، الموجب للعمل، وإنما وصلوا إلى درجة اليقين؛ لأنهم تعلموا تعلمًا صحيحًا، وأخذوا المسائل عن أدلتها المفيدة لليقين.

فما زالوا يتعلمون المسائل، ويستدلون عليها بكثرة الدلائل، حتى وصلوا لذاك، فبالصبر واليقين تُنَالُ الإمامة في الدين"[2].

٣- طمأنينة القلب:

قال الشيخ عبد الرحمن السعدي – رحمه الله – موضحًا أثر اليقين على القلب: "وأما آثاره القلبية فسكون القلب وطمأنينته، كما قال إبراهيم: ﴿ ...وَلَكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي... ﴾ البقرة:٢٦٠، ... فإن العبد إذا وصل إلى درجة اليقين في علومه اطمأن قلبه لعقائد الإيمان كلها، واطمأن قلبه لحقائق الإيمان وأحواله التي تدور على محبة الله وذكره، وهما متلازمان، قال تعالى: ﴿ ... أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ﴾ الرعد:٢٨، فتسكن القلوب عند الأخبار فلا يبقى في القلب شك ولا ريب في كل خبر أخبر الله به في كتابه وعلى لسان رسوله، بل يفرح بذلك مطمئنًا عالمًا أن هذا أعظم فائدة حصَّلتها القلوب، ويطمئن عند الأوامر والنواهي مكملًا للمأمورات، تاركًا للمنهيات، راجيًا

---

(١) تفسير السعدي (مجموع المؤلفات ٢/٨١٩)

(٢) تفسير السعدي (مجموع المؤلفات ٢/٩١٠)

لثواب الله، واثقًا بوعده.

ويطمئن - أيضًا - عند المصائب والمكاره، فيتلقاها بانشراح صدر واحتساب، ويعلم أنها من عند الله فيرضى ويسلِّم، فيخف عليه حملها، ويهون عليه ثقلها، وقد علم بذلك آثارها البدنية، فإن الأعمال البدنية مبنية على أعمال القلوب، فأهل اليقين هم أكمل الخلق في جميع صفات الكمال، فإن اليقين روح الأعمال والأخلاق وحاملها، والله هو الموفق الواهب له ولأسبابه"(١).

قال الشيخ عبد الرحمن السعدي رحمه الله: " قيل: إن المراد بذكر الله كتابه الذي أنزله ذكرى للمؤمنين، فعلى هذا معنى طمأنينة القلوب بذكر الله: أنها حين تعرف معاني القرآن وأحكامه تطمئن لها، فإنها تدل على الحق المبين المؤيد بالأدلة والبراهين، وبذلك تطمئن القلوب، فإنها لا تطمئن القلوب إلا باليقين والعلم، وذلك في كتاب الله، مضمون على أتم الوجوه وأكملها، وأما ما سواه من الكتب التي لا ترجع إليه فلا تطمئن بها، بل لا تزال قلقة من تعارض الأدلة وتضاد الأحكام"(٢).

وقال الشيخ عبد الرحمن السعدي رحمه الله: "وأصل الحياة الطيبة طيب القلب، وراحته وسروره، والقناعة والرضا عن الله، فلو كان المؤمن الصادق في أضيق عيش لكانت هذه الحياة الطيبة حاصلة له بوعد الله الصادق الذي لا يخلف الميعاد.

وقال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴾، وحصول طمأنينة قلوب المؤمنين الصادقين بذكر اللهِ والإنسِ به وبعبادتِهِ أمرٌ لا يمتري فيه أحد من أهل الذوق والوجد.

وَمَا يجده أهل الإحسان الصادقون من ذوق حلاوة الإيمان، وحقائق اليقين والإنس بذكر الله، والطمأنينة به، والأحوالِ الزكية والشواهد المرضية، على ما أخبر به الرسول أجلُّ وأعظم من كثير من البراهين الحسية، فإنَّهم وصلوا في هذه الأمور إلى حق اليقين الذي هو أعلى مراتب اليقين والحق"(٣).

---

(١) تيسير اللطيف المنان (مجموع المؤلفات ٢٩٨/٣ ، ٢٩٩)

(٢) تفسير السعدي (مجموع المؤلفات ٥٨٨/٢)

(٣) فتح الرحيم الملك العلام (مجموع المؤلفات ٨٢٣/٣)

المبحث العاشر: التفكر

وفيه ثلاثة مطالب:

المسألة الأولى: تعريف التفكر

المسألة الثانية: أنواع أدلة التفكر

المسألة الثالثة: ثمرات التفكر

المسألة الأولى: تعريف التفكر

أولًا: التعريف اللغوي:

التفكر مصدر مأخوذ في اللغة من الفعل الرباعي تفكر يتفكر تفكرا .

قال ابن فارس : "الفاء والكاف والراء : أصل في اللغة يدل على تردد القلب في الشيء ؛ يقال : تفكر إذا ردَّد قلبه معتبراً"[(١)].

وقال الراغب رحمه الله : "الفكرة قوةٌ مُطرِقة للعلم إلى المعلوم ، والتفكر جولان تلك القوة بحسب نظر العقل ، وذلك للإنسان دون الحيوان ، ولا يقال إلا فيما يمكن أن يحصل له صورة في القلب ... قال بعض الأدباء : الفكر مقلوب عن الفرك ، لكن يستعمل الفكر في المعاني ؛ وهو فرك الأمور وبحثها طلباً للوصول إلى حقيقتها"[(٢)].

ثانياً : التعريف الشرعي :

عرفه الراغب بأنه "تصرّف القلب في معاني الأشياء لدرك المطلوب"[(٣)]

وأشار الشيخ عبد الرحمن السعدي رحمه الله إلى المعنى العام للتفكر : "والفرق بين التبصرة والتذكرة في مثل قوله ﴿ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴿٨﴾ ﴾ ق: ٨ بالشيء والتبصر فيه ، والتذكرة هي العمل بالعلم اعتقاداً وعملاً ، وتوضيح هذا أن العلم التام النافع يفتقر إلى ثلاثة أمور : التفكر أولاً في آيات الله المتلوة والمشهودة ، فإذا تفكر أدرك ما تفكر فيه بحسب فهمه وذكائه ، فعرف ما تفكر فيه وفهمه ، وهذا هو التبصرة ، فإذا علمه عمل به ، فإن كان اعتقاداً وإيماناً صدقه بقلبه وأقرَّ به واعترف ، وإن اقتضى عملاً قلبياً أو قولياً أو بدنياً عمل به ، وهذا هو التذكر وهو التذكرة ،

---

(١) مقاييس اللغة (٤/٤٤٦)

(٢) المفردات (٦٤٣).

(٣) التعريفات للجرجاني (ص٦٣).

وحاصل ذلك هو معرفة الحق واتباعه ، ومعرفة الباطل واجتنابه"[١].

وبيَّن الشيخ عبد الرحمن السعدي رحمه الله ما يكون به التفكر فقال : " قد أمر الله في كتابه بالتفكر والتدبر والنظر والتبصر ، وغيرها من الطرق التي تنال بها العلوم ، وأثنى على أهلها ، وأخبر أن كتابه أنزل لهذه الحكم ، وأثنى على العلم واليقين ومدح أهلهما ، ونهج جميع طريق يوصل إليها .

فاعلم أن الذي يجمع أشتات هذه الطرق وأنواعها وأجناسها ثلاثة طرق كلية : أحدها : طريق الإخبارات الصادقة ، والثاني : طريق الحس ، والثالث : طريق العقل ، ووجه الحصر أن المعلومات إما أن تدرك بحاسة السمع أو البصر أو اللمس أو الذوق ، وإما أن تدرك بالعقل ، وإما أن تنال بالإخبار ، وكل واحد من هذه الثلاثة قد يقارن الآخر ، وخصوصاً العقل والأخبار الصادقة فإنهما لا يتفارقان .

وقد يكون العلم ضرورياً بديهياً يضطر الإنسان إلى علمه ، والتصديق به من غير حاجة إلى زيادة نظر وتفكر ، وقد يكون نظرياً يحتاج إلى ذلك . ثم العلم بهذه الأمور مراتب متفاوتة ، وأعلى درجات العلم واليقين وأوضحها وأنفعها للعباد خبر الله وخبر رسله ، فإنه لا أصدق من الله قيلاً ، ولا أصدق منه حديثاً ﴿ وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ ﴿٤﴾ ﴾ الأحزاب: ٤ "[٢].

---

(١) تيسير اللطيف المنان (مجموع المؤلفات ٣/٢٨٩)

(٢) تيسير اللطيف المنان (مجموع المؤلفات ٣/٣٠٩)

المسألة الثانية : أنواع أدلة التفكر

التفكر والنظر في آيات الله تعالى الكونية مما ندب إليه القرآن الكريم في آيات كثيرة، وأخبر الله تعالى أنه من صفات عباده المقربين، وفيما يأتي عَرض لوجهين من الأدلة التي جاءت في الباب.

١- أمر الله به، وندب إليه:

قال الشيخ عبد الرحمن السعدي رحمه الله: "وقد أمر الله بالتفكر والتدبر في السماوات والأرض وما خلق الله من شيء ، وحث على استعمال الفكر في آياته المخلوقة وفي آياته القرآنية: ﴿ قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَمَا تُغۡنِي ٱلۡأٓيَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوۡمٖ لَّا يُؤۡمِنُونَ ﴾ يونس:١٠١، ﴿ قُلۡ سِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلُۚ كَانَ أَكۡثَرُهُم مُّشۡرِكِينَ ﴾ الروم:٤٢، ﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴾ ص:٢٩، فقد أمر باستعمال العقل والفكر في آياته المخلوقة وفي آياته المتلوة ليدرك العبد بعقله ما في المخلوقات من المنافع والآيات فيفقهها ، ويستعملها وينتفع بها بحسب أحوالها ، وأخبر أنها آيات لقوم يؤمنون ، ولقوم يعقلون ، ولقوم يوقنون ؛ فأهل الإيمان والعقل الصحيح واليقين الصادق تفكروا فيها وانتفعوا وارتفعوا في الدنيا والآخرة"[١].

وقال تعالى: ﴿ إِنَّ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ لَأٓيَٰتٖ لِّأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ ١٩٠ ٱلَّذِينَ يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمٗا وَقُعُودٗا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمۡ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ رَبَّنَا مَا خَلَقۡتَ هَٰذَا بَٰطِلٗا سُبۡحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴾ آل عمران:١٩٠-١٩١.

قال الشيخ عبد الرحمن السعدي رحمه الله: "يخبر تعالى: ﴿ إِنَّ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ لَأٓيَٰتٖ لِّأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴾، وفي ضمن ذلك

---

(١) الدلائل القرآنية (مجموع المؤلفات ٥٦٩/٣)

حث العباد على التفكر فيها، والتبصر بآياتها، وتدبر خلقها، وأبهم قوله: ﴿ءَايَٰتٍ﴾ - ولم يقل: على المسألة الفلاني - إشارة لكثرتها وعمومها، وذلك لأن فيها من الآيات العجيبة ما يبهر الناظرين، ويقنع المتفكرين، ويجذب أفئدة الصادقين، وينبه العقول النيرة على جميع المطالب الإلهية"[١].

٢- التفكر من صفات عباد الله الصالحين:

قال الشيخ عبد الرحمن السعدي - رحمه الله - في قوله تعالى: ﴿...وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ...﴾ آل عمران:١٩١، أي: ليستدلوا بها على المقصود منها، ودل هذا على أن التفكر عبادة من صفات أولياء الله العارفين، فإذا تفكروا بها، عرفوا أن الله لم يخلقها عبثًا، فيقولون: ﴿...رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ ...﴾ عن كل ما لا يليق بجلالك، بل خلقتها بالحق وللحق، مشتملة على الحق"[٢].

وقد جاء عن النبي - ﷺ - في شأن التفكر ما يدل على اهتمامه به فقد روي عن عطاء قال: "دخلت أنا وعبيد بن عمير على عائشة، فقالت لعبيد بن عمير: قد آن لك أن تزورنا، فقال: أقول يا أمه كما قال الأول: زر غبًا تزدد حبًا. قال فقالت: دعونا من رطانتكم[٣] هذه.قال ابن عمير: أخبرينا بأعجب شيء رأيته من رسول الله ﷺ، قال: فسكتت ثم قالت: لما كانت ليلة من الليالي قال: يا عائشة، ذريني أتعبد الليلة لربي، قلت والله إني لأحب قربك وأحب ما سرك. قالت: فقام فتطهر ثم قام يصلي.قالت: فلم يزل يبكي حتى بل حجره، قالت: ثم بكى فلم يزل يبكي حتى بل لحيته، قالت: ثم بكى فلم يزل يبكي حتى بل الأرض، فجاء بلال يؤذنه بالصلاة، فلما رآه يبكي.قال: يا رسول الله، لم تبكي وقد غفر الله لك ما تقدم وما تأخر؟ قال: أفلا أكون عبدًا شكورًا، لقد نزلت علي الليلة آية، ويل لمن قرأها ولم يتفكر فيها: ﴿إِنَّ فِي

---

(١) تفسير السعدي (مجموع المؤلفات ٢/٢٤٦)

(٢) تفسير السعدي (مجموع المؤلفات ٢/٢٤٦)

(٣) الرَّطَانَةُ بِفَتْحِ الرَّاءِ وَكَسْرِهَا، والتَّرَاطُنُ: كَلَامٌ لَا يَفْهمه الْجُمْهُورُ، وَإِنَّمَا هُوَ مُواضَعة بَيْنَ اثْنَيْنِ أَوْ جَمَاعَةٍ، وَالْعَرَبُ تَخُص بِهَا غَالِبًا كلامَ الْعَجَمِ. (النهاية في غريب الحديث ٢/٢٣٣)

خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ لَأٓيَٰتٖ لِّأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ ١٩٠ ٱلَّذِينَ يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمٗا وَقُعُودٗا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمۡ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ رَبَّنَا مَا خَلَقۡتَ هَٰذَا بَٰطِلٗا سُبۡحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ١٩١ رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدۡخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدۡ أَخۡزَيۡتَهُۥۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنۡ أَنصَارٖ ﴾آل عمران: ١٩٠-١٩٢" [١].

قال ابن القيّم رحمه الله : أصل الخير والشرّ من قبل التّفكّر ؛ فإنّ الفكر مبدأ الإرادة والطّلب في الزّهد والتّرك والحبّ والبغض . وأنفعُ الفكرِ الفكرُ في مصالح المعاد ، وفي طرق اجتلابها ، وفي دفع مفاسد المعاد ، وفي طرق اجتنابها ، فهذه أربعة أفكار هي أجلّ الأفكار"[٢].



(١) رواه ابن حبان في صحيحه، (٢/ ٣٨٧) ، وصححه الألباني في الصحيحة (١/٦٧).

(٢) الفوائد (ص١٩٨)

المسألة الثالثة: ثمرات التفكر

١- التفكر سبب لانشراح الصّدر وزيادة الإيمان واليقين:

قال الشيخ عبد الرحمن السعدي - رحمه الله - مبينًا كون التفكر من أسباب طمأنينة القلب: "فأهل الإيمان والعقل الصحيح واليقين الصادق تفكروا فيها وانتفعوا وارتفعوا في الدنيا والآخرة ... فالعاقل الموفق كلما تفكر في الكون وفهم أسراره وحكمه امتلأ قلبه إيمانًا ويقينًا ، وقال: سبحان الله عن أن يخلق شيئًا عبثًا أو سدى ، وسبحانه أن تكون أفعاله البديعة خالية من الحكم والغايات الحميدة ، وسبحان من خلق هذا الكون العجيب المحكم في نظامه واتساقه وارتباط بعضه ببعض ما بين أرضه وسمائه وإنسانه وحيوانه ونباته فعرف أن خالقها ومدبرها رب واحد وإله واحد فتوجه إليه بالإيمان والاعتراف والشكر والطاعة ، وخضع لحكمته وعظمته وسلطانه"[(١)].

وقال تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ يُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥﴾ إِنَّ فِى ٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَـَٔايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ ﴾ يونس:٥-٦.

قال الشيخ عبد الرحمن السعدي رحمه الله: "وفي هذه الآيات الحث والترغيب على التفكر في مخلوقات الله، والنظر فيها بعين الاعتبار، فإن بذلك تنفتح البصيرة، ويزداد الإيمان والعقل، وتقوى القريحة، وفي إهمال ذلك تهاون بما أمر الله به، وإغلاق لزيادة الإيمان، وجمود للذهن والقريحة"[(٢)].

وقال الشيخ عبد الرحمن السعدي رحمه الله: "وجعل الله مفتاح الإيمان واليقين التفكر في آيات الله المتلوة، وآياته المشهودة، والمقابلة بين الحق والباطل بحسن فهم وقوة بصيرة، شاهده قوله تعالى: ﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟

---

(١) الدلائل القرآنية (مجموع المؤلفات ٣/٥٦٩)

(٢) تفسير السعدي (مجموع المؤلفات ٢/٥٠٧)

﴿ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴾ ص:٢٩. والأمر بالتفكر بالمخلوقات في عدة آيات، وقوله: ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةً لِّلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾الحجر:٧٧، فهي سبب للإيمان، والإيمان موجب للانتفاع بها"(١).

وقال الشيخ عبد الرحمن السعدي رحمه الله : "وظيفة المؤمن التفكر بجميع آيات الله ، التي دعا الله العباد إلى التفكير فيها ، فإنها مفتاح الإيمان ، وطريق العلم والإيقان"(٢).

٢- التفكر يورث شكر النعم:

قال الشيخ عبد الرحمن السعدي رحمه الله: "﴿ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعًا مِّنۡهُ... ﴾ الجاثية:١٣، أي: من فضله وإحسانه، وهذا شامل لأجرام السماوات والأرض، ولما أودع الله فيهما من: الشمس والقمر والكواكب والثوابت والسيارات وأنواع الحيوانات وأصناف الأشجار والثمرات وأجناس المعادن، وغير ذلك مما هو معد لمصالح بني آدم ومصالح ما هو من ضروراته، فهذا يوجب عليهم أن يبذلوا غاية جهدهم في شكر نعمته، وأن تتغلغل أفكارهم في تدبر آياته وحكمه؛ ولهذا قال: ﴿ ... إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٍ لِّقَوۡمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾، وجملة ذلك أن خلقها وتدبيرها وتسخيرها دال على نفوذ مشيئة الله وكمال قدرته، وما فيها من الإحكام والإتقان وبديع الصنعة وحسن الخلقة دال على كمال حكمته وعلمه، وما فيها من السعة والعظمة والكثرة دال على سعة ملكه وسلطانه، وما فيها من التخصيصات والأشياء المتضادات دليل على أنه الفعال لما يريد، وما فيها من المنافع والمصالح الدينية والدنيوية دليل على سعة رحمته، وشمول فضله وإحسانه وبديع لطفه وبره، وكل ذلك دال على أنه وحده المألوه المعبود الذي لا تنبغي العبادة والذل والمحبة إلا له، وأن رسله صادقون فيما جاءوا به، فهذه أدلة عقلية واضحة لا تقبل ريبًا ولا شكًا"(٣).

---

(١) تيسير اللطيف المنان (مجموع المؤلفات ٣/٣١٨)

(٢) تفسير السعدي (مجموع المؤلفات ٢/٦٦٣)

(٣) تفسير السعدي (مجموع المؤلفات ٢/١٠٧٣)

وشأن المؤمنين أنهم: "يستدلون بها ويتفكرون بها وينتفعون فيرتفعون، وهم المؤمنون بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر إيمانًا تامًا وصل بهم إلى درجة اليقين، فزكى منهم العقول وازدادت به معارفهم وألبابهم وعلومهم"[1].

٣- التفكر سبب لاستخراج العلوم والمنافع الدنيوية:

قال الشيخ عبد الرحمن السعدي - رحمه الله - في سياق الحديث عن إرشادات القرآن، فبيّن أن القرآن يرشد "إلى استخراج الأشياء النافعة من أصول معروفة، ويعمل الفكر في استفادة المنافع منها ..."[2]، والله عز وجل "أخبر أنه سخرها لمصالحنا ومنافعنا، وأنزل الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس: ﴿ ... وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعًا مِّنۡهُ ﴾ الجاثية:١٣، فنبه العقول على التفكر فيها، واستخراج أنواع العلوم والفوائد منها.

وذلك أننا إذا فكرنا فيها، ونظرنا حالها وأوصافها وانتظامها، ولأي شيء خلقت؟ ولأي فائدة أبقيت ؟ وماذا فيها من الآيات ؟ وما احتوت عليه من المنافع؟ أفادنا هذا الفكر فيها علمين جليلين:

أحدهما: أننا نستدل بها على ما لله من صفات الكمال والعظمة، والحكم البالغة، وما له من النعم الواسعة والأيادي المتكاثرة، وعلى صدق ما أخبر به من المعاد والجنة والنار، وعلى صدق رسله وحقيقة ما جاءوا به.

وهذا النوع قد أكثر منه أهل العلم، وكلٌّ ذكر ما وصل إليه علمه، فإن الله أخبر أن الآيات إنما ينتفع بها أولو الألباب.

وهذا أجل العِلْمين وأعلاهما، وأكملهما.

والعلم الثاني: أننا نتفكر فيها ونستخرج منها المنافع المتنوعة، فإن الله سخرها لنا، وسلطنا على استخراج جميع ما لنا فيها من المنافع والخيرات الدينية والدنيوية.فذلل لنا

---

(١) تفسير السعدي (مجموع المؤلفات ١٠٧٢/٢)

(٢) القواعد الحسان (مجموع المؤلفات ٤٢٧/٣)

أرضها لنحرثها ونزرعها ونغرسها، ونستخرج معادنها وبركتها، وجعلها طوع علومنا وأعمالنا لنستخرج منها الصناعات النافعة.فجميع فنون الصناعات على كثرتها وتنوعها وتفوقها، لاسيما في هذه الأوقات، كل ذلك داخل في تسخيرها لنا.وقد عُرفت الحاجة بل الضرورة في هذه الأوقات إلى استنباط المنافع، وترقية الصنائع إلى ما لا حد له.وقد ظهر في هذه الأوقات من موادها وعناصرها أمور فيها فوائد عظيمة للخلق"[(١)].

وقد بين الشيخ عبد الرحمن السعدي – رحمه الله – سبيل القيام بهذه العبادة الجليلة فقال: "إذا تفكرنا في هذا الكون العظيم، عرفنا أنه لم يوجد بغير موجد، ولا أوجد نفسه . هذا أمر بديهي، فتيقنا أن الذي أوجده هو الأول الذي ليس قبله شيء، وهو الآخر الذي ليس بعده شيء، كامل القدرة عظيم السلطان واسع العلم، وأن إعادتنا في النشأة الثانية للجزاء أسهل من هذا بكثير: ﴿ لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ ... ﴾ غافر:٥٧، وعرفنا بذلك أنه الحي القيوم.

وإذا نظرنا ما فيها من الإحكام والإتقان والإبداع عرفنا بذلك كمال حكمة الله وحسن خلقه وسعة علمه، وعرفنا من آثار حكمته فينا وفي هذا الوجود أنه ما خلقنا لهذه الحياة قصدًا وإنما خلقنا لنستعد فيها للنشأة الأخرى.

وإذا رأينا ما فيها من المنافع والمصالح الضرورية والكمالية التي لا تحصى، عرفنا بذلك أن الله واسع الرحمة، عظيم الفضل والبر والإحسان، والجود والامتنان، وإذا رأينا ما فيها من التخصيصات، فإن ذلك دال على إرادة الله ونفوذ مشيئته، ونعرف بذلك كله أن مَنْ هذه أوصافه وهذا شأنه؛ هو الذي لا يستحق العبادة أحد إلا هو، وأنه المحبوب المحمود ذو الجلال والإكرام الذي لا تنبغي الرهبة إلا إليه، ولا ينبغي صرف خالص الدعاء إلا له؛ لأن غيره من المخلوقات المربوبات مفتقرات إليه وحده في جميع شئونها"[(٢)].



(١) القواعد الحسان (مجموع المؤلفات ٣/٤٢٧)

(٢) القواعد الحسان (مجموع المؤلفات ٣/٥١٣، ٥١٤)

المبحث الحادي عشر: التوبة

وفيه ثلاثة مطالب:

المسألة الأولى: تعريف التوبة

المسألة الثانية: الأدلة على التوبة

المسألة الثالثة: ثمرات التوبة

المسألة الأولى: تعريف التوبة

أولًا: التعريف اللغوي:

كلمة التوبة مأخوذة في اللغة من الفعل الثلاثي : تاب يتوب توباً وتوبة ومتاباً ، وأصلها التاء والواو والباء (توب) .

وهي تدل على الرجوع والندم والإنابة . قال ابن فارس : "التاء والواو والباء كلمةٌ واحدةٌ تدلُّ على الرُّجوع . يقال : تابَ مِنْ ذنبه ، أي رَجَعَ عنه ، يتوب إلى الله تَوبةً ومَتَاباً ، فهو تائب"(١).

قال ابن منظور: "التَّوْبةُ الرُّجُوعُ من الذَّنْبِ ، وفي الحديث : النَّدَمُ تَوْبةٌ . والتَّوْبُ مثلُه ، وقال الأَخفش : التَّوْبُ جمع تَوْبةٍ مثل عَزْمةٍ وعَزْمٍ ، وتابَ إِلى اللّهِ يَتُوبُ تَوْباً وتَوْبةً ومَتاباً : أَنابَ ورَجَعَ عن المَعْصيةِ إِلى الطاعةِ"(٢).

قال الفيروز آبادي : "تابَ إلى الله تَوْباً وتَوْبَةً ومَتاباً وتابَةً وتَتْوِبَةً : رَجَعَ عن المَعْصيَة ، وهو تائِبٌ وتَوَّابٌ . وتابَ الله عليه : وفَّقَه للتَّوبةِ أو رَجَعَ به من التَّشْدِيد إلى التَّخْفيفِ أو رجَعَ عليه بِفَضْلِهِ وقبوله ، وهو تَوَّابٌ على عبادِه"(٣).

قال الأزهري : "أصل (تاب) عاد إلى الله ورجع وأناب ، وتاب الله عليه ، أي : عاد عليه بالمغفرة ... والله التواب يتوب على عبده بفضـله إذا تاب إليه من ذنبه ، واستتبت فلاناً ، أي : عرضت عليه التوبة مما اقترف ، أي : الرجوع والندم على ما فرط منه"(٤).

والتوبة تكون من الله على العبد، ومن العبد إلى الله؛ فإذا كانت من العبد فإنها تُعدَّى بـ (إلى)، وإذا كانت من الله فإنها تُعدَّى بـ (على)، وشاهد هذا قوله تعالى:

---

(١) مقاييس اللغة (٣٥٧/١).

(٢) لسان العرب (٤٥٤/١).

(٣) القاموس المحيط (ص٦٢).

(٤) تهذيب اللغة (٢٣٧/٧).

﴿ إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ... ﴾النساء:١٧، وقوله تعالى: ﴿ وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ... ﴾النور:٣١.

ثانياً: التعريف الشرعي:

مما عُرِّفت به التوبة إلى الله شرعاً :

- قال ابن جرير الطبري : "معنى التوبة من العبد إلى ربه : إنابته إلى طاعته وأوبته إلى ما يرضيه ، بتركه ما يسخطه من الأمور التي كان عليها مقيماً مما يكرهه ربه"[١].
- عرفها القرطبي بقوله : "هي الندم بالقلب ، وترك المعصية في الحال ، والعزم على ألا يعود إلى مثلها ، وأن يكون ذلك حياء من الله"[٢].

  وفيه إشارة إلى شروط التوبة ، ونلحظ أنه زاد شرطاً رابعاً وهو الإخلاص ، لا قصد مصلحة أو خوف الناس .
- وعرفها الراغب الأصفهاني بقوله : "التوبة ترك الذنب لقبحه ، والندم على ما فرط منه ، والعزيمة على ترك المعاودة ، وتدارك ما أمكنه أن يتدارك من الأعمال بالإعادة ، فمتى اجتمعت هذه الأربع فقد كمل شرائط التوبة"[٣].
- وقال ابن القيم "التوبة النصوح : هي الندم على ما سلف منه في الماضي ، والإقلاع عنه في الحال ، والعزم على ألا يعاوده في المستقبل"[٤].

وقد عرف السعدي – رحمه الله – التوبة ، فقال : "هي الرجوع مما يكرهه الله ، ظاهراً وباطناً ، إلى ما يحبه ظاهراً وباطناً"[٥].

---

(١) تفسير ابن جرير (٥٤٧/١).

(٢) الجامع لأحكام القرآن (٩١/٥)

(٣) المفردات (ص١٦٩).

(٤) مدارج السالكين (١٩٩/١).

(٥) تفسير السعدي (مجموع المؤلفات ٧٩٢/٢)

وفي تعريف السعدي إشارة إلى ما يتضمنه لفظ التوبة ، وأنه كما أنه يتضمن الإقلاع والرجوع ، فهو كذلك يتضمن فعل الطاعة لله سبحانه ، وهـذا المعنى أشـار إليه ابن القيم – رحمه الله – بعبارة أوضح ، فقال : "حقيقة التوبة الرجوع إلى الله بالتزام فعل ما يحب وترك ما يكره ، فهي رجوع من مكروه إلى محبوب ، فالرجوع إلى المحبوب جزء مسماها ، والرجوع عن المكروه الجزء الآخر"[(١)].

(١) مدارج السالكين (٣١٣/١)

المسألة الثانية : أنواع أدلة التوبة

الوجوه التي جاءت عليها التوبة في النصوص، وكان للسعدي رحمه الله فيها حديث تنتظم فيما يلي :

١- أمر الله بها:

وفي أمره سبحانه بها دلالة على وجوبها وكونها محبوبة له عز وجل، وقد أشار الشيخ عبد الرحمن السعدي - رحمه الله - لهذا فقال: "أمر الله تعالى بالتوبة، فقال: ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ...﴾النور:٣١"[١].

٢- فتح الله باب التوبة لعباده ورغبهم فيها:

وفي قوله عز وجل: ﴿...وَٱللَّهُ يَدْعُوٓاْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ وَٱلْمَغْفِرَةِ ...﴾البقرة:٢٢١، قال الشيخ عبد الرحمن السعدي رحمه الله: "أي: يدعو عباده لتحصيل الجنة والمغفرة، التي من آثارها دفع العقوبات، وذلك بالدعوة إلى أسبابها من الأعمال الصالحة، والتوبة النصوح، والعلم النافع، والعمل الصالح"[٢].

وفي قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ ...﴾ النساء:٢٧، قال رحمه الله: "وقوله: ﴿وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ ...﴾، أي: توبة تلم شعثكم، وتجمع متفرقكم، وتقرب بعيدكم"[٣].

وقد ندب الله - عز وجل - عباده إلى المسارعة إلى التوبة إليه قبل نزول عذابه عليهم، فقال سبحانه: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾ وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُواْ لَهُۥ

---

(١) تفسير السعدي (مجموع المؤلفات ٢/٧٩٢)

(٢) تفسير السعدي (مجموع المؤلفات ٢/١٨٢)

(٣) تفسير السعدي (مجموع المؤلفات ٢/٢٦٣)

مِن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَكُمُ ٱلۡعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿٥٤﴾ وَٱتَّبِعُوٓاْ أَحۡسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَكُمُ ٱلۡعَذَابُ بَغۡتَةً وَأَنتُمۡ لَا تَشۡعُرُونَ ﴿٥٥﴾ أَن تَقُولَ نَفۡسٞ يَٰحَسۡرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنۢبِ ٱللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ ﴾الزمر:٥٣-٥٦.

قال الشيخ عبد الرحمن السعدي رحمه الله: "يخبر تعالى عباده المسرفين بسعة كرمه، ويحثهم على الإنابة قبل أن لا يمكنهم ذلك، فقال: ﴿قُلۡ﴾ يا أيها الرسول ومن قام مقامه من الدعاة لدين اللّه، مخبرًا للعباد عن ربهم: ﴿ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسۡرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ﴾ باتباع ما تدعوهم إليه أنفسهم من الذنوب، والسعي في مساخط علام الغيوب.﴿لَا تَقۡنَطُواْ مِن رَّحۡمَةِ ٱللَّهِ﴾، أي: لا تيأسوا منها، فتلقوا بأيديكم إلى التهلكة، وتقولوا قد كثرت ذنوبنا وتراكمت عيوبنا، فليس لها طريق يزيلها ولا سبيل يصرفها، فتبقون بسبب ذلك مصرين على العصيان، متزودين ما يغضب عليكم الرحمن، ولكن اعرفوا ربكم بأسمائه الدالة على كرمه وجوده، واعلموا أنه يغفر الذنوب جميعًا من: الشرك، والقتل، والزنا، والربا، والظلم، وغير ذلك من الذنوب الكبار والصغار.﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾، أي: وصفه المغفرة والرحمة، وصفان لازمان ذاتيان، لا تنفك ذاته عنهما، ولم تزل آثارهما سارية في الوجود، مالئة للموجود، تسح يداه من الخيرات آناء الليل والنهار، ويوالي النعم على العباد والفواضل في السر والجهار، والعطاء أحب إليه من المنع، والرحمة سبقت الغضب وغلبته، ولكن لمغفرته ورحمته ونيلهما أسباب إن لم يأت بها العبد، فقد أغلق على نفسه باب الرحمة والمغفرة، أعظمها وأجلها، بل لا سبب لها غيره، الإنابة إلى اللّه تعالى بالتوبة النصوح، والدعاء والتضرع والتأله والتعبد، فهلم إلى هذا السبب الأجل، والطريق الأعظم"[١].

٣- التوبة لله سبحانه من صفات المقربين، فهي دأب الأنبياء عليهم السلام:

وفي تفسير قوله تعالى: ﴿ قَالَ لَقَدۡ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعۡجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِۦۖ وَإِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلۡخُلَطَآءِ

---

(١) تفسير السعدي (مجموع المؤلفات ٢/١٠٠٥)

لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ ۗ وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ﴿٢٤﴾ فَغَفَرْنَا لَهُۥ ذَٰلِكَ ۖ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴾ ص:٢٤-٢٥، قال الشيخ عبد الرحمن السعدي رحمه الله: "﴿ وَظَنَّ دَاوُۥدُ ﴾ حين حكم بينهما ﴿ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ ﴾، أي: اختبرناه ودبرنا عليه هذه القضية ليتنبه، ﴿ فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ ﴾ لما صدر منه، ﴿ وَخَرَّ رَاكِعًا ﴾، أي: ساجدًا، ﴿ وَأَنَابَ ﴾ للّه تعالى بالتوبة النصوح والعبادة.

﴿ فَغَفَرْنَا لَهُۥ ذَٰلِكَ ﴾ الذي صدر منه، وأكرمه اللّه بأنواع الكرامات، فقال: ﴿ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ ﴾، أي: منزلة عالية، وقربة منا، ﴿ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴾، أي: مرجع.

وهذا الذنب الذي صدر من داود عليه السلام، لم يذكره اللّه لعدم الحاجة إلى ذكره، فالتعرض له من باب التكلف، وإنما الفائدة ما قصه اللّه علينا من لطفه به وتوبته وإنابته، وأنه ارتفع محله، فكان بعد التوبة أحسن منه قبلها"(١).

قال الشيخ عبد الرحمن السعدي رحمه الله: "﴿ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴾، أي: رجّاع إلى اللّه في جميع الأمور بالإنابة إليه، بالحب والتأله، والخوف والرجاء، وكثرة التضرع والدعاء، رجاع إليه عندما يقع منه بعض الخلل، بالإقلاع والتوبة النصوح"(٢).

قال الشيخ عبد الرحمن السعدي رحمه الله: "ومنها أنه ينبغي للعبد إذا وقع في ذنب أن يبادر إلى التوبة والاعتراف، ويقول ما قاله الأبوان من قلب خالص، وإنابة صادقة ؛ فما قص الله علينا صفة توبتهما إلا لنقتدي بهما، فنفوز بالسعادة، وننجو من الهلكة "(٣).

٤- التوبة منة من الله عظيمة:

---

(١) تفسير السعدي (مجموع المؤلفات ٢/٩٨٤)

(٢) تفسير السعدي (مجموع المؤلفات ٢/٩٨٣)

(٣) تيسير اللطيف المنان (مجموع المؤلفات ٣/١٧٦)

قال الشيخ عبد الرحمن السعدي رحمه الله: "ثم استغفر ربه، ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَٱغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُۥٓۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ القصص:١٦، خصوصًا للمخبتين، المبادرين للإنابة والتوبة، كما جرى من موسى عليه السلام.

فـ ﴿ قَالَ ﴾ موسى ﴿ رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ ﴾ بالتوبة والمغفرة، والنعم الكثيرة، ﴿ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا ﴾، أي: معينًا ومساعدًا ﴿ لِّلْمُجْرِمِينَ ﴾، أي: لا أعين أحدًا على معصية، وهذا وعد من موسى عليه السلام، بسبب منة الله عليه، ألا يعين مجرمًا، كما فعل في قتل القبطي.وهذا يفيد أن النعم تقتضي من العبد فعل الخير، وترك الشر"[1].



(١) تفسير السعدي (مجموع المؤلفات ٢/٨٥٤)

المسألة الثالثة: ثمرات التوبة

١- التوبة سبب لمغفرة الذنوب:

قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوۡبَةٗ نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمۡ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَيُدۡخِلَكُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ يَوۡمَ لَا يُخۡزِي ٱللَّهُ ٱلنَّبِيَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥۖ نُورُهُمۡ يَسۡعَىٰ بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَبِأَيۡمَٰنِهِمۡ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَتۡمِمۡ لَنَا نُورَنَا وَٱغۡفِرۡ لَنَآۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴾ التحريم:٨.

وقال تعالى: ﴿ وَإِنِّي لَغَفَّارٞ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا ثُمَّ ٱهۡتَدَىٰ ﴾ طه:٨٢.

وقال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ عَمِلُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ثُمَّ تَابُواْ مِنۢ بَعۡدِهَا وَءَامَنُوٓاْ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعۡدِهَا لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴾الأعراف:١٥٣.

وقال تعالى: ﴿ وَمَن يَعۡمَلۡ سُوٓءًا أَوۡ يَظۡلِمۡ نَفۡسَهُۥ ثُمَّ يَسۡتَغۡفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ﴾ النساء:١١٠.

قال الشيخ عبد الرحمن السعدي رحمه الله: "وجعل الله التوبة والاستغفار والإيمان والحسنات والمصائب مع الصبر عليها أسبابًا لمحو الذنوب والخطايا، شاهده قوله تعالى: ﴿ وَإِنِّي لَغَفَّارٞ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا ثُمَّ ٱهۡتَدَىٰ ﴾ طه:٨٢، ﴿ ...إِنَّ ٱلۡحَسَنَٰتِ يُذۡهِبۡنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ... ﴾ هود:١١٤"[١].

قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوۡبَةٗ نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمۡ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَيُدۡخِلَكُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ يَوۡمَ لَا يُخۡزِي ٱللَّهُ ٱلنَّبِيَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥۖ نُورُهُمۡ يَسۡعَىٰ بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَبِأَيۡمَٰنِهِمۡ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَتۡمِمۡ لَنَا نُورَنَا وَٱغۡفِرۡ لَنَآۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴾ التحريم:٨.

قال الشيخ عبد الرحمن السعدي رحمه الله: "قد أمر الله بالتوبة النصوح في هذه

---

(١) تيسير اللطيف المنان (مجموع المؤلفات ٣/٣١٦)

الآية، ووعد عليها بتكفير السيئات، ودخول الجنات، والفوز والفلاح، حين يسعى المؤمنون يوم القيامة بنور إيمانهم، ويمشون بضيائه، ويتمتعون بروحه وراحته، ويشفقون إذا طفئت الأنوار، التي لا تعطى المنافقين، ويسألون الله أن يتمم لهم نورهم فيستجيب الله دعوتهم، ويوصلهم ما معهم من النور واليقين، إلى جنات النعيم، وجوار الرب الكريم، وكل هذا من آثار التوبة النصوح"[(١)].

قال تعالى: ﴿ أَلَمۡ يَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقۡبَلُ ٱلتَّوۡبَةَ عَنۡ عِبَادِهِۦ وَيَأۡخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ التوبة: ١٠٤.

قال الشيخ عبد الرحمن السعدي رحمه الله: "أي: أما علموا سعة رحمة اللّه وعموم كرمه، وأنه ﴿ يَقۡبَلُ ٱلتَّوۡبَةَ عَنۡ عِبَادِهِۦ ﴾ التائبين من أي ذنب كان، بل يفرح تعالى بتوبة عبده، إذا تاب أعظم فرح يقدر.

﴿ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴾، أي: كثير التوبة على التائبين، فمن تاب إليه تاب عليه، ولو تكررت منه [المعصية] مرارًا. ولا يمل اللّه من التوبة على عباده، حتى يملوا هم، ويأبوا إلا النفار والشرود عن بابه، وموالاتهم عدوهم"[(٢)].

قال تعالى: ﴿ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُواْ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٖ ثُمَّ تَابُواْ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ وَأَصۡلَحُوٓاْ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعۡدِهَا لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴾ النحل: ١١٩.

قال الشيخ عبد الرحمن السعدي رحمه الله: "وهذا حض منه لعباده على التوبة، ودعوة لهم إلى الإنابة، فأخبر أن من عمل سوءًا بجهالة بعاقبة ما تجني عليه، ولو كان متعمدًا للذنب، فإنه لا بد أن ينقص ما في قلبه من العلم وقت مفارقة الذنب. فإذا تاب وأصلح بأن ترك الذنب وندم عليه، وأصلح أعماله، فإن الله يغفر له ويرحمه ويتقبل توبته ويعيده إلى حالته الأولى أو أعلى منها"[(٣)].

قال الشيخ عبد الرحمن السعدي رحمه الله: "ومع هذا، فالتوبة معروضة، ولو عمل

---

(١) تفسير السعدي (مجموع المؤلفات ٢/١١٩٦)

(٢) تفسير السعدي (مجموع المؤلفات ٢/٤٩٧)

(٣) تفسير السعدي (مجموع المؤلفات ٢/٦٣٧)

العبد ما عمل من المعاصي، فلهذا قال: ﴿ وَإِنِّي لَغَفَّارٌ ﴾، أي: كثير المغفرة والرحمة، لمن تاب من الكفر والبدعة والفسوق، وآمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وعمل صالحًا من أعمال القلب والبدن، وأقوال اللسان.

﴿ثُمَّ اهْتَدَىٰ ﴾، أي: سلك الصراط المستقيم، وتابع الرسول الكريم، واقتدى بالدين القويم، فهذا يغفر الله أوزاره، ويعفو عما تقدم من ذنبه وإصراره، لأنه أتى بالسبب الأكبر، للمغفرة والرحمة، بل الأسباب كلها منحصرة في هذه الأشياء، فإن التوبة تجب ما قبلها، والإيمان والإسلام يهدم ما قبله، والعمل الصالح الذي هو الحسنات، يذهب السيئات، وسلوك طرق الهداية بجميع أنواعها، من تعلم علم، وتدبر آية أو حديث، حتى يتبين له معنى من المعاني يهتدي به، ودعوة إلى دين الحق، ورد بدعة أو كفر أو ضلالة، وجهاد، وهجرة، وغير ذلك من جزئيات الهداية، كلها مكفرات للذنوب محصلات لغاية المطلوب"[1].

٢- التوبة سبب لدخول الجنة:

قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يَوْمَ لَا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ ۖ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَاغْفِرْ لَنَا ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ التحريم: ٨.

قال الشيخ عبد الرحمن السعدي رحمه الله: "قد أمر الله بالتوبة النصوح في هذه الآية، ووعد عليها بتكفير السيئات، ودخول الجنات، والفوز والفلاح، حين يسعى المؤمنون يوم القيامة بنور إيمانهم، ويمشون بضيائه، ويتمتعون بروحه وراحته، ويشفقون إذا طفئت الأنوار، التي لا تعطى المنافقين، ويسألون الله أن يتمم لهم نورهم فيستجيب الله دعوتهم، ويوصلهم ما معهم من النور واليقين، إلى جنات النعيم، وجوار الرب الكريم، وكل هذا من آثار التوبة النصوح.

---

(١) تفسير السعدي (مجموع المؤلفات ٢/٧١٥)

والمراد بها: التوبة العامة الشاملة للذنوب كلها، التي عقدها العبد لله، لا يريد بها إلا وجهه والقرب منه، ويستمر عليها في جميع أحواله"[١].

قال الشيخ عبد الرحمن السعدي رحمه الله: "﴿ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا ﴾، أي: عذابًا مضاعفًا شديدًا، ثم استثنى تعالى فقال: ﴿ إِلَّا مَن تَابَ ﴾ عن الشرك والبدع والمعاصي، فأقلع عنها وندم عليها، وعزم عزمًا جازمًا ألا يعاودها، ﴿ وَءَامَنَ ﴾ بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، ﴿ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ﴾ وهو العمل الذي شرعه الله على ألسنة رسله، إذا قصد به وجهه، ﴿ فَأُوْلَٰٓئِكَ ﴾ الذي جمعوا بين التوبة والإيمان، والعمل الصالح، ﴿ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ ﴾ المشتملة على النعيم المقيم، والعيش السليم، وجوار الرب الكريم، ﴿ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْـًٔا ﴾ من أعمالهم، بل يجدونها كاملة، موفرة أجورها، مضاعفًا عددها.ثم ذكر أن الجنة التي وعدهم بدخولها، ليست كسائر الجنات، وإنما هي جنات عدن، أي: جنات إقامة، لا ظعن فيها، ولا حول ولا زوال، وذلك لسعتها، وكثرة ما فيها من الخيرات والسرور، والبهجة والحبور"[٢].

٣- التوبة سبب لتبديل السيئات حسنات:

قال تعالى: ﴿ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٠﴾ وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَإِنَّهُۥ يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ مَتَابًا ﴾ الفرقان: ٧٠-٧١.

قال الشيخ عبد الرحمن السعدي رحمه الله: "﴿ إِلَّا مَن تَابَ ﴾ عن هذه المعاصي وغيرها بأن أقلع عنها في الحال، وندم على ما مضى له من فعلها، وعزم عزمًا جازمًا ألا يعود، ﴿ وَءَامَنَ ﴾ بالله إيمانًا صحيحًا يقتضي ترك المعاصي وفعل الطاعات، ﴿ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا ﴾ مما أمر به الشارع إذا قصد به وجه الله.

---

(١) تفسير السعدي (مجموع المؤلفات ٢/١١٩٦)

(٢) تفسير السعدي (مجموع المؤلفات ٢/٦٩٧)

﴿ فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ ﴾، أي: تتبدل أفعالهم وأقوالهم التي كانت مستعدة لعمل السيئات تتبدل حسنات، فيتبدل شركهم إيمانًا، ومعصيتهم طاعة، وتتبدل نفس السيئات التي عملوها ثم أحدثوا عن كل ذنب منها توبة وإنابة وطاعة تبدل حسنات كما هو ظاهر الآية..

﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا ﴾ لمن تاب يغفر الذنوب العظيمة ﴿ رَّحِيمًا ﴾ بعباده حيث دعاهم إلى التوبة بعد مبارزته بالعظائم، ثم وفقهم لها، ثم قبلها منهم.

﴿ وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَإِنَّهُۥ يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ مَتَابًا ﴾، أي: فليعلم أن توبته في غاية الكمال لأنها رجوع إلى الطريق الموصل إلى الله الذي هو عين سعادة العبد وفلاحه، فليخلص فيها وليخلصها من شوائب الأغراض الفاسدة، فالمقصود من هذا الحث على تكميل التوبة وإيقاعها على أفضل الوجوه وأجلها ليقدم على من تاب إليه فيوفيه أجره بحسب كمالها"[١].

٤- سبب لمحبة الله:

قال تعالى: ﴿ ... إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ﴾ البقرة:٢٢٢.

قال الشيخ عبد الرحمن السعدي رحمه الله: "﴿ ...وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ... ﴾الرعد:٦، أي: لا يزال خيره إليهم، وإحسانه وبره وعفوه نازلًا إلى العباد، وهم لا يزال شرهم وعصيانهم إليه صاعدًا.

يعصونه فيدعوهم إلى بابه، ويجرمون فلا يحرمهم خيره وإحسانه، فإن تابوا إليه فهو حبيبهم لأنه يحب التوابين، ويحب المتطهرين، وإن لم يتوبوا فهو طبيبهم، يبتليهم بالمصائب؛ ليطهرهم من المعايب"[٢].

٥- التوبة سبب للفلاح والفوز الدارين:

---

(١) تفسير السعدي (مجموع المؤلفات ٢/٨١٨)

(٢) تفسير السعدي (مجموع المؤلفات ٢/٥٨٣)

قال تعالى: ﴿... وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ النور:٣١.

قال الشيخ عبد الرحمن السعدي رحمه الله: "أمر الله تعالى بالتوبة، فقال: ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾؛ لأن المؤمن يدعوه إيمانه إلى التوبة، ثم علق على ذلك الفلاح، فقال: ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾، فلا سبيل إلى الفلاح إلا بالتوبة، وهي الرجوع مما يكرهه الله ظاهرًا وباطنًا إلى ما يحبه ظاهرًا وباطنًا، ودل هذا أن كل مؤمن محتاج إلى التوبة؛ لأن الله خاطب المؤمنين جميعًا، وفيه الحث على الإخلاص بالتوبة في قوله: ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ ﴾، أي: لا لمقصد غير وجهه، من سلامة من آفات الدنيا، أو رياء وسمعة، أو نحو ذلك من المقاصد الفاسدة"[١].

وقال تعالى: ﴿ فَأَمَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا فَعَسَىٰٓ أَن يَكُونَ مِنَ ٱلْمُفْلِحِينَ ﴾القصص:٦٧

قال الشيخ عبد الرحمن السعدي رحمه الله: "لما ذكر تعالى سؤال الخلق عن معبودهم وعن رسلهم، ذكر الطريق الذي ينجو به العبد من عقاب اللّه تعالى، وأنه لا نجاة إلا لمن اتصف بالتوبة من الشرك والمعاصي، وآمن باللّه فعبده، وآمن برسله فصدقهم، وعمل صالحًا متبعًا فيه للرسل، ﴿ فَعَسَىٰٓ أَن يَكُونَ ﴾ من جمع هذه الخصال ﴿ مِنَ ٱلْمُفْلِحِينَ ﴾ الناجحين بالمطلوب، الناجين من المرهوب، فلا سبيل إلى الفلاح بدون هذه الأمور"[٢].

٦- التوبة سبب لرحمة الله:

قال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ عَمِلُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ثُمَّ تَابُواْ مِنۢ بَعْدِهَا وَءَامَنُوٓاْ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾الأعراف:١٥٣.

---

(١) تفسير السعدي (مجموع المؤلفات ٢/٧٩٢)

(٢) تفسير السعدي (مجموع المؤلفات ٢/٨٦٦)

وقال تعالى: ﴿ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَـٰلَةٍ ثُمَّ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوٓا۟ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾النحل:١١٩.

وقال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَـٰتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا۟ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجْلِدُوهُمْ ثَمَـٰنِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا۟ لَهُمْ شَهَـٰدَةً أَبَدًا ۚ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَـٰسِقُونَ ﴿٤﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ النور: ٤-٥.

قال الشيخ عبد الرحمن السعدي رحمه الله: "فأما لذَّات القُلوب وحصُول سُرورِها وزَوال كَدرِها فإنَّما أَصل ذلكَ بالإِيمَانِ التَّام بما دَعا الله عبادَه إلى الإيمان بهِ مِن الإيمانِ بتَوحده بجَمِيع نُعُوت الكَمالِ وامتلاءِ القَلبِ مِن تَعظيمه وجَلاله ومن التَّألُّه له وعبُودِيته والإنابة إليه وإخلاص العَمَل الظَّاهِر والباَطِن لوجهِه الأعلَى، وما يَتْبَع ذلكَ مِن النُّصح لعَبَادِ الله ومَحبَّة الخير لهم وبذلِ المقدُور مِن نَفعهم والإحسانِ إليهم والإكثار مِن ذكر الله والاستِغفَار والتَّوبَة، فَمن أوتيَ هَذه الأمور فَقد حَصل لَقَلبه من الهدَايةِ والرَّحمَةِ والنورِ والسرور وزوالِ الأكدارِ والهموم والغمومِ ما هو نُموذج مِن نَّعيم الآخرةِ، وأهل هذا الشَّأنِ لا يغبطُون أربَاب الدُّنيا والملوك عَلى لذَّاتهم وريَاسَاتهم، بل يرون ما أُعطوه مِن هذه الأمور يَفوق ما أُعطيه هؤلاء بأضعَافٍ مُضَاعَفَة.وهذا النَّعيم القَلبي لا يَعرفه حقَّ المعرِفة إلا مَن ذَاقه وجرَّبه فإنه كما قيل[(١)]:

مَن ذَاقَ طَعمَ نَعِيمِ القَوم يَدرِيه   ومَن دَرَاهُ غَدًا بالرُّوحِ يَشرَيه

فَهذا إشارة لطَرِيق هذا النَّعيم القَلبي الذي هُو أصلُ كلِ نَعيم "[(٢)].



(١) لم أقف على قائله، وقد ذكره ابن تيمية (جامع الرسائل ٢/٣٦٣)

(٢) النصيحة الربانية (مجموع المؤلفات ٦/٩٦، ٩٧)

المبحث الثاني عشر: الخشوع

وفيه ثلاثة مطالب:

المسألة الأولى: تعريف الخشوع

المسألة الثانية: أنواع أدلة الخشوع

المسألة الثالثة: ثمرات الخشوع

المسألة الأولى: تعريف الخشوع

أولًا: التعريف اللغوي:

كلمة الخشوع هي مصدر من الفعل الثلاثي: خشع يخشع خشوعًا، فهو خاشع.

والخشوع: السكون والتذلل.ومنه قوله تعالى: ﴿... وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ...﴾ أي: انخفضت، وقيل: سكنت. وكل ساكن خاضع وخاشع[1].

قال ابن فارس: "الخاء والشين والعين أصلٌ واحدٌ، يدلُّ على التَّطامُن. يقال خَشَع - إذا تطامَنَ وطأْطأَ رأسَه - يخشَع خُشوعًا. وهو قريبُ المعنى من الخضوع، إلاّ أنّ الخُضوع في البدَن ...، والخشوعَ في الصَّوتِ والبصر.قال الله تعالى: ﴿خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ﴾"[2].

وقال الراغب: "الخشوع: الضراعة، وأكثر ما يستعمل الخشوع فيما يوجد على الجوارح"[3].

والخُشوع في الصّوت والبصر كالخُضُوع في البدن[4].

فالخشوع يطلق على غض البصر، ويأتي بمعنى خفض الصوت.

قال ابن منظور: "خَشَع يَخْشَعُ خُشوعًا واخْتَشَع وتَخَشَّعَ: رمى ببصره نحو الأَرض وغَضَّه وخفَضَ صوته، وقوم خُشَّع: مُتَخَشِّعُون، وخشَع بصرُه: انكسر"[5].

وفي الجملة: فالخشوع في أصل اللغة الذل والسكون، والخشوع الخضوع في البدن، وفي الصوت والبصر السكون والتذلل، وفي الكوكب دنوه من الغروب، والخاشع

---

(١) تاج العروس (٢٠/٥٠٧)

(٢) مقاييس اللغة (٢/١٨٢)

(٣) المفردات (١/٢٨٣)

(٤) النهاية لابن الاثير (٢/٣٤)

(٥) لسان العرب (٢/١١٦٥)

المستكين والراكع، والخاشع من المكان هو المغبر الذي لا منزل به[١].

ثانياً: التعريف الشرعي:

عُرِّف الخشوع في الشرع بتعريفات كثيرة ، منها :

- الخوف الدائم في القلب[٢].
- وقيل : من علامات الخشوع أن العبد إذا غضب أو خولف أو رد عليه استقبل ذلك بالقبول[٣].
- وقيل في معنى الخشوع : ذبول يرد على القلب عند اطلاع الرب[٤].
- ونقل ابن القيم – رحمه الله – تعريفات أخرى للخشوع ، فقال : "الخشوع : قيام القلب بين يدي الرب بالخضوع والذل والجمعية عليه ، وقيل الخشوع : الانقياد للحق ، وهذا من موجبات الخشوع ، فمن علاماته أن العبد إذا خولف ورد عليه بالحق استقبل ذلك بالقبول والانقياد"[٥].
- وقال صاحب المنازل : "الخشوع : خمود النفس وهمود الطباع لمتعاظم أو مفزع ، يعني : انقباض النفس والطبع ، وهو خمود قوى النفس عن الانبساط لمن له في القلوب عظمة ومهابة أو لما يفزع منه القلب ، والحق أن الخشوع معنى يلتئم من التعظيم والمحبة والذل والانكسار"[٦].

---

(١) تاج العروس (٥٠٧/٢٠) ومختار الصحاح .
(٢) مدارج السالكين (٥١٦/١).
(٣) التعريفات للجرجاني (٩٨).
(٤) مدارج السالكين (٥١٦/١).
(٥) نفس المصدر والموضع.
(٦) مدارج السالكين (٥١٨/١).

- ونقل ابن حجر رحمه الله عن بعضهم تعريفا للخشوع بأنه "معنى يقوم بالنفس يظهر عنه سكون في الأطراف يلائم مقصود العبادة"(١).

وعرفه السعدي رحمه الله بمعناه العام فقال : "الخشوع هو : خضوع القلب وطمأنينته ، وسكونه لله تعالى ، وانكساره بين يديه ، ذلاً وافتقاراً ، وإيماناً به وبلقائه"(٢).

وأشار في موضع آخر إلى انقسامه إلى : عام وخاص ، فقال : "وأما الخشوع فهو حضور القلب وقت تلبسه بطاعة الله وسكون ظاهره وباطنه ، فهذا خشوع خاص ، وأما الخشوع الدائم الذي هو وصف خواص المؤمنين فينشأ من كمال معرفة العبد بربه ومراقبته ، فيستولي ذلك على القلب كما تستولي المحبة"(٣).

ومن خلال ما تقدم نلحظ أنه عرف الخشوع بمعناه العام الذي هو مقصود هذا المبحث بذكر حقيقته ، فقال : هو خشوع القلب لله وانكساره بين يديه .

ثم في الموضع الثاني عرف الخشوع العام بذكر أهميته وسببه وأثره ، أما أهميته فقد أشار إلى كونه وصف خواص المؤمنين ، وأما السبب الذي يُستجلب به الخشوع فهو كمال معرفة العبد بربه ومراقبته ، وأما أثره فباستيلائه على القلب وامتلائه به كما يمتلئ القلب من محبة الله عز وجل.

وجميع التعريفات السابقة متقاربة المعاني ، ومحصلها أن الخشوع خضوع للقلب ، وتذلل ، واستكانة للعبد بين يدي ربه عز وجل .

يتذلل القلب ويستكين لله تبارك وتعالى ، ثم يُعقب هذا التذلل خشوعاً في الجوارح فيظهر أثره عليها .

ومن خلال التعريفات السابقة نلحظ أن محل الخشوع هو القلب وتظهر آثاره على الجوارح ، وقد نقل ابن القيم – رحمه الله – الإجماع عليه ، فقال :"وأجمع العارفون على

---

(١) فتح الباري (٢/٢٢٥)

(٢) تفسير السعدي (مجموع المؤلفات ٢/١٢٠)

(٣) تيسير اللطيف المنان (مجموع المؤلفات ٣/٣٢٧)

أن الخشوع محله القلب وثمرته على الجوارح ، وهي تظهره"[١].

قال ابن رجب رحمه الله : " فأصل الخشوع : هو خشوع القلب ، وهو انكساره لله ، وخضوعه وسكونه عن التفاته إلى غير من هو بين يديه ، فإذا خشع القلب خشعت الجوارح كلها تبعاً لخشوعه"[٢] ؛ ولهذا كان – صلى الله عليه وسلم – يقول في ركوعه : "خشع لك سمعي ، وبصري ، ومخي ، وعظامي ، وما استقل به قدمي"[٣].

ومما يدل على أنه من عمل القلوب ما ورد عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه : "الخشوع في القلب ، وأن تلين كتفك للمرء المسلم ، وألا تلتفت في صلاتك"[٤].

وقد أشار السعدي – رحمه الله – لكون الخشوع محله القلب ، وأن خشوع الجوارح أثر لخشوع القلب ، إذ قال في تفسير قوله تعالى ﴿ حَـٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ وَقُومُواْ لِلَّهِ قَـٰنِتِينَ ﴿٢٣٨﴾ ﴾ البقرة: ٢٣٨: "يأمر تعالى بالمحافظة على الصلوات ... وأن تكون صلاة كاملة تنهى صاحبها عن الفحشاء والمنكر ، ويزداد بها إيمانه ، وذلك إذا حصل فيها حضور القلب وخشوعه الذي هو لبها وروحها ، ولهذا قال ﴿ وَقُومُواْ لِلَّهِ قَـٰنِتِينَ ﴿٢٣٨﴾ ﴾ البقرة: ٢٣٨ أي : مخلصين خاشعين لله ، فإن القنوت هو دوام الطاعة مع الخشوع ، ومن تمام ذلك سكون الأعضاء عن كل كلام لا تعلق له بالصلاة"[٥].

وأختم المسألة بذكر تفصيل للشيخ السعدي رحمه الله في معنى الخشوع وصفات أهله: "فخشوعُ القلب عنوانُ الإيمان وعلامة السعادة، كما أن قسوتَه وعدمَ خشوعه عنوانُ الشقاوة؛ فالخشوع انكسار القلب وذله بين يدي ربه، وأن يبقى هذا الخشوع مستصحباً مع العبد في جميع أوقاته، إن غفل رجع إليه، وإن مرح عاد إليه، وإن شرع في تعبد وقربة من القربات خضع فيها، وقام بالأدب الذي هو أثر الخشوع، خصوصاً في أم

---

(١) مدارج السالكين (٥١٧/١).

(٢) فتح الباري (٣٦٧/٦).

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الصلاة (٢/ ١٨٥) ح:(١٧٦٢).

(٤) أخرجه الحاكم في المستدرك،(٢/ ٤٢٦)، ح:(٣٤٨٢)، وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه.

(٥) تفسير السعدي (مجموع المؤلفات ١٨٩/٢)

العبادات، والجامعة بين أنواع التعبدات القلبية والبدنية وأقوال اللسان وهي: الصلاة؛ فإنه يقوم فيها مراعياً للمراقبة ، ومرتبة الإحسان أن يعبد الله كأنه يراه، فإن لم يره فإنه يراه، فيُجهد نفسَه على التحقيق بهذه العبودية الكاملة، فيُحضر قلبَه فيناجي ربه بقلبه قبل لسانه، ويستحضر ما يقوله ويفعله ؛ فتسكن حركاته ويقل عبثه ،

وبهذا يُعرف أن من أعظم علامات الخشوعِ سكونُ الجوارح، والتأدب في الخدمة[١] الذي هو أثر سكون القلب، ولهذا وصف الله عباده الذين أضافهم إلى رحمته في قوله: ﴿ وَعِبَادُ الرَّحْمَٰنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا ﴿٦٣﴾ ﴾ الفرقان: ٦٣ المراد: خاضعين متواضعين "[٢] .

ثالثاً : مرادفات الخشوع :

ثمة ألفاظ وردت في النصوص تدل على الخشوع أو تشترك معه في جزء معناه ، ومنها :

١ – القنوت :

أولاً : معناه في اللغة :

يرد القنوت في لسان العرب ، على المعاني الآتية :

الإمساك عن الكلام ، ودوام الطاعة ، والصلاة ، والدعاء في الصلاة ، والخشوع ، وإطالة القيام[٣].

والذي يعنينا من هذه المعاني – هنا – هو أن من معانيه الخشوع .

ثانياً : معناه في الشرع :

---

(١) التعبير عن المعنى الذي أراده الشيخ رحمه الله جاء في الشرع بلفظ العبادة، والتزام الألفاظ الشرعية دون الموهمة أولى.

(٢) المواهب الربانية (مجموع المؤلفات ٣/٦٧٤)

(٣) لسان العرب (٥/٣٧٤٧)

يرد القنوت في القرآن على معنيين :

قال السعدي – رحمه الله – معرفاً القنوت وذاكراً نوعيه : "القنوت : ورد في القرآن على أحد معنيين : معنى خاص : بمعنى الخشوع ، ومعنى عام : وهو قنوت المخلوقات كلها لخلق الله وتدبيره وتصريفه"(١).

ومثَّل السعدي – رحمه الله – لنوعي القنوت بقوله: "والقنوت نوعان: قنوت عام: وهو قنوت الخلق كلهم، تحت تدبير الخالق، وخاص: وهو قنوت العبادة. فالنوع الأول: كما في هذه الآية، وهي قوله تعالى: ﴿... لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ﴾البقرة:١١٦، والنوع الثاني: كما في قوله تعالى: ﴿...وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ ﴾ البقرة:٢٣٨"(٢).

وأشار السعدي – رحمه الله – إلى كون المعنى الخاص هو الأكثر في القرآن، فقال: "النوع الثاني – وهو الأكثر في القرآن – القنوت الخاص، وهو دوام الطاعة لله على وجه الخشوع، مثل قوله: ﴿ أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا... ﴾الزمر:٩، ﴿... وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ ﴾ البقرة:٢٣٨، ﴿ يَٰمَرْيَمُ ٱقْنُتِى لِرَبِّكِ وَٱسْجُدِى... ﴾ آل عمران:٤٣، ﴿...وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْقَٰنِتَٰتِ ... ﴾الأحزاب:٣٥، ونحوها"(٣).

٢- الإخبات:

أصل مادة (خ ب ت) :"اللِّين والاطمئنان، فالخَبْتُ: ما اطمأنَّ من الأرض واتسع، والخَفِيُّ من الأرض، ويقال خَبَتَ ذكرُه إذا خَفِيَ، ومنه المخْبِت من الناس، أي: المتواضع"(٤).

وقد ورد لفظ الإخبات في القرآن ثلاث مرات في الآيات الآتية:

---

(١) تيسير اللطيف المنان (مجموع المؤلفات ٣/٣٢٧)

(٢) تفسير السعدي (مجموع المؤلفات ٢/١٣٧)

(٣) تيسير اللطيف المنان (مجموع المؤلفات ٣/١٨٧، ١٨٨)

(٤) لسان العرب (٥/٣٧٤٧)

- قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَخۡبَتُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾هود:٢٣.

قال الشيخ السعدي رحمه الله: "﴿ وَأَخۡبَتُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ ﴾، أي: خضعوا له، واستكانوا لعظمته، وذلوا لسلطانه، وأنابوا إليه بمحبته، وخوفه، ورجائه، والتضرع إليه"(١).

- وقال تعالى: ﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٖ جَعَلۡنَا مَنسَكٗا لِّيَذۡكُرُواْ ٱسۡمَ ٱللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلۡأَنۡعَٰمِۗ فَإِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ فَلَهُۥٓ أَسۡلِمُواْۗ وَبَشِّرِ ٱلۡمُخۡبِتِينَ ٣٤ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتۡ قُلُوبُهُمۡ وَٱلصَّٰبِرِينَ عَلَىٰ مَآ أَصَابَهُمۡ وَٱلۡمُقِيمِي ٱلصَّلَوٰةِ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ﴾الحج:٣٤-٣٥.

قال السعدي رحمه الله: "﴿ وَبَشِّرِ ٱلۡمُخۡبِتِينَ ﴾ بخير الدنيا والآخرة، والمخبت: الخاضع لربه، المستسلم لأمره، المتواضع لعباده".

- وقال تعالى: ﴿ وَلِيَعۡلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤۡمِنُواْ بِهِۦ فَتُخۡبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمۡ ... ﴾ الحج:٥٤.

قال السعدي رحمه الله: "﴿ فَتُخۡبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمۡ ﴾، أي: تخشع وتخضع، وتسلم لحكمته"(٢).

٣-الخضوع:

قال ابن فارس: "الخاء والضاد والعين أصلان: أحدُهما تطامُنٌ في الشَّيء، والآخرُ جنسٌ من الصَّوت"(٣).

وقد ورد الخضوع في القرآن مرتين، في الآيتين الآتيتين:

---

(١) تفسير السعدي (مجموع المؤلفات ٢/٥٣٦)

(٢) تفسير السعدي (مجموع المؤلفات ٢/٧٥٩)

(٣) مقاييس اللغة (٢/١٨٩).

- ﴿ إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةً فَظَلَّتْ أَعْنَٰقُهُمْ لَهَا خَٰضِعِينَ ﴾ الشعراء: ٤.
- ﴿ يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِىِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ ۚ إِنِ ٱتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴾ الأحزاب: ٣٢.

ففي الآية الأولى ذكر لخضوع الأعناق، وفيه إشارة إلى الذل، وفي الثانية ذكر للخضوع بالقول، وهو تليين الكلام.

قال الطاهر ابن عاشور في الجمع بين المعنيين: "النساء في كلامهِنَّ رِقَّةٌ طبيعيَّة، وقد يكون في بعضهنَّ من اللَّطَافة ولين النفس ما إذا انْضَمَّ إلى لِينها الجِبِلِّي قَرُبَتْ هيئته من هيئة التذلُّل ... فالخضوع حقيقته التذلُّل، وأُطلِق هنا على الرقة لمشابهتها التذلُّل"(١).

قال السعدي - رحمه الله - في تفسير الآية الثانية: "﴿ فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ ﴾، أي: في مخاطبة الرجال، أو بحيث يسمعون، فَتَلِنَّ في ذلك، وتتكلمن بكلام رقيق..."(٢).

فيدخل في معنى الخضوع: التذلُّل، والانقياد، وظهور أثر ذلك في الصوت.



---

(١) التحرير والتنوير (٢٢/٨).

(٢) تفسير السعدي (مجموع المؤلفات ٢/٩٢٠)

المسألة الثانية: أنواع أدلة الخشوع

١- من أجلِّ صفات الأنبياء والصديقين والصالحين:

أثنى الله - عز وجل - على كثير من الأنبياء والصديقين والصالحين بوصفهم بالخشوع والتذلل والاستكانة والقنوت له تبارك وتعالى، والأدلة في تقرير هذا كثيرة، منها قوله تعالى بعد أن ذكر طائفة من أنبيائه: ﴿...إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ﴾ الأنبياء: ٩٠.

قال السعدي رحمه الله: "﴿وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ﴾، أي: خاضعين متذللين متضرعين، وهذا لكمال معرفتهم بربهم"[١].

وقال تعالى بعد ذكر جملة من الأنبياء في سورة مريم: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْرَٰٓءِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَٱجْتَبَيْنَآ ۚ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُ ٱلرَّحْمَٰنِ خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَبُكِيًّا﴾ مريم: ٥٨.

فأثَّرت هذه الآيات فيهم، فبكوا خشية لله وخشوعًا له عز وجل.

قال السعدي رحمه الله "﴿خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَبُكِيًّا﴾، أي: خضعوا لآيات الله، وخشعوا لها، وأثرت في قلوبهم من الإيمان والرغبة والرهبة، ما أوجب لهم البكاء والإنابة، والسجود لربهم، ولم يكونوا من الذين إذا سمعوا آيات الله خروا عليها صمًا وعميانًا"[٢]..

وقد نفى الله - عز وجل - ضد الخشوع، وهو التجبر والتكبر، عن أنبيائه وأصفيائه، ومنهم عيسى عليه السلام، إذ قال الله على لسانه: ﴿...وَلَمْ يَجْعَلْنِى جَبَّارًا شَقِيًّا﴾ مريم: ٣٢، قال السعدي - رحمه الله - مشيرًا إلى اتصافه - عليه السلام - بالخشوع لله: "﴿...وَلَمْ يَجْعَلْنِى جَبَّارًا شَقِيًّا﴾، أي: متكبرًا على الله، مترفعًا على عباده، ﴿شَقِيًّا﴾ في دنياي أو أخراي، فلم يجعلني كذلك بل جعلني مطيعًا له خاضعًا خاشعًا

---

(١) تفسير السعدي (مجموع المؤلفات ٢/٧٤٢)

(٢) تفسير السعدي (مجموع المؤلفات ٢/٦٩٦)

متذللًا متواضعًا لعباد الله، سعيدًا في الدنيا والآخرة، أنا ومن اتبعني"(١).

وممَّن أثنى الله عليها بالخشوع من الصديقين مريم عليها السلام، وهي من خيرة نساء العالمين.

فقد وصفها بالقنوت الذي هو الخشوع لله تعالى، فقال تعالى: ﴿... وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَـٰنِتِينَ﴾ التحريم:١٢، قال السعدي رحمه الله: " أي: المطيعين لله، المداومين على طاعته بخشية وخشوع، وهذا وصف لها بكمال العمل، فإنها - رضي الله عنها - صديقة، والصديقية: هي كمال العلم والعمل"(٢).

وهو - أيضًا - من صفات عباد الله المؤمنين:

فقد أثنى الله على المؤمنين من أهل الكتاب لخشوعهم له، فقال عز وجل: ﴿ وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ لَمَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَـٰشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۗ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ آل عمران:١٩٩، وقال تعالى: ﴿ إِنَّهُۥ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِى يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ المؤمنون:١٠٩.

قال السعدي رحمه الله: "فجمعوا بين الإيمان المقتضي لأعماله الصالحة، والدعاء لربهم بالمغفرة والرحمة، والتوسل إليه بربوبيته، ومنته عليهم بالإيمان، والإخبار بسعة رحمته، وعموم إحسانه، وفي ضمنه ما يدل على خضوعهم وخشوعهم، وانكسارهم لربهم، وخوفهم ورجائهم"(٣).

٢- أمر الله تعالى بالخشوع:

قال تعالى: ﴿... وَقُومُوا۟ لِلَّهِ قَـٰنِتِينَ﴾ البقرة:٢٣٨، "أي: ذليلين مخلصين

---

(١) تفسير السعدي (مجموع المؤلفات ٢/٦٩٢)

(٢) تفسير السعدي (مجموع المؤلفات ٢/١١٩٧)

(٣) تفسير السعدي (مجموع المؤلفات ٢/٧٨٢)

خاشعين، فإن القنوت دوام الطاعة مع الخشوع"[١].

فالخشوع واجب ومحبوب لله تعالى، وقد تقدم أن من مرادفاته القنوت.

٣- عاتب الله تعالى المؤمنين على ترك الخشوع:

وهذا يدل على أهميته ووجوبه، وقد نهانا – عز وجل – عن التشبه بأهل الكتاب في عدم الخشوع، فقال تعالى: ﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿١٦﴾ ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ الحديد: ١٦-١٧.

قال السعدي رحمه الله مشيراً إلى وجوب الخشوع: "لما ذكر حال المؤمنين والمؤمنات والمنافقين والمنافقات في الدار الآخرة، كان ذلك مما يدعو القلوب إلى الخشوع لربها، والاستكانة لعظمته، فعاتب الله المؤمنين [على عدم ذلك]، فقال: ﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ ﴾، أي: ألم يجئ الوقت الذي تلين به قلوبهم وتخشع لذكر الله، الذي هو القرآن، وتنقاد لأوامره وزواجره، وما نزل من الحق الذي جاء به محمد ﷺ ؟ وهذا فيه الحث على الاجتهاد على خشوع القلب لله تعالى، ولما أنزله من الكتاب والحكمة، وأن يتذكر المؤمنون المواعظ الإلهية والأحكام الشرعية كل وقت، ويحاسبوا أنفسهم على ذلك، ﴿ وَلَا يَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ ﴾، أي: ولا يكونوا كالذين أنزل الله عليهم الكتاب الموجب لخشوع القلب والانقياد التام، ثم لم يدوموا عليه، ولا ثبتوا، بل طال عليهم الزمان واستمرت بهم الغفلة، فاضمحل إيمانهم وزال إيقانهم، ﴿ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴾، فالقلوب تحتاج في كل وقت إلى أن تذكر بما أنزله الله، وتناطق بالحكمة،

---

(١) تفسير السعدي (مجموع المؤلفات ٢/١٨٩)

ولا ينبغي الغفلة عن ذلك، فإن ذلك سبب لقسوة القلب وجمود العين"[١].

قال ابن مسعود رضي الله عنه: "ما كان بين إسلامنا وبين أن عاتبنا الله بهذه الآية: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ﴾ إلا أربع سنين"[٢].

وقال ابن عباس رضي الله عنه: "إن الله استبطأ قلوب المؤمنين فعاتبهم على رأس ثلاث عشرة سنة من نزول القرآن"[٣].



---

(١) تفسير السعدي (مجموع المؤلفات ٢/١١٥٣)

(٢) صحيح مسلم، كتاب الآداب (٨/ ٢٤٣) ح:(١٥٩٩).

(٣) تفسير ابن كثير (٨/١٩).

المسألة الثالثة: ثمرات الخشوع

لهذه العبادة الجليلة ثمرات عظيمة دلت عليها النصوص، ومما جاءت الإشارة إليه من كلام السعدي رحمه الله ما يأتي:

١- الخاشعون هم أهل الفلاح والسعادة في الدنيا والآخرة:

قال الله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ۝١ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ﴾ المؤمنون: ١-٢.

فأول صفات المفلحين المؤمنين هو خشوعهم في الصلاة، وتذللهم فيها بين يدي ربهم واستكانتهم له، "والفلاح: هو الفوز بكل مطلوب مرغوب والنجاة من كل هلاك ومرهوب"[(١)].

٢- الخشوع من أسباب حصول السعادة والسكينة :

"والخشوع في الصلاة : هو حضور القلب بين يدي الله تعالى ، مستحضراً لقربه ، فيسكن لذلك قلبه ، وتطمئن نفسه ، وتسكن حركاته ..."[(٢)].

فالسكينة والخشوع في تلاوة القرآن الكريم من أسباب نزول الملائكة الكرام ، مصداق ذلك ما ورد في الصحيح من حديث أسيد بن حضير رضي الله عنه : "بينما هو يقرأ من الليل سورة البقرة ، وفرسه مربوط عنده ، إذ جالت الفرس فسكت فسكتت ، فقرأ فجالت الفرس فسكت وسكتت الفرس ، ثم قرأ فجالت الفرس فانصرف ، وكان ابنه يحيى قريباً منها فأشفق أن تصيبه ، فلما اجتره رفع رأسه إلى السماء حتى ما يراها ، فلما أصبح حدث النبي صلى الله عليه وسلم ... . قال : وتدري ما ذاك ؟ قال : لا . قال : تلك الملائكة دنت لصوتك ، ولو قرأت لأصبحت

---

(١) الدلائل القرآنية (مجموع المؤلفات ٣/٥٦٧)

(٢) تفسير السعدي (مجموع المؤلفات ٢/٧٦٦)

ينظر الناس إليها لا تتوارى منهم"[١].

يقـول ابن حجر رحمه الله : "وفي الحديث منقبة لأسـيد بن حضير ، وفضل قراءة سـورة البقرة في صلاة الليل ، وفضل الخشوع في الصلاة ، وأن التشاغل بشيء من أمور الدنيا – ولو كان من المباح – قد يفوت الخير الكثير ، فكيف لو كان بغير الأمر المباح"[٢].

٣– وعد الله الخاشعين بالمغفرة:

فعن عثمان – رضي الله عنه – قال: "من توضأ وضوئي هذا، ثم يصلي ركعتين، لا يحدث نفسه فيهما بشيء إلا غفر له ما تقدم من ذنبه"[٣].

وقد قال تعالى بعد أن ذكر جملة من صفات أهل الإيمان التي منها الخشوع: ﴿...أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغۡفِرَةً وَأَجۡرًا عَظِيمًا ﴾الأحزاب:٣٥، فالأجر العظيم حاصل لهم بما يقومون به من أعمال صالحات والتي من أهمها الخشوع .

وقد جاء وعد الخاشعين بالمغفرة في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلۡمُسۡلِمِينَ وَٱلۡمُسۡلِمَٰتِ وَٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ ﴾ إلى قوله: ﴿ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغۡفِرَةً وَأَجۡرًا عَظِيمًا ﴾ الأحزاب:٣٥.

قال السعدي – رحمه الله – مبينًا هذه الفضيلة: "يدخل في هذه الأوصاف كل ما تناوله من معاني الإسلام والإيمان والقنوت والصدق إلى آخرها.وأن بكمال هذه الأوصاف يكمل لصاحبها ما رتب عليها من المغفرة والأجر العظيم، وبنقصانها ينقص، وبعدمها يفقد"[٤].

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، (٦/ ١٩٠) ح:(٥٠١٩).

(٢) فتح الباري (٦٤/٩).

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الصوم، باب سواك الرطب واليابس للصائم. (٣/ ٣١) ح:(١٩٣٤).

(٤) القواعد الحسان (مجموع المؤلفات ٣٥٣/٣)

المبحث الثالث عشر: التقوى

وفيه ثلاثة مطالب:

المسألة الأولى: تعريف التقوى

المسألة الثانية: أنواع أدلة التقوى

المسألة الثالثة: ثمرات التقوى

المسألة الأولى: تعريف التقوى

أولًا: التعريف اللغوي:

- الوقاية : حفظ الشيء مما يؤذيه ويضره . يقال : وقيت الشيء أقيه وقاية ووقاء.

قال ابن فارس : "الواو والقاف والياء : كلمةٌ واحدة تدلُّ على دَفْعِ شيءٍ عن شيءٍ بغيره . ووقيْتُه أَقِيه وَقْيًا . والوِقاية : ما يقي الشَّيء . واتَّقِ اللهَ : تَوَقَّهُ ، أي : اجعل بينَك وبينه كالوِقاية"(1).

من معاني كلمة التقوى في القرآن :

ورد لفظ التّقوى في القرآن الكريم على خمسة أوجه :

١- الخوف والخشية، كما في قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ﴾ الحج:,١

٢- العبادة، كما في قوله تعالى: ﴿ يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ أَنْ أَنذِرُوٓاْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ ﴾النحل:,٢

٣- ترك المعصية، كما في قوله تعالى: ﴿... وَأْتُواْ ٱلْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَٰبِهَاۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ البقرة:,١٨٩

٤- التّوحيد، كما في قوله تعالى: ﴿ ...أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمْتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ ... ﴾ الحجرات:٣، أي: للتّوحيد.

٥- الإخلاص، كما في قوله سبحانه: ﴿ ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ ﴾ الحج:٣٢(2).

---

(١) مقاييس اللغة (١٣١/٦)

(٢) نضرة النعيم (١٠٨٠/٤)

ثانياً: التعريف الشرعي:

قال الراغب : "التقوى في تعارف الشرع حفظ النفس عما يؤثم ، وذلك بترك المحظور"[١].

قال السعدي – رحمه الله – مبينًا حقيقة التقوى : "اتخاذ ما يقي سخط الله وعذابه ، بامتثال أوامره ، واجتناب النواهي"[٢]، وبيّن – رحمه الله – معنى تقوى الله حق تقاته ، فقال : "وتقــوى الله حق تقواه – كما قال ابن مسعود – وهو أن يُطاع فلا يُعصى ، ويُذكر فلا ينسى ، ويشكر فلا يكفر"[٣].

وهذا هو معنى التقوى الكاملة ، قال رحمه الله : "والتقوى الكاملة : امتثال أمر الله وأمر رسوله ، واجتناب نهيهما وتصديق خبرهما"[٤].

وإذا اجتمع لفظ التقوى مع البر صار معنى التقوى يقتصر على ترك ما يبغضه الله ويأباه ، قال السعدي – رحمه الله – مبينًا معنى البر والتقوى :

"وهو – يعني : البر – اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه ، من الأعمال الظاهرة والباطنة ، من حقوق الله وحقوق الآدميين .

والتقوى في هذا الموضع : اسم جامع لترك كل ما يكرهه الله ورسوله ، من الأعمال الظاهرة والباطنة"[٥].

"لأن التقوى – عند الإطلاق – يدخل فيها : فعل المأمور ، وترك المنهي عنه ، وعند اقترانها بالبر أو الطاعة – كما في هذا الموضع[٦] – تفسر بتوقي عذاب الله ، بترك معاصيه"[٧].

---

(١) المفردات (ص٨٨١)

(٢) تفسير السعدي (مجموع المؤلفات ٢/١٠٥)

(٣) تفسير السعدي (ص١٤٩) تحقيق د. اللويحق.

(٤) تفسير السعدي (مجموع المؤلفات ٢/٩١)

(٥) تفسير السعدي (مجموع المؤلفات ٢/٣١٩)

(٦) يعني قوله تعالى (وتعاونوا على البر والتقوى).

(٧) تفسير السعدي (مجموع المؤلفات ٢/٧٩٨)

ويصير "البر اسمًا لفعل الخيرات ، وإذا أفرد أحدهما دخل فيه الآخر"[١].

وقد بيَّن السعدي رحمه الله أن بينهما عموم وخصوص فقال رحمه الله: "البر والتقوى لله : إذا أطلق أحدهما دخل فيه الآخر ، فإنه اسم جامع للقيام بكل ما يحبه الله ورسوله ظاهرًا وباطنًا ، وترك ما يكرهه الله ورسوله ظاهرًا وباطنًا ، وإذا جمع بينهما نحو قوله تعالى ﴿ وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ﴾ المائدة: ٢ ، فسر البر بالقيام بعقائد الإيمان وأخلاقه ، وأعمال البر كلها القاصرة والمتعدية ، وفسرت التقوى باتقاء ما يسخط الله من الكفر والفسوق والعصيان"[٢].

وقد شرح السعدي – رحمه الله – تعريف التقوى ، فقال واعظًا : "فإن سألتم عن تفسير التقوى التي هذه آثارها ، وهذه ثمراتها وفوائدها ، فإن أساسها التوبة النصوح من جميع الذنوب ، ثم الإنابة منكم كل وقت إلى علام الغيوب ، وذلك بالقصد الجازم إلى أداء الفرائض والواجبات ، وترك جميع المناهي والمحرمات ، وهو القيام بحقوق الله ، وحقوق المخلوقين ، والتقرب بذلك إلى رب العالمين"[٣].

وكمال التقوى المستحب إتباع أداء الفرائض بالنوافل ، وترك المكروهات بعد ترك المحرمات قال السعدي رحمه الله : "فإن أصل التقى القيام بالواجبات ، وكمال التقوى وزينتها تحليتها بالمستحبات"[٤].

وذكر السعدي – رحمه الله – تعريفًا آخر للتقوى مأثورًا عن طلق بن حبيب ، فقال : "وأما التقوى : فأن تعملوا بطاعة الله على نور من الله ، ترجون ثواب الله ، وأن تتركوا معصية الله على نور من الله ، تخشون عقاب الله"[٥].

وقد بيَّن السعدي رحمه الله أن تمام التقوى بتكميل مراتب الدين الثلاثة فقال:

"قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوٓاْ إِذَا

---

(١) تفسير السعدي (مجموع المؤلفات ٩١/٢)

(٢) تيسير اللطيف المنان (مجموع المؤلفات ٣٢٥/٣)

(٣) الفواكه الشهية في الخطب المنبرية (مجموع المؤلفات ١٤٢/٢٣ ، ١٤٣)

(٤) الفواكه الشهية في الخطب المنبرية (مجموع المؤلفات ٢٥٢/٢٣)

(٥) الخطب المنبرية على المناسبات (مجموع المؤلفات ٣١٧/٢٣)

مَا ٱتَّقَواْ وَّءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ثُمَّ ٱتَّقَواْ وَّءَامَنُواْ ثُمَّ ٱتَّقَواْ وَّأَحۡسَنُواْۚ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٩٣﴾ ﴾ المائدة: ٩٣ الأول في مقام الإسلام ، والثاني في مقام الإيمان ، والثالث في مقام الإحسان ، والمؤمن لا تكمل تقواه حتى يترك ما حرم الله ، ولا يتم دينه إلا بهذه المقامات الثلاثة ؛ لأن مقام الإسلام يقتضي وجود الأعمال الظاهرة مع الإيمان والتقوى ، فقال فيها ﴿ لَيۡسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ﴾ ومقام الإيمان لابد فيه من القيام بأركان الإيمان مع التقوى ، فقال فيه : ﴿ ثُمَّ ٱتَّقَواْ وَّءَامَنُواْ ﴾ ومقام الإحسان لابد فيه من المقام بالإحسان مع التقوى ، فقال فيه : ﴿ ثُمَّ ٱتَّقَواْ وَّأَحۡسَنُواْۚ ﴾ [١].

فنفي الجناح العام لا يكون إلا لمن قام بمقامات الدين كلها"[٢]



(١) المواهب الربانية (مجموع المؤلفات ٣/٦٨٤)

(٢) المواهب الربانية (مجموع المؤلفات ٣/٦٨٤)

المسألة الثانية: أنواع أدلة التقوى

جاء الأمر بالتقوى والحث عليها في كثير من النصوص، ويتضح هذا في الوجوه الآتية:

١- هي وصية الله للأوّلين والآخرين:

قال سبحانه وتعالى: ﴿ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ اتَّقُوا اللَّهَ وَإِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا (١٣١) وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴾ النساء: ١٣١-١٣٢.

قال الشيخ عبد الرحمن السعدي رحمه الله: "يخبر تعالى عن عموم ملكه العظيم الواسع المستلزم تدبيره بجميع أنواع التدبير، وتصرفه بأنواع التصريف قدرًا وشرعًا، فتصرفه الشرعي أن وصى الأولين والآخرين أهل الكتب السابقة واللاحقة بالتقوى المتضمنة للأمر والنهي، وتشريع الأحكام، والمجازاة لمن قام بهذه الوصية بالثواب، والمعاقبة لمن أهملها وضيعها بأليم العذاب"[1].

٢- أمر الله - عز وجل - بالتقوى، وأوجب العمل بها على عباده في آيات كثيرة، منها:

قوله تعالى: ﴿ وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾البقرة: ٢٨١.

وقال عز وجل: ﴿ ... وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾البقرة: ٢٣١.

بل التقوى أفضل الأوامر، قال الشيخ عبد الرحمن السعدي رحمه الله: ﴿ قُلْ يَا عِبَادِ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ الزمر: ١٠، أي: قل مناديًا لأشرف الخلق، وهم المؤمنون،

(١) تفسير السعدي (مجموع المؤلفات ٢/٣٠٤)

آمرًا لهم بأفضل الأوامر، وهي التقوى، ذاكرًا لهم السبب الموجب للتقوى، وهو ربوبية اللّه لهم وإنعامه عليهم، المقتضي ذلك منهم أن يتقوه، ومن ذلك ما مَنَّ اللّه عليهم به من الإيمان فإنه موجب للتقوى، كما تقول: أيها الكريم تصدق، وأيها الشجاع قاتل"[١].

وأمَرَ النبيُّ – صلى الله عليه وسلم – بالتقوى ، وحث عليها في أحاديث كثيرة ، منها :

ما ثبت عن أبي أمامة – رضي الله عنه – قال : سمعت رسول الله – صلى الله عليه وسلم – يخطب في حجة الوداع فقال : "اتقوا الله ربكم ، وصلّوا خمسكم ، وصوموا شهركم ، وأدُّوا زكاة أموالِكم ، وأطيعوا ذا أمركم ، تدخلوا جنة ربكم"[٢].

ولأَهمِّية التقوى دعا النبي – صلى الله عليه وسلم – ربه ، فسأله التُّقَى ، فعن ابن مسعود – رضي الله عنه – أن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – كان يقول : "اللهم إني أسألك الهدى ، والتقى ، والعفاف ، والغنى"[٣].

٣- التقوى أهم من اللباس الحسّي:

قال الشيخ عبد الرحمن السعدي رحمه الله: "﴿... وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ...﴾ الأعراف:٢٦، من اللباس الحسي، فإن لباس التقوى يستمر مع العبد، ولا يبلى ولا يبيد، وهو جمال القلب والروح.

وأما اللباس الظاهري، فغايته أن يستر العورة الظاهرة، في وقت من الأوقات، أو يكون جمالًا للإنسان، وليس وراء ذلك منه نفع.

وأيضًا، فبتقدير عدم هذا اللباس، تنكشف عورته الظاهرة، التي لا يضره كشفها، مع الضرورة، وأما بتقدير عدم لباس التقوى، فإنها تنكشف عورته الباطنة، وينال الخزي والفضيحة"[٤].

---

(١) تفسير السعدي (مجموع المؤلفات ٢/٩٩٦)

(٢) أخرجه الترمذي في سننه، (١/ ٦١٦) ح:(٧٥٥).

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الآداب، (٨/ ٨١) ح:(٧٠٠٣).

(٤) تفسير السعدي (مجموع المؤلفات ٢/٤٠٨)

٤- التقوى خير زاد ليوم المعاد ، وهي أهم من الطعام والشراب ، قال الله عز وجل : ﴿...وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ﴾البقرة:١٩٧.

قال الشيخ عبد الرحمن السعدي رحمه الله : "وأما الزاد الحقيقي المستمر نفعه لصاحبه ، في دنياه وأخراه ، فهو زاد التقوى الذي هو زاد إلى دار القرار ، وهو الموصل لأكمل لذة ، وأجل نعيم دائم أبدًا ، ومن ترك هذا الزاد ، فهو المنقطع به الذي هو عرضة لكل شر ، وممنوع من الوصول إلى دار المتقين ، فهذا مدح للتقوى .

ثم أمر بها أولي الألباب فقال : ﴿وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ أي : يا أهل العقول الرزينة ، اتقوا ربكم الذي تقواه أعظم ما تأمر به العقول ، وتركها دليل على الجهل ، وفساد الرأي"[١].

---

(١) تفسير السعدي (مجموع المؤلفات ٢/١٧٢)

المسألة الثالثة: ثمرات التقوى

جاء في ثمرات التقوى الحسنة، وعاقبتها الحميدة النصوص الكثيرة في الكتاب والسنة ، وكيف لا يكون الأمر بهذه المثابة و"كل خير في الدنيا والآخرة فمن آثار التقوى"[١].

و"امتثال العبد لتقوى ربه عنوان السعادة ، وعلامة الفلاح ، وقد رتب اللّه على التقوى من خير الدنيا والآخرة شيئًا كثيرا"[٢] ، وقد أجمل الشيخ السعدي رحمه الله عددا من فضائل التقوى فقال: " القيام بفرائض الله وترك محارمه الذي هو التقوى سبب لتفريج الكربات والمخارج من كل ضيق وشدة، وسبب لتيسير الأمور كلها، وتيسير الأرزاق المتنوعة، وتكفير السيئات وتعظيم الأجور.
فخيرات الدنيا والآخرة سببها الوحيد الذي لا سبب لها سواه، القيام بالتقوى والشريعة الدينية"[٣]

ومن ثمرات التقوى العظيمة وآثارها الحسنة الجميلة على وجه التفصيل:

١- التقوى سبب لتيسير الأمور:

قال تعالى: ﴿ ... وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مِنۡ أَمۡرِهِۦ يُسۡرٗا ﴾الطلاق: ٤ .
"المعونة من اللّه تنزل بحسب التقوى، فلازموا على تقوى اللّه، يعنكم وينصركم على عدوكم"[٤].

٢- إن التقوى سبب لحماية الإنسان من ضرر الشيطان :

قال تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ إِذَا مَسَّهُمۡ طَٰٓئِفٞ مِّنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبۡصِرُونَ ٢٠١ ﴾ الأعراف: ٢٠١

---

(١) تفسير السعدي (مجموع المؤلفات ٢/٥٨٠)

(٢) تفسير السعدي (مجموع المؤلفات ٢/٤٥٥)

(٣) الرياض الناضرة (مجموع المؤلفات ١٥٨/٢٢)

(٤) تفسير السعدي (مجموع المؤلفات ٢/٥٠٤)

قال **الشيخ عبد الرحمن السعدي رحمه الله** : " كذلك قوله ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ إِذَا مَسَّهُمۡ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبۡصِرُونَ ﴿٢٠١﴾ ﴾ **الأعراف: ٢٠١** أي : إن الذين كانت التقوى وصفهم ، واليقظة والتدبر لسنن الله وآياته حالهم ، وترك المحارم شعارهم متى زين لهم الشيطان بعض الذنوب ولبس عليهم الطريق ، وحاول تخديرهم بالشبهات أو الشهوات ، تذكروا كل أمر يوجب لهم المبادرة إلى المتاب إجلالًا لعظمة الله ، وما يقتضيه الإيمان وما توجبه التقوى ، وتذكروا عقابه ونكاله ، وتذكروا ما تحدثه الذنوب من العيوب والنقائص وما تسلبه من الكمالات ، فإذا هم مبصرون من أين أُتوا ، ومبصرون الوجه الذي فيه التخلص من هذا الذنب الذي وقعوا فيه ، فبادروا بالتوبة النصوح والرجوع إلى صراط الله المستقيم ، فعادوا إلى مرتبتهم وعاد الشيطان خاسئًا مدحورًا "(١).

٣ – التقوى سبب لتفتيح البركات من السماء والأرض :

قال تعالى : ﴿ وَلَوۡ أَنَّ أَهۡلَ ٱلۡقُرَىٰٓ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوۡاْ لَفَتَحۡنَا عَلَيۡهِم بَرَكَٰتٖ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ ﴾ الأعراف: ٩٦

قال الشيخ عبد الرحمن السعدي رحمه الله : "أهل القرى ، لو آمنوا بقلوبهم إيمانًا صادقًا صدقته الأعمال ، واستعملوا تقوى اللّه تعالى ظاهرًا وباطنًا بترك جميع ما حرم اللّه ، لفتح عليهم بركات السماء والأرض ، فأرسل السماء عليهم مدرارًا ، وأنبت لهم من الأرض ما به يعيشون وتعيش بهائمهم ، في أخصب عيش وأغزر رزق ، من غير عناء ولا تعب ، ولا كد ولا نصب"(٢).

٤ – التقوى سبب للخروج من الضيق ، وحصول الرزق الواسع :

---

(١) القواعد الحسان (مجموع المؤلفات ٣/٣٨٩)

(٢) تفسير السعدي (مجموع المؤلفات ٢/٤٢٥)

قال تعالى : ﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا ۝٢ وَيَرۡزُقۡهُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَحۡتَسِبُۚ وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ ﴾ الطلاق: ٢ - ٣

قال الشيخ عبد الرحمن السعدي – رحمه الله – مبينًا هذه الثمرة للتقوى : "وجعل الله التقوى والسعي والحركة سببًا للرزق ، شاهده قوله تعالى : ﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا ۝٢ وَيَرۡزُقۡهُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَحۡتَسِبُۚ وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ ﴾ الطلاق: ٢ - ٣.

وجعل الله التقوى والإيمان وتكرار دعوة ذي النون سببًا للخروج من كل كرب وضيق وشدة، شاهده الآية السابقة، وكذلك قوله: ﴿ وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبٗا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقۡدِرَ عَلَيۡهِ فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٨٧ فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ وَنَجَّيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡغَمِّۚ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِي ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾ الأنبياء:٨٧-٨٨" [١].

٥ – التقوى سبب لنيل الولاية:

قال تعالى: ﴿ ...إِنۡ أَوۡلِيَآؤُهُۥٓ إِلَّا ٱلۡمُتَّقُونَ... ﴾ الأنفال:٣٤.

قال الشيخ عبد الرحمن السعدي رحمه الله: "ولاية الله تدرك بالإيمان والتقوى، فكل من كان مؤمنًا تقيًّا كان لله وليًّا"[٢].



(١) تيسير اللطيف المنان (مجموع المؤلفات ٣/٣١٥)

(٢) تفسير السعدي (مجموع المؤلفات ٢/٣٤١)

المبحث الرابع عشر: المراقبة

وفيه ثلاثة مطالب:

المسألة الأولى: تعريف المراقبة

المسألة الثانية: أنواع أدلة المراقبة

المسألة الثالثة: ثمرات المراقبة

المسألة الأولى: تعريف المراقبة

أولًا: التعريف اللغوي:

المراقبة في اللغة مصدر من الفعل الرباعي : راقب يراقب مراقبة ، وهي تدل على انتصاب لمراعاة شيء .

ورقب الشيء يرقبه ، وراقبه مراقبة ورقابًا : حرسه.

قال ابن فارس : " الراء والقاف والباء أصلٌ واحدٌ مطّرد ، يدلّ على انتصابٍ لمراعاةِ شيءٍ . من ذلك الرَّقِيب ، وهو الحافِظ . يقال منه رَقَبْتُ أرْقَبُ رِقْبة ورِقْبانًا . والمرْقَب : المكان العالي يقِفُ عليه النَّاظِر ... ومن ذلك اشتقاق الرَّقَبةِ ، لأنَّها منتَصِبة ، ولأنّ النّاظرَ لا بدَّ ينتصبُ عند نظره"[1].

ثانيًا : التعريف الشرعي:

قال ابن القيم- رحمه الله – في تعريفها : "دوام علم العبد وتيقنهُ باطلاع الحق سبحانه وتعالى على ظاهره وباطنه"[2].

وقد أشار الشيخ عبد الرحمن السعدي –رحمه الله– إلى معنى المراقبة إذ قال: "أفضل الإيمان : مقام الإحسان والمراقبة ، وهو أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك ، وتعلم أن الله معك"[3].

---

(١) مقاييس اللغة (٤٢٧/٢)

(٢) مدارج السالكين (٦٥/٢)

(٣) التنبيهات اللطيفة (مجموع المؤلفات ٧٤٦/٦ ، ٧٤٧)

المسألة الثانية : أنواع أدلة المراقبة

جاء في النصوص ما يبين منزلة المراقبة في أدلة كثيرة، ومن وجوه متعددة، وهي عمل قلبي عظيم يثمر انكفاف العبد عن المعاصي، وأن يكون العبد على يقين من اطلاع الله تعالى عليه في حركاته وسكناته، قال السعدي -رحمه الله- : "إن أصل الأدب مراقبة الله في السر والعلانية"(١).

ويتضح عظيم مقام المراقبة فيما يأتي:

١- حث الله عباده على المراقبة :

والنصوص في الحث على عبادة المراقبة والأمر بها كثيرة ، منها قول الله تعالى ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ ﴿٥﴾ ﴾ آل عمران: ٥.

وجاء في حديث أبي هريرة – رضي الله عنه – عن النبي – صلى الله عليه وسلم – أنه قال : "سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله ..."(٢)، وهؤلاء السبعة الوصف المشترك بينهم جميعًا هو المراقبة لله تبارك وتعالى .

وقال صلى الله عليه وسلم : "يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار ، فيجتمعون في صلاة الصبح وصلاة العصر ، ثم يعرج الذين باتوا فيكم فيسألهم الله وهو أعلم بهم ؛ كيف تركتم عبادي ؟ فيقولون : تركناهم وهم يصلون ، وأتيناهم وهم يصلون"(٣).

وقال تعالى : ﴿ وَأَسِرُّواْ قَوْلَكُمْ أَوِ ٱجْهَرُواْ بِهِۦٓ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١٣﴾ ﴾

---

(١) الفواكه الشهية (مجموع المؤلفات ٢٢٥/٢٣)

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأذان، باب من جلس في المسجد ينتظر الصلاة وفضل المساجد (١/ ١٣٣)، ح:(٦٦٠)، ومسلم في صحيحه كتاب الزكاة باب فضل إخفاء الصدقة (٢/ ٧١٥)ح:(١٠٣١) واللفظ للبخاري

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب مواقيت الصلاة، باب فضل صلاة العصر. (٩/ ١٢٦) ح:(٧٤٢٩)، ومسلم في صحيحه، كتاب المساجد، باب فضل صلاتي الصبح والعصر والمحافظة عليهما. (٢/ ١١٣) ح:(١٣٧٦).

الملك: ١٣

قال الشيخ عبد الرحمن السعدي رحمه الله : "هذا إخبار من الله بسعة علمه ، وشمول لطفه فقال : ﴿ وَأَسِرُّواْ قَوْلَكُمْ أَوِ ٱجْهَرُواْ ﴾ أي : كلها سواء لديه ، لا يخفى عليه منها خافية ، ف ﴿ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١٣﴾ ﴾ ، أي : بما فيها من النيات ، والإرادات ، فكيف بالأقوال والأفعال التي تسمع وترى؟!"[١] .

وفي قوله تعالى: ﴿ وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُواْ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِۚ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴾ يونس: ٦١، قال الشيخ عبدالرحمن السعدي رحمه الله: "يخبر تعالى عن عموم مشاهدته واطلاعه على جميع أحوال العباد في حركاتهم، وسكناتهم، وفي ضمن هذا الدعوة لمراقبته على الدوام، فقال: ﴿ وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ ﴾، أي: حال من أحوالك الدينية والدنيوية.﴿ وَمَا تَتْلُواْ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ ﴾، أي: وما تتلو من القرآن الذي أوحاه الله إليك.

﴿ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ ﴾ صغير أو كبير ﴿ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ ﴾، أي: وقت شروعكم فيه، واستمراركم على العمل به.

فراقبوا الله في أعمالكم، وأدوها على وجه النصيحة، والاجتهاد فيها، وإياكم وما يكره الله تعالى، فإنه مطلع عليكم، عالم بظواهركم وبواطنكم"[٢].

وقال تعالى: ﴿ يَٰبُنَيَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوْ فِي ٱلْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴾ لقمان: ١٦.

قال الشيخ عبدالرحمن السعدي رحمه الله: "﴿ يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُ ﴾ لسعة علمه، وتمام خبرته وكمال قدرته، ولهذا قال: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴾، أي: لطف في علمه وخبرته، حتى اطلع على البواطن والأسرار، وخفايا القفار والبحار.

---

(١) تفسير السعدي (مجموع المؤلفات ٢/١١٩٩)

(٢) تفسير السعدي (مجموع المؤلفات ٢/٥١٩)

والمقصود من هذا الحث على مراقبة اللّه، والعمل بطاعته، مهما أمكن، والترهيب من عمل القبيح، قَلَّ أو كَثُرَ".

المسألة الثالثة: ثمرات المراقبة

تظهر ثمرات مراقبة الله تعالى في المسائل الآتية:

١- المراقبة سبب من أسباب دخول الجنة :

قال تعالى : ﴿ هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ ﴾ الرحمن:٦٠.

قال ابن القيم مفسرًا الآية : "الإحسان جامع لجميع أبواب الحقائق ، وهو أن تعبد الله كأنك تراه ... وفي الحديث إشارة إلى كمال الحضور مع الله عز وجل ، ومراقبته ، ومحبته ومعرفته ، والإنابة إليه ، والإخلاص له ، ولجميع مقامات الإيمان"[١].

قال تعالى : ﴿ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ۖ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾ يونس: ٢٦

قال الشيخ عبدالرحمن السعدي رحمه الله : "أي : للذين أحسنوا في عبادة الخالق ، بأن عبدوه على وجه المراقبة والنصيحة في عبوديته ، وقاموا بما قدروا عليه منها ... فهؤلاء الذين أحسنوا ، لهم الحسنى، وهي الجنة الكاملة في حسنها و (زيادة)، وهي النظر إلى وجه الله الكريم ، وسماع كلامه ، والفوز برضاه والبهجة بقربه ، فبهذا حصل لهم أعلى ما يتمناه المتمنون ، ويسأله السائلون"[٢].

وقال السعدي رحمه الله : "أما تقوى الله في السر والعلانية ، فهي ملاك الأمور ، وبها حصول الخيرات واندفاع الشرور ، فهي مراقبة الله على الدوام ، والعلم بقرب الملك العلام ، فيستحي من ربه أن يراه حيث نهاه ، أو يفقده في كل ما يقرب إلى رضاه"[٣].

٢- سبب عظيم لصلاح القلب :

قال السعدي رحمه الله : "ومنها : أن المؤمنين بالله وبكماله وعظمته وكبريائه

---

(١) مدارج السالكين (٢/٤٣٠)

(٢) تفسير السعدي (مجموع المؤلفات ٢/٥١٢)

(٣) الفواكه الشهية (مجموع المؤلفات ٢٣/٢٦٢)

ومجده أعظم الناس يقينًا وطمأنينة وتوكلًا على الله ، وثقة بوعده الصادق ، ورجاء لرحمته ، وخوفًا من عقابه ، وأعظمهم إجلالًا لله ومراقبة ، وأعظمهم إخلاصًا وصدقًا ، وهذا هو صلاح القلوب ، لا سبيل إليه إلا بالإيمان"(١).

٣- أن بها يحصل العبد على معية الله وتأييده:

قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحۡسِنُونَ ﴾ النحل:١٢٨.

قال ابن كثير : "أي : معهم بتأييده ونصره ومعونته ، وهذه معية خاصة"(٢).

قال صلى الله عليه وسلم : "أفضل الإيمان أن تعلم أن الله معك حيثما كنت"(٣).

قال الشيخ عبد الرحمن السعدي رحمه الله : "أفضل الإيمان : مقام الإحسان والمراقبة ، وهو أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك ، وتعلم أن الله معك ، لا تتكلم ولا تفعل ولا تتصرف إلا والله يراك ويشاهدك ويعلم سرك وجهرك ، وأن تلزم الأدب مع الله ... فهذه المعية متى حصل للعبد استحضارها في كل أحواله - لا سيما عباداته - فإنها أعظم عون على المراقبة التي هي أعلى مراتب الإيمان ، فيجمع العبد بين الإيمان بعلو الله واستحضار قربه"(٤).

٤- تعينه على ترك المعاصي :

فاستحضار هذا المقام يوجب الانكفاف عن المعاصي ، وفي تفسير قوله تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ لِمَنۡ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ ﴿١٤﴾ ﴾ **إبراهيم: ١٤** قال الشيخ عبدالرحمن السعدي رحمه الله : "﴿ خَافَ مَقَامِي ﴾ عليه في الدنيا ، وراقب الله مراقبة من يعلم أنه يراه ، ﴿ وَخَافَ وَعِيدِ ﴾ ، أي : ما توعدت به من عصاني ، فأوجب له

---

(١) تيسير اللطيف المنان (مجموع المؤلفات ٣/٥٧)

(٢) تفسير ابن كثير (٤/٦١٥)

(٣) رواه الطبراني في الأوسط (٨/٣٣٦) ، وحسنه ابن تيمية (مجموع الفتاوى٣/١٤٠)، وضعفه الألباني في الضعيفة ح(٢٥٨٩)

(٤) التنبيهات اللطيفة (مجموع المؤلفات ٦/٧٤٦ ، ٧٤٧)

ذلك الانكفاف عما يكرهه الله والمبادرة إلى ما يحبه الله"[(١)].

قال ابن القيم – رحمه الله – عن مقام المراقبة : "وَهِيَ تُوجِبُ صِيَانَةَ الْبَاطِنِ وَالظَّاهِرِ ، فَصِيَانَةُ الظَّاهِرِ : بِحِفْظِ الْحَرَكَاتِ الظَّاهِرَةِ ، وَصِيَانَةُ الْبَاطِنِ : بِحِفْظِ الْخَوَاطِرِ وَالْإِرَادَاتِ وَالْحَرَكَاتِ الْبَاطِنَةِ ، الَّتِي مِنْهَا رَفْضُ مُعَارَضَةِ أَمْرِهِ وَخَبَرِهِ . فَيَتَجَرَّدُ الْبَاطِنُ مِنْ كُلِّ شَهْوَةٍ وَإِرَادَةٍ تُعَارِضُ أَمْرَهُ ، وَمِنْ كُلِّ إِرَادَةٍ تُعَارِضُ إِرَادَتَهُ ، وَمِنْ كُلِّ شُبْهَةٍ تُعَارِضُ خَبَرَهُ ، وَمِنْ كُلِّ مَحَبَّةٍ تُزَاحِمُ مَحَبَّتَهُ . وَهَذِهِ حَقِيقَةُ الْقَلْبِ السَّلِيمِ الَّذِي لَا يَنْجُو إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِهِ ، وَهَذَا هُوَ حَقِيقَةُ تَجْرِيدِ الْأَبْرَارِ الْمُقَرَّبِينَ الْعَارِفِينَ ، وَكُلُّ تَجْرِيدٍ سِوَى هَذَا فَنَاقِصٌ ، وَهَذَا تَجْرِيدُ أَرْبَابِ الْعَزَائِمِ"[(٢)].

وقال ابن القيم : "فإن الإحسان إذا باشر القلب منعه من المعاصي ، فإن من عبد الله كأنه يراه لم يكن ذلك إلا لاستيلاء ذِكره ومحبته وخوفه ورجائه على قلبه ، بحيث يصير كأنه يشاهده ، وذلك يحول بينه وبين إرادة المعصية ، فضلًا عن مواقعتها"[(٣)].

وقال أيضًا : "فمن راقب الله في سره حفظه الله في حركاته ، في سره وعلانيته"[(٤)].

ووقوع المعصية من العبد إنما هو نتيجة لعدم القيام بعبادة المراقبة، قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا ٱلتَّوۡبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٖ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٖ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمٗا ﴿١٧﴾ وَلَيۡسَتِ ٱلتَّوۡبَةُ لِلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلۡمَوۡتُ قَالَ إِنِّي تُبۡتُ ٱلۡـَٰٔنَ وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمۡ كُفَّارٌۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَعۡتَدۡنَا لَهُمۡ عَذَابًا أَلِيمٗا ﴾ النساء:١٧-١٨.

قال الشيخ عبد الرحمن السعدي رحمه الله: "﴿ بِجَهَٰلَةٖ ﴾، أي: جهالة منه بعاقبتها وإيجابها لسخط الله وعقابه، وجهل منه بنظر الله ومراقبته له، وجهل منه بما تؤول إليه من نقص الإيمان أو إعدامه، فكل عاص لله فهو جاهل بهذا الاعتبار، وإن كان عالمًا

---

(١) تفسير السعدي (مجموع المؤلفات ٢/٥٩٦)

(٢) مدارج السالكين (٢/٦٨)

(٣) الجواب الكافي (ص١٧٤)

(٤) مدارج السالكين (٢/٦٦)

بالتحريم"[١].

٥- المراقبة تثمر السكينة والخشوع :

قال السعدي رحمه الله : "وأما الخشوع الدائم الذي هو وصف خواص المؤمنين فينشأ من كمال معرفة العبد بربه ومراقبته ، فيستولي ذلك على القلب كما تستولي المحبة"[٢].



(١) تفسير السعدي (مجموع المؤلفات ٢/٢٥٩)

(٢) تيسير اللطيف المنان (مجموع المؤلفات ٣/٣٢٧)

المبحث الخامس عشر: الزهد

وفيه ثلاثة مطالب:

المسألة الأولى: تعريف الزهد

المسألة الثانية: أدلة الزهد

المسألة الثالثة: ثمرات الزهد

المسألة الأولى: تعريف الزهد

أولًا: التعريف اللغوي:

الزهد في اللغة ضد الرغبة، يقال: زَهَدَ فيه وعنه بمعنَى: تَرَكَه وأَعرَض عنه، ويأتي بمعنى: القليل، فالزهد القلة في كل شيء.

قال ابن فارس: "الزاء والهاء والدال أصلٌ يدلُّ على قِلّةِ الشيء، والزّهِيد: الشيء القليل"[(١)].

ثانياً: التعريف الشرعي:

- قيل هو النظر إلى الدنيا بعين الزوال فتصغر في عينك فيسهل عليك الإعراض عنها.
- وقيل الزهد سلو القلب عن الأسباب ونفض الأيدي من الأملاك.
- وقيل خلو القلب عما خلت منه اليد[(٢)].
- قال سفيان الثوري: الزهد في الدُّنيا قِصَرُ الأمل، ليس بأكل الغليظ، ولا بلبس العباء[(٣)].
- وقال أبو سليمان الداراني رحمه الله: الزهد ترك ما يشغل عن الله؛ روى عنه أبو نعيم أنه قال: اختلفوا علينا في الزهد بالعراق، فمنهم مَن قال: الزهد في ترك لقاء الناس، ومنهم مَن قال: في ترك الشهوات، ومنهم مَن قال: في ترك الشِّبع، وكلامهم قريب بعضُه من بعض؛ قال: وأنا أذهب إلى أنَّ الزهدَ في ترك ما يشغلك عن الله"[(٤)].
- ومن أجمع الكلام في الزهد ما قاله الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله: الزهد على ثلاثة أوجه:

---

(١) مقاييس اللغة (٣/٣١)

(٢) هذه التعريفات ذكرها ابن القيم في مدارج السالكين (٢/١٠)

(٣) حلية الأولياء (٦/٣٨٦)

(٤) حلية الأولياء (٩/٢٥٨)

الأول: ترك الحرام وهو زهد العوام.

والثاني: ترك الفضول من الحلال وهو زهد الخواص.

والثالث: ترك ما يشغل عن الله وهو زهد العارفين.

قال ابن القيم رحمه الله معلقًا على هذا الكلام: وهذا الكلام من الإمام أحمد يأتي على جميع ما تقدم من كلام المشايخ مع زيادة تفصيله وتبيين درجاته، وهو من أجمع الكلام وهو يدل على أنه رضي الله عنه من هذا العلم بالمحل الأعلى، وقد شهد الشافعي رحمه الله بإمامته في ثمانية أشياء أحدها الزهد[١].

- ويقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: والزهد المشروع ترك ما لا ينفع في الدار الآخرة، وأما كل ما يستعين به العبد على طاعة الله فليس تركه من الزهد المشروع"[٢].
- وقال ابن القيم رحمه الله بعد أن ذكر طرفًا من كلام أهل العلم في الزهد: والذي أجمع عليه العارفون: أن الزهد سفر القلب من وطن الدنيا وأخذه في منازل الآخرة"[٣].

وقال رحمه الله: "ومن أحسن ما قيل في الزهد كلام الحسن أو غيره: ليس الزهد في الدنيا بتحريم الحلال ولا إضاعة المال؛ ولكن أن تكون بما في يد الله أوثق منك بما في يدك، وأن تكون في ثواب المصيبة إذا أصبت بها أرغب منك فيها لو لم تصبك فهذا من أجمع كلام في الزهد وأحسنه"[٤].

وعرفه الشيخ عبد الرحمن السعدي رحمه الله بقوله: "الزهد الحقيقي هو الزهد فيما لا ينفع في الدين والدنيا، والرغبة والسعي في كل ما ينفع"[٥].

وقال السعدي رحمه الله موضحًا هذا التعريف للزهد عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿ مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ ... ﴾ النحل: ٩٦، "وفي هذا الحث والترغيب على الزهد في

---

(١) مدارج السالكين (١٢/٢).

(٢) مجموع الفتاوى (٢٨/١١).

(٣) مدارج السالكين (١٢/٢).

(٤) المصدر نفسه (١٣/٢).

(٥) تفسير السعدي (مجموع المؤلفات ٦٣٣/٢)

الدنيا خصوصًا الزهد المتعين، وهو الزهد فيما يكون ضررًا على العبد ويوجب له الاشتغال عما أوجب الله عليه وتقديمه على حق الله فإن هذا الزهد واجب ... وليس الزهد الممدوح هو الانقطاع للعبادات القاصرة كالصلاة والصيام والذكر ونحوها بل لا يكون العبد زاهدًا زهدًا صحيحًا حتى يقوم بما يقدر عليه من الأوامر الشرعية الظاهرة والباطنة ومن الدعوة إلى الله وإلى دينه بالقول والفعل"[١].

---

(١) تفسير السعدي (مجموع المؤلفات ٢/٦٣٣)

المسألة الثانية: أنواع أدلة الزهد

جاء التزهيد في الدنيا وبيان قلة وقتها، والترغيب في الآخرة في نصوص كثيرة في الكتاب والسنة، كما قال تعالى: ﴿ بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿١٦﴾ وَٱلْـَٔاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴾ الأعلى: ١٦ – ١٧، وقال تعالى: ﴿ ... تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْـَٔاخِرَةَ ... ﴾ الأنفال: ٦٧، وقال تعالى في قصة قارون: ﴿ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ ۖ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا يَـٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَـٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٧٩﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّـٰبِرُونَ ﴾ القصص: ٧٩ – ٨٠، وقوله: ﴿ تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْـَٔاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَٱلْعَـٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ القصص: ٨٣.

وأدلة الزهد يمكن ردها إلى عدد من الوجوه:

١-الحث على الزهد في الدنيا ببيان حقارتها وقلة وقتها:

قد بين الشيخ عبد الرحمن السعدي رحمه الله حقارة الدنيا من جهة قلة زمانها ومن جهة منغصاتها، فقال: "أما لذات الدنيا فإنها مشوبة بأنواع التنغيص الذي لو قوبل بين لذاتها وما يقترن بها من أنواع الآلام والهموم والغموم، لم يكن لذلك نسبة بوجه من الوجوه، وأما زمانها، فإن الدنيا منقضية، وعمر الإنسان بالنسبة إلى الدنيا شيء يسير"[(١)].

وقال تعالى: ﴿ لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ الحجر: ٨٨.

قال الشيخ عبد الرحمن السعدي رحمه الله: وإذا كان الله قد أعطاه القرآن العظيم مع السبع المثاني كان قد أعطاه أفضل ما يتنافس فيه المتنافسون، وأعظم ما فرح به المؤمنون، ﴿ قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾ يونس: ٥٨، ولذلك

---

(١) تفسير السعدي (مجموع المؤلفات ٢/٢٨٠)

قال بعده: ﴿ لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ ﴾، أي: لا تعجب إعجابًا يحملك على إشغال فكرك بشهوات الدنيا التي تمتع بها المترفون، واغترَّ بها الجاهلون، واستغنِ بما آتاك الله من المثاني والقرآن العظيم، ﴿ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ ﴾، فإنهم لا خير فيهم يرجى، ولا نفع يرتقب، فلك في المؤمنين عنهم أحسن البدل وأفضل العوض"[1].

وقال تعالى: ﴿ وَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَىْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتُهَا ۚ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٠﴾ أَفَمَن وَعَدْنَٰهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَٰقِيهِ كَمَن مَّتَّعْنَٰهُ مَتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ ﴾ القصص: ٦٠ – ٦١.

قال الشيخ عبد الرحمن السعدي رحمه الله: "هذا حض من الله لعباده على الزهد في الدنيا وعدم الاغترار بها، وعلى الرغبة في الأخرى، وجعلها مقصود العبد ومطلوبه، ويخبرهم أن جميع ما أوتيه الخلق، من الذهب، والفضة، والحيوانات والأمتعة، والنساء، والبنين، والمآكل، والمشارب، واللذات، كلها متاع الحياة الدنيا وزينتها، أي: يتمتع به وقتًا قصيرًا، متاعًا قاصرًا، محشوًّا بالمنغصات، ممزوجًا بالغصص.

ويزين به زمانًا يسيرًا، للفخر والرياء، ثم يزول ذلك سريعًا، وينقضي جميعًا، ولم يستفد صاحبه منه إلا الحسرة والندم، والخيبة والحرمان.

﴿ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ ﴾ من النعيم المقيم، والعيش السليم ﴿ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴾، أي: أفضل في وصفه وكميته، وهو دائم أبدًا، ومستمر سرمدًا.

﴿ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾، أي: أفلا يكون لكم عقول، بها تزّينون، أي: الأمور أولى بالإيثار، وأي الدارين أحق للعمل لها؟

فدل ذلك أنه بحسب عقل العبد، يؤثر الأخرى على الدنيا، وأنه ما آثر أحد الدنيا إلا لنقص في عقله، ولهذا نبه العقول على الموازنة بين عاقبة مؤثر الدنيا ومؤثر الآخرة، فقال: ﴿ أَفَمَن وَعَدْنَٰهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَٰقِيهِ ﴾، أي: هل يستوي مؤمن ساع للآخرة سعيها، قد عمل على وعد ربه له بالثواب الحسن، الذي هو الجنة، وما فيها من

---

(١) تفسير السعدي (مجموع المؤلفات ٢/٦١٣)

النعيم العظيم، فهو لاقيه من غير شك ولا ارتياب، لأنه وعد من كريم صادق الوعد، لا يخلف الميعاد، لعبد قام بمرضاته وجانب سخطه، ﴿كَمَن مَّتَّعۡنَٰهُ مَتَٰعَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾، فهو يأخذ فيها ويعطي، ويأكل ويشرب، ويتمتع كما تتمتع البهائم، قد اشتغل بدنياه عن آخرته، ولم يرفع بهدى الله رأسًا، ولم ينقد للمرسلين، فهو لا يزال كذلك، لا يتزود من دنياه إلا الخسار والهلاك.

﴿ثُمَّ هُوَ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ مِنَ ٱلۡمُحۡضَرِينَ﴾ للحساب، وقد علم أنه لم يقدم خيرًا لنفسه، وإنما قدم جميع ما يضره، وانتقل إلى دار الجزاء بالأعمال، فما ظنكم إلى ما يصير إليه؟ وما تحسبون ما يصنع به؟ فليختر العاقل لنفسه، ما هو أولى بالاختيار، وأحق الأمرين بالإيثار"[1].

٢-الترغيب في الزهد في الدنيا بذكر الضرر المترتب على الركون إليها:

قال الشيخ عبد الرحمن السعدي رحمه الله: "عند ميل النفوس أو خوف ميلها إلى ما لا ينبغي، يذكرها الله ما يفوتها من الخير، وما حصل لها من الضرر بهذا الميل.

وهذا في القرآن كثير، وهو من أنفع الأشياء في حصول الاستقامة، لأن الأمر بالمعروف والنهي المجرد لا يكفي أكثر الخلق في كفهم عما لا ينبغي، حتى يقرن بذلك ما يفوت من المحبوبات التي تزيد أضعافًا مضاعفة على الذي يكرهه الله، وتميل إليه النفس، وما يحصل من المكروه المرتب عليه كذلك.

قال تعالى: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَأَوۡلَٰدُكُمۡ فِتۡنَةٞ...﴾ الأنفال: ٢٨، فهنا لما ذكر فتنة الأموال والأولاد التي مالت بأكثر الخلق عن طريق الاستقامة، قال مذكرًا لهم ما يفوتهم إن افتتنوا بها، وما يحصل لهم إن سلموا من فتنتها ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجۡرٌ عَظِيمٞ﴾.

وقال تعالى: ﴿هَٰٓأَنتُمۡ هَٰٓؤُلَآءِ جَٰدَلۡتُمۡ عَنۡهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا فَمَن يُجَٰدِلُ ٱللَّهَ عَنۡهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ أَم مَّن يَكُونُ عَلَيۡهِمۡ وَكِيلٗا﴾ النساء: ١٠٩، وقال تعالى: ﴿

---

(١) تفسير السعدي (مجموع المؤلفات ٢/٨٦٥)

مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ ۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ﴾ الشورى: ٢٠، وقوله تعالى: ﴿ أَفَرَءَيْتَ إِن مَّتَّعْنَٰهُمْ سِنِينَ ﴿٢٠٥﴾ ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ﴾ الشعراء: ٢٠٥ - ٢٠٦.

والآيات في هذا المعنى الجليل كثيرة جدًا، فإذا بان للناظر أصلها وقاعدتها سهل عليه تنزيل كل ما يرد منها على الأصل المقرر"(١).

وقال رسول الله ﷺ: "إن الدنيا حلوة خضرة، وإن الله مستخلفكم فيها، فينظر كيف تعملون، فاتقوا الدنيا، واتقوا النساء؛ فإن أول فتنة بني إسرائيل كانت في النساء"(٢).

قال الشيخ عبد الرحمن السعدي رحمه الله: "أخبر ﷺ في هذا الحديث بحال الدنيا وما هي عليه من الوصف الذي يروق الناظرين والذائقين، ثم أخبر أن الله جعلها محنة وابتلاء للعباد، ثم أمر بفعل الأسباب، التي تقي من الوقوع في فتنتها.

فإخباره بأنها حلوة خضرة يعم أوصافها التي هي عليها، فهي حلوة في مذاقها وطعمها، ولذاتها وشهواتها، خضرة في رونقها وحسنها الظاهر، كما قال تعالى: ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ... ﴾ آل عمران: ١٤، وقال تعالى: ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾ الكهف: ٧، فهذه اللذات المنوعة فيها، والمناظر البهيجة، جعلها الله ابتلاء منه وامتحانًا، واستخلف فيها العباد لينظر كيف يعملون؟

فمن تناولها من حلها، ووضعها في حقها، واستعان بها على ما خلق له من القيام بعبودية الله، كانت زادًا له وراحلة إلى دار أشرف منها وأبقى، وتمت له السعادة الدنيوية

---

(١) تيسير اللطيف المنان (مجموع المؤلفات ٤٨٣/٣، ٤٨٤)

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الرقاق، باب أكثر أهل الجنة الفقراء وأكثر أهل النار النساء وبيان الفتنة بالنساء، (٤/ ٢٠٩٨) ح:(٢٧٤٢).

والأخروية.

ومن جعلها أكبر همه، وغاية علمه ومراده، لم يؤتَ منها إلا ما كتب له، وكان مآله بعد ذلك إلى الشقاء، ولم يهنأ بلذاتها ولا شهواتها إلا مدة قليلة، فكانت لذاته قليلة، وأحزانه طويلة، كل نوع من لذاتها فيه هذه الفتنة والاختبار"(١).

وقال تعالى: ﴿ مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ وَلَنَجْزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓاْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ النحل: ٩٦.

قال الشيخ عبد الرحمن السعدي رحمه الله: "يحذر تعالى عباده من نقض العهود والأيمان لأجل متاع الدنيا وحطامها فقال: ﴿ وَلَا تَشْتَرُواْ بِعَهْدِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ... ﴾ النحل: ٩٥، تنالونه بالنقض وعدم الوفاء ﴿إِنَّمَا عِندَ ٱللَّهِ ﴾ من الثواب العاجل والآجل لمن آثر رضاه، وأوفى بما عاهد عليه الله ﴿هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾ من حطام الدنيا الزائلة ﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾، فآثروا ما يبقى على ما يفنى، فإن الذي عندكم ولو كثر جدًّا لا بد أن ﴿يَنفَدُ﴾ ويفنى، ﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ ﴾ ببقائه لا يفنى ولا يزول، فليس بعاقل من آثر الفاني الخسيس على الباقي النفيس وهذا كقوله تعالى: ﴿ بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿١٦﴾ وَٱلْأَخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴾ الأعلى: ١٦ - ١٧، ﴿ ...وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّلْأَبْرَارِ ﴾ آل عمران: ١٩٨، وفي هذا الحث والترغيب على الزهد في الدنيا خصوصًا الزهد المتعين، وهو الزهد فيما يكون ضررًا على العبد ويوجب له الاشتغال عما أوجب الله عليه، وتقديمه على حق الله، فإن هذا الزهد واجب"(٢).

٣- الترغيب في الآخرة بذكر منزلتها ودوامها:

قال تعالى: ﴿ ...قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ وَٱلْأَخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ ... ﴾ النساء: ٧٧.

قال الشيخ عبد الرحمن السعدي رحمه الله مبينًا معنى الآية: "التمتع بلذات الدنيا

---

(١) بهجة قلوب الأبرار (مجموع المؤلفات ١٨٧/٥)

(٢) تفسير السعدي (مجموع المؤلفات ٦٣٣/٢)

وراحتها قليل، فتحمل الأثقال في طاعة الله في المدة القصيرة مما يسهل على النفوس ويخف عليها؛ لأنها إذا علمت أن المشقة التي تنالها لا يطول لبثها هان عليها ذلك، فكيف إذا وازنت بين الدنيا والآخرة، وأن الآخرة خير منها، في ذاتها، ولذاتها وزمانها، فذاتها -كما ذكر النبي ﷺ في الحديث الثابت عنه: «أن موضع سوط في الجنة خير من الدنيا وما فيها» .

ولذاتها صافية عن المكدرات، بل كل ما خطر بالبال أو دار في الفكر من تصور لذة، فلذة الجنة فوق ذلك ... وأما الآخرة فإنها دائمة النعيم وأهلها خالدون فيها، فإذا فكّر العاقل في هاتين الدارين وتصور حقيقتهما حق التصور، عرف ما هو أحق بالإيثار، والسعي له والاجتهاد لطلبه، ولهذا قال: ﴿وَٱلْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ﴾"[(١)] .

٤- النبي ﷺ أزهد الناس في الدنيا:

مما ثبت من زهد النبي ﷺ وتقلله من الدنيا ما جاء عن النعمان بن بشير رضي الله عنه قال: «ألستم في طعام وشراب ما شئتم؟ لقد رأيت نبيكم ﷺ وما يجد من الدقل ما يملأ به بطنه»[(٢)]

وعن عائشة-رضي الله عنها- قالت: توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم: «وما في بيتي من شيء يأكله ذو كبد إلا شطر من شعير في رف لي فأكلت منه حتى طال علي فكلته ففني»[(٣)]

وعن عائشة -رضي الله عنها- أنها قالت لعروة: «ابن أختي إن كنا لننظر إلى الهلال ثم الهلال ثلاثة أهلة في شهرين وما أوقدت في أبيات رسول الله -صلى الله عليه وسلم- نار، فقلت يا خالة ما كان يعيشكم؟ قالت: الأسودان . التمر والماء . إلا أنه قد كان

---

(١) تفسير السعدي (مجموع المؤلفات ٢/٢٨٠)

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه كتاب الزهد والرقائق (٤/ ٢٢٨٤):ح (٢٩٧٧).

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب فرض الخمس، باب نفقة نساء النبي ﷺبعد وفاته (٤/ ٨١) ح:(٣٠٩٧) ومسلم في صحيحه، كتاب الزهد والرقائق (٤/ ٢٢٨٢) ح:(٢٩٧٣) واللفظ للبخاري

لرسول الله صلى الله عليه وسلم جيران من الأنصار كانت لهم منائح وكانوا يمنحون رسول الله صلى الله عليه وسلم من ألبانهم فيسقينا»[١]

وعن عمرو بن الحارث: ختن رسول الله صلى الله عليه وسلم أخي جويرية بنت الحارث قال: «ما ترك رسول الله ﷺعند موته درهما ولا دينارا ولا عبدا ولا أمة ولا شيئا إلا بغلته البيضاء وسلاحه وأرضا جعلها صدقة»[٢]

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الهبة وفضلها والتحريض عليها، (٣/ ١٥٣)ح:(٢٥٦٧)، ومسلم في صحيحه، كتاب الزهد والرقائق، (٤/ ٢٢٨٣)،ح: (٢٩٧٢).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الوصايا، باب الوصايا وقول النبيﷺ:«وصية الرجل مكتوبة عنده» (٤/ ٢)، ح:(٢٧٣٩).

المسألة الثالثة: ثمرات الزهد

١- الزهد من صفات أهل الإيمان، وهو دليل عليه ومما يستوجب به العبد الجنة:

قال سبحانه: ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْأَخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِي حَرْثِهِۦ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِي ٱلْأَخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ﴾ الشورى: ٢٠ .

قال الشيخ عبد الرحمن السعدي رحمه الله مبينًا معنى الآية: "﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْأَخِرَةِ ﴾، أي: أجرها وثوابها، فآمن بها وصدق، وسعى لها سعيها ﴿ نَزِدْ لَهُۥ فِي حَرْثِهِۦ ﴾ بأن نضاعف عمله وجزاءه أضعافًا كثيرة، كما قال تعالى: ﴿ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْأَخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴾ الإسراء: ١٩، ومع ذلك فنصيبه من الدنيا لا بد أن يأتيه.

﴿ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا ﴾ بأن: كانت الدنيا هي مقصوده وغاية مطلوبه، فلم يقدم لآخرته، ولا رجا ثوابها، ولم يخش عقابها. ﴿ نُؤْتِهِۦ مِنْهَا ﴾ نصيبه الذي قسم له، ﴿ وَمَا لَهُۥ فِي ٱلْأَخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ﴾، قد حرم الجنة ونعيمها، واستحق النار وجحيمها"[1].

وقال تعالى: ﴿ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴾ طه: ١٣١.

قال الشيخ عبد الرحمن السعدي رحمه الله: "﴿ وَرِزْقُ رَبِّكَ ﴾ العاجل من العلم والإيمان وحقائق الأعمال الصالحة والآجل من النعيم المقيم والعيش السليم في جوار الرب الرحيم ﴿ خَيْرٌ ﴾ مما متعنا به أزواجًا في ذاته وصفاته، ﴿ وَأَبْقَىٰ ﴾ لكونه لا ينقطع، أكلها دائم وظلها كما قال تعالى: ﴿ بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿١٦﴾ وَٱلْأَخِرَةُ خَيْرٌ

---

(١) تفسير السعدي (مجموع المؤلفات ٢/١٠٤٦)

وَأَبۡقَىٰٓ ﴾ الأعلى: ١٦ – ١٧.

وفي هذه الآية إشارة إلى أن العبد إذا رأى من نفسه طموحًا إلى زينة الدنيا وإقبالًا عليها أن يذكرها ما أمامها من رزق ربه، وأن يوازن بين هذا وهذا"[١].

٢– حصول الراحة والاطمئنان لأهله:

الزهد من أهم مرققات القلوب، قال الشيخ عبد الرحمن السعدي رحمه الله: "والعلم مع الزهد وكذلك العبادة مما يلطف القلب ويرققه، ويزيل عنه ما فيه من الجفاء والغلظة"[٢].

قال تعالى: ﴿ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مِّن قَبۡلِ أَن نَّبۡرَأَهَآۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ ﴿٢٢﴾ لِّكَيۡلَا تَأۡسَوۡاْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمۡ وَلَا تَفۡرَحُواْ بِمَآ ءَاتَىٰكُمۡۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخۡتَالٖ فَخُورٍ ﴾ الحديد: ٢٢ – ٢٣.

قال الشيخ عبد الرحمن السعدي رحمه الله: "يقول تعالى مخبرًا عن عموم قضائه وقدره: ﴿ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ ﴾، وهذا شامل لعموم المصائب التي تصيب الخلق، من خير وشر، فكلها قد كتبت في اللوح المحفوظ، صغيرها وكبيرها، وهذا أمر عظيم لا تحيط به العقول، بل تذهل عنده أفئدة أولي الألباب، ولكنه على الله يسير، وأخبر الله عباده بذلك لأجل أن تتقرر هذه القاعدة عندهم، ويبنوا عليها ما أصابهم من الخير والشر، فلا يأسوا ويحزنوا على ما فاتهم، مما طمحت له أنفسهم وتشوفوا إليه، لعلمهم أن ذلك مكتوب في اللوح المحفوظ، لا بد من نفوذه ووقوعه، فلا سبيل إلى دفعه، ولا يفرحوا بما آتاهم الله فرح بطر وأشر، لعلمهم أنهم ما أدركوه بحولهم وقوتهم، وإنما أدركوه بفضل الله ومنه، فيشتغلوا بشكر من أولى النعم ودفع النقم، ولهذا قال: ﴿ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخۡتَالٖ فَخُورٍ ﴾، أي: متكبر فظ غليظ، معجب بنفسه،

---

(١) تفسير السعدي (مجموع المؤلفات ٢/٧٢٤)

(٢) تفسير السعدي (مجموع المؤلفات ٢/٣٤٩)

فخور بنعم الله، ينسبها إلى نفسه، وتطغيه وتلهيه، كما قال تبارك وتعالى: ﴿ فَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَـٰنَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَـٰهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍۭ ۚ بَلْ هِىَ فِتْنَةٌ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ الزمر: ٤٩ "[1].

٣- قطع العلائق:

الزهد يصرف المسلم عن التعلق بالملذات الفانية، والعمل من أجل النعيم المقيم، فيحب الإنفاق في سبيل الله، وعدم التعلق بالدنيا.

٤- سبب لنيل محبة الله تعالى ومحبة الناس:

من أسباب نيل محبة الله الزهد في الدنيا، فعن سهل بن سعد الساعدي ﷺ قال: «أتى النبي ﷺ رجل فقال: يا رسول الله، دلني على عمل إذا أنا عملته أحبني الله وأحبني الناس. فقال رسول الله ﷺ: ازهد في الدنيا يحبك الله، وازهد فيما في أيدي الناس يحبوك»[2].

---

(١) تفسير السعدي (مجموع المؤلفات ٢/١١٥٥)

(٢) أخرجه ابن ماجه في سننه، باب الزهد في الدنيا، (٥/ ٢٢٥)،ح:(٤١٠٢)، والطبراني في المعجم الكبير (٦/ ١٩٣)،ح:(٥٩٧٢) وقال النووي"حديث حسن رواه ابن ماجه وغيره بأسانيد حسنه"(ص: ٢٢٦)، وصححه الألباني بشواهده في صحيح الجامع (١/ ٢٢٠).

المبحث السادس عشر: الورع

وفيه ثلاثة مطالب:

المسألة الأولى: تعريف الورع

المسألة الثانية: أنواع أدلة الورع

المسألة الثالثة: ثمرات الورع

المسألة الأولى: تعريف الورع

أولًا: التعريف اللغوي:

الورع لغة مأخوذ من ورع يرِع ورْعا وورعًا، وهذه الكلمة تدل على الكف والانقباض.

الورع: التَّقْوَى، والتَّحَرُّج، والكَفُّ عن المحارِم، من وَرِعَ الرَّجُلُ، كوَرِثَ، والورِع، بكسر الرَّاءِ: الرجلُ التَّقِي المتحَرِّج، والورَعُ في الأصل: الكَفُّ عن المحارِمِ والتحَرُّج منه، ثم اسْتعِير للكفِّ عن المباح والحلالِ.

قال ابن فارس: "الواو والراء والعين: أصلٌ صحيح يدلُّ على الكفِّ والانقباض، منه الوَرَع: العِفَّة، وهي الكَفّ عما لا ينبغي"(١).

ثانياً: التعريف الشرعي:

- قال الجرجاني: "الورع هو اجتناب الشبهات خوفًا من الوقوع في المحرمات"(٢).
- وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: " وَأَمَّا الْوَرَعُ فَإِنَّهُ الْإِمْسَاكُ عَمَّا قَدْ يَضُرُّ، فَتَدْخُلُ فِيهِ الْمُحَرَّمَاتُ وَالشُّبُهَاتُ لِأَنَّهَا قَدْ تَضُرُّ، فَإِنَّهُ مَنْ اتَّقَى الشُّبُهَات اسْتَبْرَأَ لِعِرْضِهِ وَدِينِهِ وَمَنْ وَقَعَ فِي الشُّبُهَات وَقَعَ فِي الْحَرَامِ كَالرَّاعِي حَوْلَ الْحِمَى يُوشِكُ أَنْ يُوَاقِعَهُ"(٣).
- وقال ابن القيّم: " الْوَرَعُ تَرْكَ مَا تَخَافُ ضَرَرُهُ فِي الْآخِرَةِ "(٤).
- وقال ابن تيميّة رحمه الله مبينًا كمال الورع: "تمام الورع أن يعلم الإنسان خير الخيرين وشرّ الشّرّين، ويعلم أنّ الشّريعة مبناها على تحصيل المصالح وتكميلها وتعطيل المفاسد وتقليلها وإلّا فمن لم يوازن ما في الفعل والتّرك من المصلحة الشّرعيّة،

---

(١) مقاييس اللغة (٦/١٠٠)

(٢) التعريفات (ص٢٥٢)

(٣) مجموع الفتاوى (١٠/٦١٥)

(٤) مدارج السالكين (٢/١٢)

والمفسدة الشّرعيّة فقد يدع واجبات ويفعل محرّمات، ويرى ذلك من الورع، كمن يدع الجهاد مع الأمراء الظّلمة ويرى ذلك ورعًا، ويدع الجمعة والجماعة خلف الأئمّة الّذين فيهم بدعة أو فجور ويرى ذلك من الورع، ويمتنع عن قبول شهادة العباد وأخذ علم العالم لما في صاحبه من بدعة خفيّة، ويرى ترك قبول سماع هذا الحقّ الّذي يجب سماعه من الورع"[١].

وقال الشيخ عبد الرحمن السعدي رحمه الله: "قوله ﷺ: «لا وَرعَ كَالكَفّ» [٢]، فهذا حدٌّ جامع للورع، بيّن به رسول الله ﷺ أن الورع الحقيقي هو الذي يكفُّ نفسه، وقلبه ولسانه، وجميع جوارحه عن الأمور المحرمة الضارة، فكل ما قاله أهل العلم في تفسير الورع، فإنه يرجع إلى هذا التفسير الواضح الجامع.

فمن حفظ قلبه عن الشكوك والشبهات، وعن الشهوات المحرمة والغِلُّ والحقد، وعن سائر مساوئ الأخلاق، وحفظ لسانه عن الغيبة والنميمة والكذب والشتم، وعن كل إثم وأذى، وكلام محرم، وحفظ فرجه وبصره عن الحرام، وحفظ بطنه عن أكل الحرام، وجوارحه عن كسب الآثام فهذا هو الورع حقيقة، ومن ضيع شيئًا من ذلك نقص من ورعه بقدر ذلك"[٣].

---

(١) جامع الرسائل (١٤١/٢)

(٢) أخرجه ابن ماجه في سننه، كتاب الزهد، باب الورع والتقوى، (٢/ ١٤١٠)، ح:(٤٢١٨) وابن حبان في صحيحه، كتاب البر والإحسان، باب ما جاء في الطاعات وثوابها، (٢/ ٧٩) ح:(٣٦١)، والطبراني في المعجم الكبير، باب: ومن غرائب مسند أبي رضي الله عنه(٢/ ١٥٧)، ح:(١٦٥١)، وقد ضعفه الألباني في سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة (٤/ ٣٨٢).

(٣) بهجة قلوب الأبرار (١٦٨/٥ ، ١٦٩)

المسألة الثانية: أدلة الورع

جاءت الإشارة إلى الورع والحث عليه ومدح أهله في نصوص كثيرة، كما قد جاءت الإشارة إليه في قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعۡمَلُواْ صَٰلِحًاۖ إِنِّي بِمَا تَعۡمَلُونَ عَلِيمٞ ﴾ المؤمنون: ٥١.

وقد ذكر النبي ﷺ هذه الآية في معرض الإشارة للورع عن المحرمات، فقال رسول الله ﷺ: «أيّها النّاس، إنّ الله طيّب لا يقبل إلّا طيّبًا، وإنّ الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين، فقال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعۡمَلُواْ صَٰلِحًاۖ إِنِّي بِمَا تَعۡمَلُونَ عَلِيمٞ ﴾، وقال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ ﴾، ثمّ ذكر الرّجل يطيل السّفر أشعث أغبر، يمدّ يديه إلى السّماء: يا ربّ يا ربّ، ومطعمه حرام، ومشربه حرام، وملبسه حرام وغذي بالحرام، فأنّى يستجاب لذلك؟».

قال الشيخ عبد الرحمن السعدي رحمه الله في تفسير قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعۡمَلُواْ صَٰلِحًاۖ إِنِّي بِمَا تَعۡمَلُونَ عَلِيمٞ ﴾: "هذا أمر منه تعالى لرسله بأكل الطيبات، التي هي الرزق الطيب الحلال، وشكر الله، بالعمل الصالح، الذي به يصلح القلب والبدن، والدنيا والآخرة، ويخبرهم أنه بما يعملون عليم، فكل عمل عملوه، وكل سعي اكتسبوه، فإن الله يعلمه، وسيجازيهم عليه أتم الجزاء وأفضله، فدل هذا على أن الرسل كلهم، متفقون على إباحة الطيبات من المآكل، وتحريم الخبائث منها "[(١)].

ومن أدلة الورع قوله تعالى: ﴿ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرۡ ﴾ المدثر: ٤، قال الشيخ عبد الرحمن السعدي رحمه الله: "يحتمل أن المراد بثيابه، أعماله كلها، وبتطهيرها تخليصها والنصح بها، وإيقاعها على أكمل الوجوه، وتنقيتها عن المبطلات والمفسدات، والمنقصات من شر ورياء، ونفاق، وعجب، وتكبر، وغفلة، وغير ذلك، مما يؤمر العبد باجتنابه في عباداته ....

---

(١) تفسير السعدي (مجموع المؤلفات ٢/٧٧٣)

ويحتمل أن المراد بثيابه، الثياب المعروفة، وأنه مأمور بتطهيرها عن جميع النجاسات، في جميع الأوقات، خصوصًا في الدخول في الصلوات، وإذا كان مأمورًا بتطهير الظاهر، فإن طهارة الظاهر من تمام طهارة الباطن"[(١)].

ومما جاء من الإشارة إلى الورع في القرآن قوله تعالى: ﴿...تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ البقرة: ١٨٧.

قال الشيخ عبد الرحمن السعدي رحمه الله: "تلك حدود الله التي حدها لعباده، ونهاهم عنها، فقال: ﴿فَلَا تَقْرَبُوهَا﴾ أبلغ من قوله: (فلا تفعلوها)؛ لأن القربان يشمل النهي عن فعل المحرم بنفسه، والنهي عن وسائله الموصلة إليه.

والعبد مأمور بترك المحرمات، والبعد منها غاية ما يمكنه، وترك كل سبب يدعو إليها"[(٢)].

وعن الحسن بن علي رضي الله عنهما قال: حفظت من رسول الله ﷺ: «دع ما يريبك إلى ما لا يريبك، فإنَّ الصدق طمأنينة، وإنَّ الكذب ريبة» [(٣)].

وعن النعمان بن بشير رضي الله عنهما قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «الحلال بيِّن، والحرام بيِّن، وبينهما مشبَّهات لا يعلمها كثير من الناس، فمن اتَّقى المشبَّهات استبرأ لدينه وعرضه، ومن وقع في الشبهات كراع يرعى حول الحِمَى يوشك أن يُواقعه، ألا وإنَّ لكلِّ ملك حمى، ألا إنَّ حمى الله في أرضه محارمه، ألا وإنَّ في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كلُّه، وإذا فسدت فسد الجسد كلُّه، ألا وهي القلب» [(٤)].

---

(١) تفسير السعدي (مجموع المؤلفات ٢/١٢٢٣)

(٢) تفسير السعدي (مجموع المؤلفات ٢/١٦٧)

(٣) أخرجه الترمذي في سننه، (٤/ ٢٤٩)ح:(٢٥١٨)، والنسائي في المجتبي، كتاب الأشربة (٨/ ٣٢٧) ح:(٥٧١١)، وفي الكبرى كتاب الأشربة، (٥/ ١١٧) ح:(٥٢٠١) وأحمد في مسنده (٣/ ٢٤٩)،ح:(١٧٢٣)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (١/ ٦٣٧).

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الإيمان، باب فضل من استبرأ لدينه (١/ ٢٠) ح:(٥٢)، ومسلم في صحيحه، كتاب المساقاة، باب أخذ الحلال وترك الشبهات، (٣/ ١٢١٩) ح:(١٥٩٩).

قال ابن رجب: "هذا الحديث حديث عظيم؛ وهو أحد الأحاديث التي مدار الدين عليها، وقد قيل: إنَّه ثلث العلم أو ربعه ... ومعنى الحديث: أنَّ الله أنزل كتابه، وبيَّن فيه حلاله وحرامه، وبيَّن النبي ﷺ لأمته ما خفي من دلالة الكتاب على التحليل والتحريم، فصرَّح بتحريم أشياء غير مصرَّح بها في الكتاب، وإن كانت عامتها مستنبطة من الكتاب وراجعة إليه، فصار الحلال والحرام على قسمين:

أحدهما: ما هو واضح لا خفاء به على عموم الأمة؛ لاستفاضته بينهم وانتشاره فيهم، ولا يكاد يخفى إلا على من نشأ ببادية بعيدة عن دار الإسلام؛ فهذا هو الحلال البيِّن والحرام البيِّن.

ومنه: ما تحليله وتحريمه لعينه، كالطيبات من المطاعم، والمشارب والملابس، والمناكح، والخبائث من ذلك كله.

ومنه: ما تحليله وتحريمه من جهة كسبه، كالبيع، والنكاح، والهبة، والهدية، وكالربا، والقمار، والزنا، والسرقة، والغصب، والخيانة، وغير ذلك.

القسم الثاني: ما لم ينتشر تحريمه وتحليله في عموم الأمة؛ لخفاء دلالة النص عليه، ووقوع تنازع العلماء فيه ونحو ذلك، فيشتبه على كثير من الناس، هل هو من الحلال أو من الحرام؟ وأمَّا خواص أهل العلم الراسخون فيه فلا يشتبه عليهم؛ بل عندهم من العلم الذي اختصوا به عن أكثر الناس ما يستدلون به على حلِّ ذلك أو حرمته، فهؤلاء لا يكون ذلك مشتبهًا عليهم لوضوح حكمه عندهم.

أما من لم يصل إلى ما وصلوا إليه فهو مشتبه عليه؛ فهذا الذي اشتبه عليه إن اتقى ما اشتبه عليه حلَّه وحرمه، واجتنبه فقد استبرأ لدينه وعرضه، بمعنى أنه طلب لهما البراءة مما يشينهما، وهذا معنى الحديث الآخر: «دع ما يريبك إلى ما لا يريبك»، وهذا هو الورع، وبه يحصل كمال التقوى"[1].

"وجعل الله التحرز والبعد عن الموبقات المهلكة والحذر من وسائلها طريقًا سهلًا هينًا لتركها، شاهده قوله تعالى: ﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ﴾، أي: محارمه، ﴿فَلَا تَقْرَبُوهَا﴾،

---

(١) جامع العلوم والحكم (١/١٩٤)

أي: لا تفعلوها ولا تحوموا حولها؛ فمن رعى حول الحمى يوشك أن يقع فيه، وإذا قيل مثل هذه الآية: ﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا﴾، كان المراد بالحدود المحارم، وأما إذا قيل: ﴿...تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا...﴾ البقرة: ٢٢٩.

فهذه الحدود التي حددها الله للمباحات، فعلى العبد أن لا يتجاوزها؛ لأنه إذا تجاوز المباح وقع في المحرَّم، فافهم الفرق بين الأمرين "[١].

ومن أدلة الورع قوله ﷺ: «من حُسْن إسلام المرء تَرْكُه ما لا يَعنيه» [٢] ، قال الشيخ عبد الرحمن السعدي رحمه الله في شرحه: "فيشتغل هذا المحسن بما يعنيه، مما يجب عليه تركه من المعاصي والسيئات، ومما ينبغي له تركه، كالمكروهات وفضول المباحات التي لا مصلحة له فيها، بل تفوت عليه الخير.

فقوله ﷺ: «من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه» يعم ما ذكرنا.

ومفهوم الحديث: أن من لم يترك ما لا يعنيه فإنه مسيء في إسلامه، وذلك شامل للأقوال والأفعال، المنهي عنها نهي تحريم أو نهي كراهة"[٣].

---

(١) تيسير اللطيف المنان (مجموع المؤلفات ٣/٣١٩)

(٢) أخرجه الترمذي في سننه، (٤/ ١٣٦)ح:(٢٣١٨) وابن ماجه في سننه، باب كف اللسان في الفتنة (٥/ ١١٩)ح: (٣٩٧٦)، ومالك في الموطأ (١/ ٢٦٤) ح:(٥٣)، وأحمد في مسنده (٣/ ٢٥٩)ح:(١٧٣٧)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٢/ ١٠٢٧).

(٣) بهجة قلوب الأبرار (مجموع المؤلفات ٥/١٦١)

المسألة الثالثة: ثمرات الورع

يثمر تورع العبد عن المكروهات والمشتبهات وفضول المباحات ثمرات جليلة، من أهمها:

١- الكّفّ عن الحرام والبعد عنه أشد البعد:

قال الشيخ عبد الرحمن السعدي رحمه الله: "من حفظ قلبه عن الشكوك والشبهات، وعن الشهوات المحرمة والغِلِّ والحقد، وعن سائر مساوئ الأخلاق وحفظ لسانه عن الغيبة والنميمة والكذب والشتم، وعن كل إثم وأذى، وكلام محرم، وحفظ فرجه وبصره عن الحرام، وحفظ بطنه عن أكل الحرام، وجوارحه عن كسب الآثام فهذا هو الورع حقيقة. ومن ضيع شيئًا من ذلك نقص من ورعه بقدر ذلك"(١).

٢- أن يعوضه الله تعالى خيرا مما تركه:

قال الشيخ عبد الرحمن السعدي رحمه الله: "من حفظ فرجه وبصره، طهر من الخبث الذي يتدنس به أهل الفواحش، وزكت أعماله، بسبب ترك المحرم، الذي تطمع إليه النفس وتدعو إليه، فمن ترك شيئًا لله، عوضه الله خيرًا منه، ومن غض بصره عن المحرم، أنار الله بصيرته"(٢).

بل عقد الشيخ لهذا الأصل قاعدة فقال رحمه الله: "من ترك شيئًا لله عوضه الله خيرًا منه، وهذه القاعدة وردت في القرآن في مواضع كثيرة.

فمنها: ما ذكره الله عن المهاجرين الأولين الذين هجروا أوطانهم وأموالهم وأحبابهم لله، فعوضهم الله الرزق الواسع في الدنيا، والعز والتمكين.

وإبراهيم صلى الله عليه وسلم لما اعتزل قومه وأباه، وما يدعون من دون الله، وهب له إسحاق ويعقوب والذرية الصالحين.

ويوسف عليه السلام لما ملك نفسه من الوقوع مع امرأة العزيز، مع ما كانت تمنيه به من

---

(١) بهجة قلوب الأبرار (مجموع المؤلفات ١٦٨/٥ ، ١٦٩)

(٢) تفسير السعدي (مجموع المؤلفات ٧٩١/٢)

الحظوة وقوة النفوذ في قصر العزيز ورياسته، وصبر على السجن، وأحبه، وطلبه ليبعده عن دائرة الفساد والفتنة عوضه الله أن مكن له في الأرض يتبوأ منها حيث يشاء، ويستمتع بما شاء مما أحل الله له من الأموال والنساء والسلطان.

وأهل الكهف لما اعتزلوا قومهم وما يعبدون من دون الله، نشر لهم من رحمته وهيأ لهم أسباب المرافق والراحة وجعلهم سببًا لهداية الضالين.

ومريم ابنة عمران لما أحصنت فرجها أكرمها الله ونفخ فيه من روحه وجعلها وابنها آية للعالمين.

وسليمان عليه السلام لما ألهته الخيل عن ذكر ربه فأتلفها، عوضه الله الريح تجري بأمره، والشياطين كل بناء وغواص.

ومن ترك ما تهواه نفسه من الشهوات لله تعالى عوضه الله من محبته وعبادته والإنابة إليه ما يفوق لذات الدنيا كلها"(١).

ومن أعظم العوض من الله تعالى لعباده المؤمنين المتورعين عما لا ينفع أن يدخلهم الجنة، وهذه هي الثمرة الثالثة.

٣- السبق إلى دخول الجنة:

قال الشيخ عبد الرحمن السعدي رحمه الله: "أما السابق إلى الخيرات فهو الذي كمل مراتب الإسلام، وقام بمرتبة الإحسان، فَعَبَدَ الله كأنه يراه، فإن لم يكن يراه فإنه يراه، وبذل ما استطاع من النفع لعباد الله، فكان قلبه ملآنًا من محبة الله والنصح لعباد الله، فأدى الواجبات والمستحبات، وترك المحرمات والمكروهات وفضول المباحات المنقصة لدرجته، فهؤلاء هم صفوة الصفوة، وهم المقربون في جنات النعيم إلى الله، وهم أهل الفردوس الأعلى، فإن الله كما أنه رحيم واسع الرحمة فإنه حكيم ينزل الأمور منازلها، ويعطي كل أحد بحسب حاله ومقامه، فكما كانوا هم السابقين في الدنيا إلى كل خير كانوا في الآخرة في أعلى المنازل"(٢).

---

(١) القواعد الحسان (مجموع المؤلفات ٥٤٢/٣)

(٢) تيسير اللطيف المنان (مجموع المؤلفات ٣٠٣/٣)

المبحث السابع عشر: الذكر

وفيه ثلاثة مطالب:

المسألة الأولى: تعريف الذكر

المسألة الثانية: أنواع أدلة الذكر

المسألة الثالثة: ثمرات الذكر

المسألة الأولى: تعريف الذكر

أولًا: التعريف اللغوي:

الذكر لغة : مصدر من الفعل الثلاثي : ذَكر يذكر ذِكرًا وذُكرًا ، وأصل الذكر في اللغة التنبيه على الشيء .

قال الراغب الأصفهاني : "الذكر : تارة يقال ويراد به هيئة للنفس بها يُمكن للإنسان أن يحفظ ما يقتنيه من المعرفة ، وهو كالحفظ إلا أن الحفظ يقال اعتبارًا بإحرازه ، والذكر يقال اعتبارًا باستحضاره ، وتارة يقال لحضور الشيءِ القلبَ أو القولَ ، ولذلك قيل : الذكر ذكران : ذكر بالقلب ، وذكر باللسان . وكل واحد منهما ضربان : ذكر عن نسيان ، ذكر لا عن نسيان بل عن إدامة الحفظ"(١).

قال ابن فارس: "ذَكَرْتُ الشيء ، خلافُ نسِيتُه ، ثم حمل عليه الذِّكْر باللِّسان . ويقولون : اجعلْه منك على ذُكْرٍ ، بضم الذال ، أي : لا تَنْسَه . والذِّكر : العَلاء والشَّرَف ، وهو قياس الأصل"(٢).

ثانيًا : التعريف الشرعي :

له معنيان :

١- الذكر بمعناه العام : ويعم جميع الطاعات الظاهرة والباطنة، القولية والفعلية، "فكلُّ ما تصوره القلب أو أراده أو فعله العبد أو تكلم به مما يقرب إلى الله فهو ذكر الله"(٣)

قال شيخ الإسلام : "كل ما تكلم به اللسان وتصوره القلب مما يقرِّب إلى الله من : تعلّم علم وتعليمه وأمر بمعروف ونهي عن منكر ، فهو من ذكر الله"(١).

---

(١) المفردات (ص٣٢٨)

(٢) مقاييس اللغة (٣٥٢/٢)

(٣) تيسير اللطيف المنان (مجموع المؤلفات ٣٢٧/٣)

وقال الشيخ عبد الرحمن السعدي رحمه الله : "الذكر لله الذي أمر به ، وأثنى على الذاكرين ، وذكر جزاءهم العاجل والآجل ، هو - عند الإطلاق - يشمل جميع ما يقرب إلى الله من : عقيدة ، أو فكر نافع ، أو خلق جميل ، أو عمل قلبي أو بدني ، أو ثناء على الله ، أو تسبيح ونحوه ، أو تعلم أحكام الشرع الأصولية والفروعية ، أو ما يعين على ذلك ، فكله داخل في ذكر الله"(٢).

٢- الذكر بمعناه الخاص .

وهو الثناء على الله تعالى وذكر أوصافه وتلاوة كتابه ونحو ذلك مما هو مشروع.

قال الشيخ عبد الرحمن السعدي -رحمه الله- مبينا النوع الخاص من الذكر،: " ويُطلق(٣) على ذكر الله باللسان بذكر أوصافه وأفعاله والثناء عليه بنعمه وتسبيحه وتكبيره وتحميده والتهليل والصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم ، ومن ذكره ذكر أحكامه تعلمها وتعليمها ، ولهذا مجالس التعلم والتعليم يقال لها مجالس الذكر"(٤)



(١) مجموع الفتاوى (٦٦١/١٠)

(٢) تفسير السعدي (مجموع المؤلفات ٩٤/٢)

(٣) أي الذكر .

(٤) تيسير اللطيف المنان (مجموع المؤلفات ٣٢٧/٣)

المسألة الثانية: أنواع أدلة الذكر

١- ذكر الله أكبر من كل شيء:

أخبر الله سبحانه بأن ذكره أكبر من كل شيء، فقال: ﴿ ...وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ... ﴾ العنكبوت:٤٥.

قال الشيخ عبد الرحمن السعدي رحمه الله: "وثَمَّ في الصلاة مقصود أعظم من هذا وأكبر، وهو ما اشتملت عليه من ذكر اللّه، بالقلب واللسان والبدن.فإن اللّه تعالى إنما خلق الخلق لعبادته، وأفضل عبادة تقع منهم الصلاة، وفيها من عبوديات الجوارح كلها، ما ليس في غيرها، ولهذا قال: ﴿ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ﴾"[١].

قال شيخ الإسلام: "إن في الصلاة فائدتين عظيمتين: إحداهما: نهيها عن الفحشاء والمنكر، والثانية: اشتمالها على ذكر الله وتضمنها له، وما تضمنته من ذكر الله أعظم من نهيها عن الفحشاء والمنكر"[٢].

٢- مدح الله القائمين بذكره:

قال تعالى: ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ... ﴾ آل عمران:١٩٠-١٩١.

قال الشيخ عبد الرحمن السعدي رحمه الله: "وخص الله بالآيات أولي الألباب، وهم أهل العقول؛ لأنهم هم المنتفعون بها، الناظرون إليها بعقولهم لا بأبصارهم.

ثم وصف أولي الألباب بأنهم ﴿ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ ﴾ في جميع أحوالهم: ﴿ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ ﴾، وهذا يشمل جميع أنواع الذكر بالقول والقلب"[١].

---

(١) تفسير السعدي (مجموع المؤلفات ٢/٨٧٩)

(٢) مدارج السالكين (٢/٣٩٨)

٣- أمر الله به وحث عليه وندب إليه:

قال تعالى آمرًا عباده المؤمنين بكثرة الذكر لربهم: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكۡرٗا كَثِيرٗا ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلًا ﴿٤٢﴾ هُوَ ٱلَّذِي يُصَلِّي عَلَيۡكُمۡ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخۡرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۚ وَكَانَ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ رَحِيمٗا﴾ الأحزاب: ٤١-٤٣.

قال الشيخ عبد الرحمن السعدي رحمه الله: "يأمر تعالى المؤمنين، بذكره ذكرًا كثيرًا، من: تهليل، وتحميد، وتسبيح، وتكبير وغير ذلك، من كل قول فيه قربة إلى اللّه، وأقل ذلك، أن يلازم الإنسان، أوراد الصباح والمساء، وأدبار الصلوات الخمس، وعند العوارض والأسباب.

وينبغي مداومة ذلك، في جميع الأوقات، على جميع الأحوال، فإن ذلك عبادة يسبق بها العامل، وهو مستريح، وداع إلى محبة اللّه ومعرفته، وعون على الخير، وكف اللسان عن الكلام القبيح"(٢).

وقال النبي ﷺ: "ألا أنبئكم بخير أعمالكم، وأزكاها عند مليككم، وأرفعها في درجاتكم، وخير لكم من إعطاء الذهب والورق، وخير لكم من أن تلقوا عدوكم فتضربوا أعناقهم ويضربوا أعناقكم؟ قالوا: بلى يا رسول الله، قال: ذكر الله عز وجل"(٣).

وقال سبحانه: ﴿وَٱذۡكُر رَّبَّكَ فِي نَفۡسِكَ تَضَرُّعٗا وَخِيفَةٗ وَدُونَ ٱلۡجَهۡرِ مِنَ ٱلۡقَوۡلِ بِٱلۡغُدُوِّ وَٱلۡأٓصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلۡغَٰفِلِينَ﴾ الأعراف: ٢٠٥.

قال الشيخ عبد الرحمن السعدي رحمه الله: "الذكر للّه تعالى يكون بالقلب، ويكون باللسان، ويكون بهما، وهو أكمل أنواع الذكر وأحواله، فأمر اللّه عبده ورسوله محمدًا أصلًا وغيره تبعًا، بذكر ربه في نفسه، أي: مخلصًا خاليًا ... ﴿وَلَا تَكُن مِّنَ

---

(١) تفسير السعدي (مجموع المؤلفات ٢/٢٤٦)

(٢) تفسير السعدي (مجموع المؤلفات ٢/٩٢٤)

(٣) أخرجه ابن ماجه في سننه، أبواب الأدب، باب فضل الذكر (٤/ ٢٢٤٥) ح:(٣٧٩١).

ٱلۡغَٰفِلِينَ ﴾ الذين نسوا اللّه فأنساهم أنفسهم، فإنهم حرموا خير الدنيا والآخرة، وأعرضوا عمَن كل السعادة والفوز في ذكره وعبوديته، وأقبلوا على مَن كل الشقاوة والخيبة في الاشتغال به، وهذه من الآداب التي ينبغي للعبد أن يراعيها حق رعايتها، وهي الإكثار من ذكر اللّه آناء الليل والنهار، خصوصًا طَرَفَي النهار، مخلصًا خاشعًا متضرعًا، متذللًا ساكنًا، وتواطئا عليه قلبه ولسانه، بأدب ووقار، وإقبال على الدعاء والذكر، وإحضار له بقلبه وعدم غفلة"(١).



(١) تفسير السعدي (مجموع المؤلفات ٢/٤٤٨)

المسألة الثالثة: ثمرات الذكر

للذكر ثمرات حسنة، وآثار جليلة، منها:

١- المغفرة والأجر العظيم للذاكرين:

قال سبحانه: ﴿...وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴾ الأحزاب:٣٥.

قال الشيخ عبد الرحمن السعدي رحمه الله: "﴿ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم ﴾، أي: لهؤلاء الموصوفين بتلك الصفات الجميلة، والمناقب الجليلة، التي هي، ما بين اعتقادات، وأعمال قلوب، وأعمال جوارح، وأقوال لسان، ونفع متعد وقاصر، وما بين أفعال الخير، وترك الشر، الذي من قام بهن فقد قام بالدين كله، ظاهره وباطنه، بالإسلام والإيمان والإحسان.

فجازاهم على عملهم (بِالْمَغْفِرَةِ) لذنوبهم، لأن الحسنات يذهبن السيئات.﴿وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴾ لا يقدر قدره إلا الذي أعطاه، مما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر"[١].

وعن أبي هريرة ﷺ قال: كان رسول الله – ﷺ – يسير في طريق مكة، فمرَّ على جبل يقال له: جُمْدان، فقال: "سيروا، هذا جمدان، سبق المفرِّدون.قيل: وما المفرِّدون يا رسول الله؟ قال: الذاكرون الله كثيرًا والذاكرات"[٢].

٢- طمأنينة القلب وانشراح الصدر:

قال عز وجل: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴾ الرعد:٢٨.

---

(١) تفسير السعدي (مجموع المؤلفات ٢/٩٢١)

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الآداب، (٨/ ٦٣) ح:(٦٩٠٥).

قال الشيخ عبد الرحمن السعدي رحمه الله: "ثم ذكر تعالى علامة المؤمنين، فقال: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ﴾، أي: يزول قلقها واضطرابها، وتحضرها أفراحها ولذاتها.

﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴾، أي: حقيق بها وحريٌّ ألا تطمئن لشيء سوى ذكره، فإنه لا شيء ألذ للقلوب ولا أشهى ولا أحلى من محبة خالقها، والأنس به ومعرفته، وعلى قدر معرفتها بالله ومحبتها له، يكون ذكرها له، هذا على القول بأن ذكر الله، ذكر العبد لربه، من تسبيح وتهليل وتكبير وغير ذلك"[1].

وقال الشيخ عبد الرحمن السعدي رحمه الله: "وأصل الحياة الطيبة طيب القلب، وراحته وسروره، والقناعة والرضا عن الله، فلو كان المؤمن الصادق في أضيق عيش لكانت هذه الحياة الطيبة حاصلة له بوعد الله الصادق الذي لا يخلف الميعاد.

وقال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴾ الرعد:٢٨، وحصول طمأنينة قلوب المؤمنين الصادقين بذكر اللهِ والإنسِ به وبعبادتِهِ أمرٌ لا يمتري فيه أحد من أهل الذوق والوجد.

وَمَا يجده أهل الإحسان الصادقون من ذوق حلاوة الإيمان، وحقائق اليقين والإنس بذكر الله، والطمأنينة به، والأحوالِ الزكية والشواهد المرضية، على ما أخبر به الرسول أجلُّ وأعظم من كثير من البراهين الحسية، فإنَّهم وصلوا في هذه الأمور إلى حق اليقين الذي هو أعلى مراتب اليقين والحق"[2].

٣- يذكر الله من ذكره من عباده:

قال تعالى: ﴿ فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لِى وَلَا تَكْفُرُونِ ﴾ البقرة:١٥٢.

---

(١) تفسير السعدي (مجموع المؤلفات ٢/٥٨٨)

(٢) فتح الرحيم الملك العلام (مجموع المؤلفات ٣/٨٢٣)

قال الشيخ عبد الرحمن السعدي رحمه الله: "فأمر تعالى بذكره، ووعد عليه أفضل جزاء، وهو ذكره لمن ذكره، كما قال تعالى على لسان رسوله: (من ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي، ومن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منهم) [(١)]"[(٢)].

عن أبي هريرة – رضي الله عنه – قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "يقول الله عز وجل : أنا عند ظن عبدي بي ، وأنا معه حين يذكرني ، فإن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي ، وإن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منهم ، وإن تقرب إليّ شبرًا تقربت إليه ذراعًا ، وإن تقرب إليّ ذراعًا تقربت إليه باعًا ، وإن أتاني يمشي أتيته هرولة"[(٣)].

٤- جاء تعليق الفلاح بكثرة الذكر:

قال تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُواْ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ الأنفال:٤٥.

قال الشيخ عبد الرحمن السعدي رحمه الله: " الذكر لله تعالى مع الصبر والثبات سبب للفلاح والظفر بالأعداء، كما قال تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُواْ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾، فأمر بالإكثار منه في هذه الحال"[(٤)].

قال الشيخ عبد الرحمن السعدي رحمه الله: "واستعينوا على ذلك بالإكثار من ذكر اللّه ﴿لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾، أي: تدركون ما تطلبون من الانتصار على أعدائكم، فالصبر والثبات والإكثار من ذكر اللّه من أكبر الأسباب للنصر"[(٥)].

---

(١) رواه ابن حبان في صحيحه (٣٦/٢)، وصححه الألباني في الصحيحة (١٠٦٦/٦)

(٢) تفسير السعدي (مجموع المؤلفات ١٥١/٢)

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الآداب، (٨/ ٦٢) ح:(٦٩٠٢).

(٤) تفسير السعدي (مجموع المؤلفات ٢٩٣/٢)

(٥) تفسير السعدي (مجموع المؤلفات ٤٥٩/٢)

المبحث الثامن عشر: الشكر

وفيه ثلاثة مطالب:

المسألة الأول: تعريف الشكر

المسألة الثاني: أنواع أدلة الشكر

المسألة الثالث: ثمرات الشكر

المسألة الأولى: تعريف الشكر

أولًا: التعريف اللغوي:

الشكر في اللغة يدل على الثناء على المحسن ، والمجازاة ، وعرفان الإحسان ، يقال : شَكَرَهُ وشَكَرَ له يَشْكُرُ شُكْرًا وشُكُورًا وشُكْرانًا .

قال الرّاغب : "الشّكر تصوّر النّعمة وإظهارها ، وقيل : هو مقلوب عن الكشر ، أي : الكشف ، ويضادّه الكفر الّذي هو نسيان النّعمة وسترها . وقيل : أصله من عين شكرى ، أي : ممتلئة ، فالشّكر على هذا هو الامتلاء من ذكر المنعم عليه"[١].

وقال الزبيدي[٢] : "الشّكر : عرفان الإحسان ونشره ، وهو مأخوذ من قولك : شكرت الإبل تشكر إذا أصابت مرعى فسمنت عليه ، والشّكران خلاف النكران . والشّكر من الله : المجازاة والثّناء الجميل .

ويقال : شكره وشكر له يشكر شكرًا وشكورًا وشكرانًا .

ويقال أيضًا : شكرت الله ، وشكرت لله ، وشكرت بالله ، وكذلك شكرت نعمة الله ، ورجل شكور : كثير الشّكر ، وهو الّذي يجتهد في شكر ربّه بطاعته وأدائه ما وظّف عليه من عبادته"[٣].

يقول الجرجاني[٤] : "والشكر اللغوي هو الوصف بالجميل على جهة التعظيم والتبجيل على النعمة من اللسان والجنان والأركان"[١].

---

(١) المفردات (ص٤٦١)

(٢) هو محمد بن محمد بن محمد بن عبد الرزاق الحسيني الزبيدي، من كتبه (تاج العروس في شرح القاموس) ، توفي عام ١٢٠٥ . انظر ترجمته في (الأعلام ٧/٧٠)

(٣) تاج العروس (١٢/٢٢٧)

(٤) هو علي بن محمد بن علي الحسيني الجرجاني، له كتاب التعريفات، توفي عام ٨١٦ . انظر ترجمته (البدر الطالع ١/٤٨٩).

ثانيًا : التعريف الشرعي :

- قيل : الشكر عبارة عن معروف يقابل النعمة ، سواء كان باللسان أو باليد أو بالقلب[٢].
- ويقول الجرجاني : "والشكر العرفي هو صرف العبد جميع ما أنعم الله به عليه من السمع والبصر وغيرهما إلى ما خلق لأجله ، فبين الشكر اللغوي والشكر العرفي عموم وخصوص مطلق كما أن بين الحمد العرفي والشكر العرفي أيضًا كذلك"[٣].

قال الشيخ عبد الرحمن السعدي رحمه الله معرفا له مفصحا عن أركانه : "والشكر هو خضوع القلب واعترافه بنعمة الله ، وثناء اللسان على المشكور ، وعمل الجوارح بطاعته وألا يستعين بنعمه على معاصيه"[٤].



(١) التعريفات (١٢٨)

(٢) المصدر نفسه.

(٣) المصدر نفسه.

(٤) تفسير السعدي (مجموع المؤلفات ٢/٣٠٩)

المسألة الثانية: أنواع أدلة الشكر

قال ابن القيم رحمه الله: "منزلة الشكر هي من أعلى المنازل، وهو نصف الإيمان، فالإيمان نصفان: نصف شكر، ونصف صبر، وقد أمر الله به، ونهى عن ضده، وأثنى على أهله، ووصف به خواص خلقه، وجعله غاية خلقه، وأمره ووعد أهله بأحسن جزائه، وجعله سببا للمزيد من فضله، وحارسًا وحافظًا لنعمته، وأخبر أن أهله هم المنتفعون بآياته، واشتق لهم اسمًا من أسمائه، فإنه سبحانه هو الشكور، وهو يوصل الشاكر إلى مشكوره، بل يعيد الشاكر مشكورًا، وهو غاية الرب من عبده، وأهله هم القليل من عباده، قال الله تعالى: ﴿...وَٱشْكُرُواْ لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ البقرة:١٧٢، وقال سبحانه:﴿...وَٱشْكُرُواْ لِى وَلَا تَكْفُرُونِ﴾ البقرة:١٥٢" [(١)].

١- من أسماء الله الشكور:

قال عز وجل: ﴿وَقَالُواْ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ ۖ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ﴾ فاطر:٣٤، وقال سبحانه: ﴿...قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ ۗ وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُۥ فِيهَا حُسْنًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾ الشورى:٢٣، ويقول سبحانه وتعالى: ﴿مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا﴾ النساء:١٤٧.

قال ابن القيم رحمه الله: وسمى نفسه شاكرًا وشكورًا، وسمى الشاكرين بهذين الاسمين، فأعطاهم من وصفه وسماهم باسمه، وحسبك بهذا محبة للشاكرين وفضلًا"[(٢)].

٢- تكرر الأمر به في كتاب الله كثيرًا:

---

(١) مدارج السالكين (٢/٢٣٢).

(٢) نفس المصدر والموضع.

قال سبحانه وتعالى: ﴿ فَٱذْكُرُونِيٓ أَذْكُرْكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لِى وَلَا تَكْفُرُونِ ﴾ البقرة:١٥٢، وقال: ﴿ فَكُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلًا طَيِّبًا وَٱشْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴾ النحل:١١٤، وقال سبحانه: ﴿ بَلِ ٱللَّهَ فَٱعْبُدْ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴾ الزمر:٦٦، وقال عز وجل: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴾ البقرة:١٧٢.

قال الشيخ عبد الرحمن السعدي رحمه الله: "هذا أمر للمؤمنين خاصة، بعد الأمر العام، وذلك أنهم هم المنتفعون على الحقيقة بالأوامر والنواهي، بسبب إيمانهم، فأمرهم بأكل الطيبات من الرزق، والشكر لله على إنعامه، باستعمالها بطاعته، والتقوي بها على ما يوصل إليه، فأمرهم بما أمر به المرسلين في قوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُوا۟ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا... ﴾ المؤمنون:٥١.

فالشكر في هذه الآية، هو العمل الصالح ....، وقوله: ﴿إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴾، أي: فاشكروه، فدل على أن من لم يشكر الله، لم يعبده وحده، كما أن من شكره، فقد عبده، وأتى بما أمر به، ويدل أيضًا على أن أكل الطيب سبب للعمل الصالح وقبوله، والأمر بالشكر، عقيب النعم؛ لأن الشكر يحفظ النعم الموجودة، ويجلب النعم المفقودة كما أن الكفر ينفر النعم المفقودة، ويزيل النعم الموجودة"[١].

ومما جاء من استنباطات السعدي رحمه الله من الآيات التي فيها الحث على الشكر قوله: "لما ذكر الباري نعمته على العباد بتيسير الركوب للأنعام والفلك ، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ لِتَسْتَوُۥا۟ عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ ثُمَّ تَذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا ٱسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا۟ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ ﴿١٣﴾ ﴾ الزخرف: ١٣

ذكر أركان الشكر الثلاثة ، وهي الاعتراف ، والتذكر لنعمة الله ، والتحدث بها ، والثناء على الله بها ، والخضوع لله ، والاستعانة بها على عبادة الله ، لأنه المقصود من

(١)تفسير السعدي (مجموع المؤلفات ٢/١٦٠)

قوله ﴿ وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ ﴾ الاعتراف بالجزاء ، والاستعداد له وأن هذه النعم الغرض منها أن تكون عونا للعبد على ما خلق له من طاعة الله

وفي قوله : ﴿ظُهُورِهِۦ ثُمَّ تَذْكُرُواْ نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا ٱسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ ﴾

تقييدها في هذه الحالة وقت تبوء النعمة ؛ لأن كثيرا من الخلق تسكرهم النعم ، وتغفلهم عن الله ، وتوجب لهم الأشر والبطر ، فهذه الحالة التي أمر الله بها هي دواء هذا الداء المهلك ، فإنه متى ذكر العبد أنه مغمور بنعمة الله ليس من نفسه شي ، وإنما أصول النعم ، وتيسير أسبابها ، وتسهيل تحصيلها ، ثم بقاؤها واستمرارها ، ودفع ما يضادها أو ينقصها من الله تعالى ، ومتى استحضر العبد لذلك ، خضع لله وذل ، وشكره وأثنى عليه ، وبهذا تدوم النعم ويبارك الله فيها ، وتكون نعما حقيقية "[1]

۞۞۞

([1]) الفتاوى السعدية (مجموع المؤلفات ٢٤/٦٢)

المسألة الثالثة: ثمرات الشكر

من ثمرات الشكر الجليلة:

١- أهل الشكر هم المنتفعون من الآيات :

قال سبحانه وتعالى : قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَـٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴾ سبأ: ١٩.

قال الشيخ عبد الرحمن السعدي رحمه الله : "﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَـٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴾ فهم المنتفعون بالآيات ، صبار على الضراء ، شكور على السراء ، صبار على طاعة اللّه وعن معصيته ، وعلى أقداره ، شكور للّه ، على نعمه الدينية والدنيوية"[(١)].

قال الشيخ عبد الرحمن السعدي رحمه الله : "﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَـٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴾ أي : كثير الصبر على ما تكرهه نفسه ويشق عليها ، فيكرهها عليه ، من مشقة طاعة ، أو ردع داع إلى معصية ، أو ردع نفسه عند المصائب عن التسخط ، ﭽشَكُورٍ ﭼ في الرخاء وعند النعم ، يعترف بنعمة ربه ويخضع له ، ويصرفها في مرضاته ، فهذا الذي ينتفع بآيات الله .

وأما الذي لا صبر عنده ، ولا شكر له على نعم الله ، فإنه معرض أو معاند لا ينتفع بالآيات"[(٢)].

---

(١) تفسير السعدي (مجموع المؤلفات ٢/٥٩٤)

(٢) تفسير السعدي (مجموع المؤلفات ٢/١٠٥٠)

٢- الشاكرون موعودون بالجزاء الحسن والأجر الكثير :

قال عز وجل : ﴿ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ كِتَٰبًا مُّؤَجَّلًا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلْآخِرَةِ نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَسَنَجْزِى ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٥﴾ ﴾ آل عمران: ١٤٥

قال الشيخ عبد الرحمن السعدي رحمه الله : "فلما وبخ تعالى من انقلب على عقبيه ، مدح من ثبت مع رسوله ، وامتثل أمر ربه ، فقال : ﴿ وَسَنَجْزِى ٱلشَّٰكِرِينَ ﴾ والشكر لا يكون إلا بالقيام بعبودية الله تعالى في كل حال ... .

وفي هذه الآية – أيضًا – أعظم دليل على فضيلة الصديق الأكبر أبي بكر ، وأصحابه الذين قاتلوا المرتدين بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ لأنهم هم سادات الشاكرين ... .

﴿ وَسَنَجْزِى ٱلشَّٰكِرِينَ ﴾ ولم يذكر جزاءهم ليدل ذلك على كثرته وعظمته ، وليعلم أن الجزاء على قدر الشكر ، قلة وكثرة وحسنًا"[(١)].

٣- الشاكر لله موعود بالمزيد من فضل الله :

ومن الجزاء الحسن على الشكر الزيادة ، فبقدر قيام العبد بشكر النعمة تكون الزيادة ، فالشكر سبب الزيادة ، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِى لَشَدِيدٌ ﴿٧﴾ ﴾ إبراهيم: ٧

قال الشيخ عبد الرحمن السعدي رحمه الله : "وقال لهم حاثًّا على شكر نعم الله : ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ ﴾ ، أي : أعلم ووعد ، ﴿ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ﴾ من نعمي"[(٢)].

---

(١) تفسير السعدي (مجموع المؤلفات ٢/٢٣٣)

(٢) تفسير السعدي (مجموع المؤلفات ٢/٥٩٤)

"فالشكر فيه بقاء النعمة الموجودة ، وزيادة في النعم المفقودة ، ... ينبغي لمن وفقوا لعلم أو عمل ، أن يشكروا الله على ذلك ، ليزيدهم من فضله ، وليندفع عنهم الإعجاب ، فيشتغلوا بالشكر"[١].



(١) تفسير السعدي (مجموع المؤلفات ٢/١٥١)

المبحث التاسع عشر: الحياء

وفيه ثلاثة مطالب:

المسألة الأولى: تعريف الحياء

المسألة الثانية: أنواع أدلة الحياء

المسألة الثالثة: ثمرات الحياء

المسألة الأولى: تعريف الحياء

التعريف اللغوي:

الحياء لغة مأخوذ من حييَ يحيَى، فهو حييّ، على وزن فعيل، ومعناه الانقباض.

قال ابن منظور: "والحياءُ التوبَة والحِشْمَة وقد حَيِيَ منه حَياءً واستَحْيا واسْتَحَى حذفوا الياء الأَخيرة كراهية التقاء الياءَين"[١].

وترجع هذه المادة إلى أصلين قال ابن فارس: "الحاء والياء والحرف المعتل أصلان: أحدهما خِلاف الموْت، والآخر الاستحياء الذي [هو] ضِدُّ الوقاحة.

فأمّا الأوّل فالحياة والحَيَوان، وهو ضِدُّ الموت والموَتَان، ويسمَّى المطرُ حيًا لأن به حياةَ الأرض ... والأصل الآخَر: قولهم استحييت منه استِحياءً"[٢].

وفي المناسبة بين الأصلين يقول ابن القيم رحمه الله: "وَالْحَيَاءُ مِنَ الْحَيَاةِ، وَمِنْهُ الْحَيَا لِلْمَطَرِ، لَكِنَّهُ مَقْصُورٌ، وَعَلَى حَسَبِ حَيَاةِ الْقَلْبِ يَكُونُ فِيهِ قُوَّةُ خُلُقِ الْحَيَاءِ، وَقِلَّةُ الْحَيَاءِ مِنْ مَوْتِ الْقَلْبِ وَالرُّوحِ، فَكُلَّمَا كَانَ الْقَلْبُ أحْيَى كَانَ الْحَيَاءُ أَتَمَّ"[٣].

التعريف الشرعي:

عرف الحياء بتعريفات متعددة، منها:

- "قَالَ الْجُنَيْدُ رحمه الله: الْحَيَاءُ رُؤْيَةُ الْآلَاءِ، وَرُؤْيَةُ التَّقْصِيرِ، فَيَتَوَلَّدُ بَيْنَهُمَا حَالَةٌ تُسَمَّى الْحَيَاءُ، وَحَقِيقَتُهُ خُلُقٌ يَبْعَثُ عَلَى تَرْكِ الْقَبَائِحِ، وَيَمْنَعُ مِنَ التَّفْرِيطِ فِي حَقِّ صَاحِبِ الْحَقِّ ... .
- وَقَالَ ذُو النُّونِ: الْحَيَاءُ وُجُودُ الْهَيْبَةِ فِي الْقَلْبِ مَعَ وَحْشَةِ مَا سَبَقَ مِنْكَ إِلَى رَبِّكَ، وَالْحُبُّ يُنْطِقُ وَالْحَيَاءُ يُسْكِتُ، وَالْخَوْفُ يُقْلِقُ"[٤].

---

(١) لسان العرب (١٨٧/٥)

(٢) مقاييس اللغة (١٢٢/٢)

(٣) مدارج السالكين (٢٤٨/٢)

(٤) المصدر نفسه (٢٤٩/٢)

وقال السعدي رحمه الله مشيرًا إلى تعريفه: "وذكر الحياء -والله أعلم- لأن الحياء به حياة الإيمان، وبه يدع العبد كل فعل قبيح، كما به يتحقق كل خلق حسن"[١].

(١) التوضيح والبيان (٦/١١٨)

المسألة الثانية: أنواع أدلة الحياء

جاءت الأدلة من الكتاب والسنة في الحث على خلق الحياء، والأمر به، والندب إليه، ويتضح هذا من عدد من الوجوه:

١- الحث على الحياء من الله سبحانه بذكر علمه بخلقه واطلاعه عليهم:

قال تعالى: ﴿ يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ ٱلْقَوْلِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا ﴾ النساء: ١٠٨

قال الشيخ عبد الرحمن السعدي رحمه الله: "ثم ذكر عن هؤلاء الخائنين أنهم ﴿ يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ ٱلْقَوْلِ ﴾، وهذا من ضعف الإيمان، ونقصان اليقين، أن تكون مخافة الخلق عندهم أعظم من مخافة الله، فيحرصون بالطرق المباحة والمحرمة على عدم الفضيحة عند الناس، وهم مع ذلك قد بارزوا الله بالعظائم، ولم يبالوا بنظره واطلاعه عليهم.

وهو معهم بالعلم في جميع أحوالهم، خصوصًا في حال تبييتهم ما لا يرضيه من القول، من تبرئة الجاني، ورمي البريء بالجناية، والسعي في ذلك للرسول ﷺ ليفعل ما بيتوه.

فقد جمعوا بين عدة جنايات، ولم يراقبوا رب الأرض والسماوات، المطلع على سرائرهم وضمائرهم، ولهذا توعدهم تعالى بقوله: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا ﴾، أي: قد أحاط بذلك علمًا، ومع هذا لم يعاجلهم بالعقوبة بل استأنى بهم، وعرض عليهم التوبة وحذرهم من الإصرار على ذنبهم الموجب للعقوبة البليغة"[١].

قال تعالى: ﴿ قُلْ إِن تُخْفُوا۟ مَا فِى صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ ۗ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ آل عمران: ٢٩.

وهذا نهي من الله تعالى للمؤمنين عن موالاة الكافرين بالمحبة والنصرة والاستعانة بهم على أمر من أمور المسلمين، وتوعد على ذلك فقال: ﴿ ...وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ

(١) تفسير السعدي (مجموع المؤلفات ٢/٢٩٤، ٢٩٥)

﴿مِنَ ٱللَّهِ فِي شَيۡءٍ ...﴾ آل عمران: ٢٨، أي: فقد انقطع عن الله، وليس له في دين الله نصيب، لأن موالاة الكافرين لا تجتمع مع الإيمان؛ لأن الإيمان يأمر بموالاة الله وموالاة أوليائه المؤمنين المتعاونين على إقامة دين الله وجهاد أعدائه، قال تعالى: ﴿وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖ ...﴾ التوبة: ٧١، فمن والى الكافرين من دون المؤمنين الذين يريدون أن يطفئوا نور الله ويفتنوا أولياءه خرج من حزب المؤمنين، وصار من حزب الكافرين، قال تعالى: ﴿...وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمۡ فَإِنَّهُۥ مِنۡهُمۡ...﴾ المائدة: ٥١، وفي هذه الآية دليل على الابتعاد عن الكفار وعن معاشرتهم وصداقتهم، والميل إليهم، والركون إليهم، وأنه لا يجوز أن يولى كافر ولاية من ولايات المسلمين، ولا يستعان به على الأمور التي هي مصالح لعموم المسلمين، قال الله تعالى: ﴿...إِلَّآ أَن تَتَّقُواْ مِنۡهُمۡ تُقَىٰةٗ...﴾ آل عمران: ٢٨، أي: تخافوهم على أنفسكم فيحل لكم أن تفعلوا ما تعصمون به دماءكم من التقية باللسان وإظهار ما به تحصل التقية، ثم قال تعالى: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفۡسَهُۥ﴾، أي: فلا تتعرضوا لسخطه بارتكاب معاصيه فيعاقبكم على ذلك، ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلۡمَصِيرُ﴾، أي: مرجع العباد ليوم التناد، فيحصي أعمالهم ويحاسبهم عليها ويجازيهم، فإياكم أن تفعلوا من الأعمال القباح ما تستحقون به العقوبة، واعملوا ما به يحصل الأجر والمثوبة، ثم أخبر عن سعة علمه لما في النفوس خصوصًا، ولما في السماء والأرض عمومًا، وعن كمال قدرته، ففيه إرشاد إلى تطهير القلوب واستحضار علم الله كل وقت فيستحي العبد من ربه أن يرى قلبه محلًا لكل فكر رديء، بل يشغل أفكاره فيما يقرب إلى الله من تدبر آية من كتاب، أو سنة من أحاديث رسول الله، أو تصور وبحث في علم ينفعه، أو تفكر في مخلوقات الله ونعمه، أو نصح لعباد الله.

وإذا تأمل العبد أسماء الله تعالى الدالة على سعة علمه سبحانه ولطيف خبره أوجبت له مراقبة الله تعالى والحياء منه[1].

---

(١) القواعد الحسان (مجموع المؤلفات ٣/٤٩٦)

٢- حث المؤمنين على التحلي به بالإخبار بأنه من شعب الإيمان:

قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: "الْإِيمَانُ بِضْعٌ وَسَبْعُونَ -أَوْ بِضْعٌ وَسِتُّونَ- شُعبة، أَعْلَاهَا: قَوْلُ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَدْنَاهَا: إِمَاطَةُ الْأَذَى عن الطريق، والحياء شعبة من الإيمان"(١).

هذا الحديث من جملة النصوص الدالة على أن الإيمان اسم يشمل عقائد القلب وأعماله، وأعمال الجوارح، وأقوال اللسان فكل ما يقرب إلى الله، وما يحبه ويرضاه، فإنه داخل في الإيمان، وذكر في الحديث أعلاه وأدناه وما بين ذلك، وهو الحياء، ولعل ذكر الحياء؛ لأنه السبب الأقوى للقيام بجميع شعب الإيمان"(٢).

٣- الحياء من صفات الصالحين:

قال الشيخ عبدالرحمن السعدي رحمه الله في فوائد قصة موسى عليه السلام مع المرأة التي سقى لها: "ومنها أن الحياء -خصوصًا من الكرام- من الأخلاق الممدوحة"(٣).

وقال أيضًا: "ومنها: أن الحياء والمكافأة على الإحسان لم يزل دأب الأمم الصالحين"(٤).

٤- الحث على الحياء بذكر موجبه وهو نظر العبد إلى تقصيره مع توافر نعم الله عليه:

قال الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلۡتَنظُرۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ لِغَدٖۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ﴾ الحشر: ١٨.

قال الشيخ عبدالرحمن السعدي رحمه الله: "هذه الآية الكريمة أصل في محاسبة العبد

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه بلفظ:"بضع وستون" كتاب الإيمان، باب أمور الإيمان (١/ ١١)، ح:(٩) ومسلم في صحيحه بلفظ بلفظ "بضع وستون" كتاب الإيمان، باب شعب الإيمان، (١/ ٦٣)، ح: (٣٥).

(٢) بهجة قلوب الأبرار (١٨٩/٥)

(٣) تفسير السعدي (مجموع المؤلفات ٨٦٢/٢)

(٤) تيسير اللطيف المنان (مجموع المؤلفات ٢١٩/٣)

نفسه، وأنه ينبغي له أن يتفقدها، فإن رأى زللًا تداركه بالإقلاع عنه، والتوبة النصوح، والإعراض عن الأسباب الموصلة إليه، وإن رأى نفسه مقصرًا في أمر من أوامر الله، بذل جهده واستعان بربه في تكميله وتتميمه، وإتقانه، ويقايس بين منن الله عليه وإحسانه وبين تقصيره، فإن ذلك يوجب له الحياء بلا محالة"[١].

(١) تفسير السعدي (مجموع المؤلفات ٢/١١٦٩)

المسألة الثالثة: ثمرات الحياء

للحيا من الله تعالى ثمرات سلوكية عاجلة، وآثار طيبة في الآخرة، منها:

١- أنه يمنع من كل فعل قبيح:

قال الشيخ عبدالرحمن السعدي رحمه الله: ومنها: أن الإيمان الصحيح يمنع العبد من الوقوع في الموبقات المهلكة.

كما ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: «لا يزني الزاني -حين يزني- وهو مؤمن ولا يسرق السارق -حين يسرق- وهو مؤمن، ولا يشرب الخمر -حين يشرب- وهو مؤمن»(١) الحديث.

ومن وقعت منه فإنه لضعف إيمانه، وذهاب نوره، وزوال الحياء ممن يراه حيث نهاه، وهذا معروف مشاهد.

والإيمان الصادق الصحيح يصحبه الحياء من الله، والحب له، والرجاء القوي لثوابه، والخوف من عقابه، والنور الذي ينافي الظلمة، وهذه الأمور -التي هي من مكملات الإيمان- لا ريب أنها تأمر صاحبها بكل خير، وتزجره عن كل قبيح.

فأخبر أن الإيمان إذا صحبه -عند وجود أسباب هذه الفواحش- فإن نور إيمانه يمنعه من الوقوع فيها؛ فإن النور الذي يصحب الإيمان الصادق، ووجود حلاوة الإيمان، والحياء من الله -الذي هو من أعظم شعب الإيمان، بلا شك- يمنع من مواقعة هذه الفواحش"(٢).

و"من استحيا من الله لتواتر نعمه، وسوابغ كرمه، وتجليه عليه بأسمائه الحسنى، والعبد -مع هذا كثير التقصير مع هذا الرب الجليل الكبير يظلم نفسه ويجني عليها- أوجب له هذا الحياء التوقِّي من الجرائم، والقيام بالواجبات والمستحبات"(٣).

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المظالم والغصب، باب النهى بغير إذن صاحبه، (٣/ ١٣٦) ح:(٢٤٧٥). ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب بيان نقصان الإيمان بالمعاصي ونفيه عن المتلبس بالمعصية على إرادة نفي كماله، ح:(٥٧) (١/ ٧٦).

(٢) التوضيح والبيان (مجموع المؤلفات ٦/١٤٩)

(٣) بهجة قلوب الأبرار (مجموع المؤلفات ٥/١٨٩)

٢- من أفضل شعب الإيمان:

قال الشيخ عبدالرحمن السعدي رحمه الله: "واعلم أن من تفكر في كثرة نعم الله، وتفطن لآلاء الله الظاهرة والباطنة، وأنه لا وسيلة إليها إلا محض فضل الله وإحسانه، وأن جنسًا من نعم الله لا يقدر العبد على إحصائه وتعداده، فضلًا عن جميع الأجناس، فضلًا عن شكرها. فإنه يضطر إلى الاعتراف التام بالنعم، وكثرة الثناء على الله، ويستحي من ربه أن يستعين بشيء من نعمه على ما لا يحبه ويرضاه، وأوجب له الحياء من ربه الذي هو من أفضل شعب الإيمان فاستحيا من ربه أن يراه حيث نهاه، أو يفقده حيث أمره"[١].

٣- يرشد إلى كل خير:

قال الشيخ عبدالرحمن السعدي رحمه الله: "ومثَّل بالحياء الذي عليه تستنير أعمال القلوب، ومراقبة علام الغيوب، فيستحي العبد من ربه أن يراه حيث نهاه أو يفقده حيث أمره، فمن استحيا من ربه حق الحياء حفظ القلب وما وعى، والرأس وما حوى، وعرف ما خلق له من عبادة ربه، فآثر ما يبقى على ما يفنى"[٢].

٤- من صفاته تعالى الحياء، وهو سبحانه يحب أهل الحياء:

قال ﷺ: «إنَّ ربكم حيي كريم، يستحي من عبده إذا رفع إليه يديه أنَّ يردهما صفرًا خائبتين»[٣].

قال الشيخ عبد الرحمن السعدي رحمه الله: "وهذا من رحمته، وكرمه، وكماله، وحلمه

---

(١) بهجة قلوب الأبرار (مجموع المؤلفات ٥/٥٧)

(٢) الخطب المنبرية على المناسبات (٣٤٢/٢٣)

(٣) أخرجه أبو داود في سننه كتاب الصلاة، باب الدعاء، (٢/ ٦١٠) ح:(١٤٨٨) والترمذي في سننه (٥/ ٤٤٨) (٣٥٥٦)، وقال :"هذا حديث حسن غريب" وابن ماجه في سننه، كتاب الدعاء، باب رفع اليدين في الدعاء، (٢/ ١٢٧١)، ح:(٣٨٦٥)، صححه ابن ابن حبان (٣/ ١٦٠) وحسنه الألباني صحيح الجامع (١/ ٤١٥).

أن العبد يجاهر بالمعاصي مع فقره الشديد إليه، حتى إنه لا يمكنه أن يعصى إلا أن يتقوى عليها بنعم ربه، والرب مع كمال غناه عن الخلق كلهم من كرمه يستحي من هتكه، وفضيحته، وإحلال العقوبة به، فيستره بما يفيض له من أسباب الستر، ويعفو عنه، ويغفر له، فهو يتحبب إلى عباده بالنعم وهم يتبغضون إليه بالمعاصي، خيره إليهم بعدد اللحظات، وشرهم إليه صاعد.

ولا يزال الملك الكريم يصعد إليه منهم بالمعاصي، وكل قبيح، ويستحي تعالى ممن شاب في الإسلام أن يعذبه، وممن يمد يديه إليه أن يردهما صفرًا، ويدعو عباده إلى دعائه، ويعدهم بالإجابة"(١).

والله عز وجل يحب موجب أسمائه وصفاته فهو "الحيي الستير: يحب أهل الحياء، والستر، ومن ستر مسلمًا ستر الله عليه في الدنيا، والآخرة، ولهذا يكره من عبده إذا فعل معصية أن يذيعها، بل يتوب إليه فيما بينه وبينه ولا يظهرها للناس، وإن من أمقت الناس إليه من بات عاصيًا، والله يستره فيصبح يكشف ستر الله عليه"(٢).

---

(١) الحق الواضح المبين (٦/٦٧٩)

(٢) نفس المصدر والموضع

الخاتمة

أحمد الله عز وجل على ما من به علي من إتمام هذه الرسالة وأسأله أن يتقبل هذا العمل وأن يجعله خالصا لوجهه الكريم .

وفي ختام هذه الرسالة أحب أن أدون شيئا من أهم النتائج التي توصلت إليها :

١- أن القلوب تنقسم باعتبارات مختلفة، فبالنظر إلى أصحابها تنقسم القلوب إلى: قلوب المؤمنين، وقلوب الكافرين، وقلوب المنافقين.
ومن جهة حالها التي تكون عليها تنقسم إلى: القلب السليم، والقلب الميت، والقلب المريض.

٢- وصفت القلوب بأوصاف تدل عليها من جهة الموت أو الحياة، فوصفت بالمرض والعمى والقسوة، وبجعل الموانع عليها من الران، والحجاب، وبموتها وبحيرتها .

٣- القلب الصحيح هو السليم من جميع الآفات والشرور ، وهو القلب الذي صحت وقويت قوته العلمية ، وقوته العملية الإرادية ، فلا شبهات تغويه، ولا شهوات تستدعيه.
والقلب المريض هو الذي انحرفت إحدى قوتيه العلمية أو العملية أو كليهما .
والقلب القاسي أو الميت هو الذي لا يلين لمعرفة الحق ، وإن عرفه لا يلين للانقياد له ، فتأتيه المواعظ التي تلين الحديد وقلبه لا يتأثر بذلك .

٤- القرآن الكريم شفاء لما في الصدور ، وهذا يشمل جميع أمراض القلوب ؛ فهو يوضح أمراض القلوب ويشخصها ، ويرشد العباد إلى كل وسيلة يحصل بها زوالها وشفاؤها ، فيذكر لهم أمراض الجهل والشكوك والحيرة وأسباب ذلك ، ويرشدهم إلى

إزالتها بالعلوم النافعة واليقين الصادق ، ويذكر لهم أمراض الشهوات والغي ، ويبين لهم أسبابها وعلاماتها وآثارها الضارة ، ويذكر لهم ما به تعالج من المواعظ والتذكر والترغيب والترهيب.

٥- أهمية أعمال القلوب وصلتها الوثيقة بالإيمان بل هي من صميم الإيمان ، وأنها محل نظر الله سبحانه من العبد ، وأن التقوى في الحقيقة هي تقوى القلوب .

٦- أن من أصول أهل السنّة والجماعة أنَّ الدين والإيمان اسم يجمع اعتقادات القلوب وأعمالها وأعمال الجوارح، وأنَّه يزيد وينقص ويتفاضل أهل الإيمان فيه تفاضلاً عظيمًا.

٧- جعل الله تعالى المؤمنين في كتابه ثلاث طبقات:

سابقين إلى الخيرات، وهم الذين أدّوا الواجبات والمستحبات، وتركوا المحرمات والمكروهات، وفضول المباحات.

وأصحاب اليمين اقتصروا على أداء الفرائض، واجتناب المحارم.

وظالمين لأنفسهم خلطوا عملاً صالحًا، وآخر سيئًا، عسى الله أن يتوب عليهم.

٨- أن المؤمنين يتفاضلون في علوم الإيمان، قله وكثرة، وقوة يقين وضعفه، ويتفاضلون في أعمال القلوب التي هي روح الإيمان وقلبه، مثل محبة الله وخوفه ورجائه، والتوكل عليه والإنابة إليه، والإخبات والخضوع والتعظيم.

٩- أن للإيمان الصحيح من الفوائد والثمرات العاجلة والآجلة، في القلب والبدن والراحة، والحياة الطيبة، والدنيا والآخرة. وكم لهذه الشجرة الإيمانية من الثمار اليانعة، والجني اللذيذ، والأكل الدائم، والخير المستمر، أمور لا تحصى، وفوائد لا تستقصى. ومجملها أن خيرات الدنيا والآخرة، ودفع الشرور كلها من ثمرات هذه الشجرة.

١٠- جاء وصف الإيمان في قلوب المؤمنين بأوصاف جليلة ، منها : أن له حلاوة وطعما وأنه يتبوأ ويكتب وأنه زينة القلوب وله محبة ونور إلى غير ذلك من الأوصاف العظيمة والمزايا الجليلة.

١١- أثر الإيمان بأسماء الله وصفاته والعمل بمقتضاها على القلوب، فمعرفته سبحانه مما يزيد الإيمان ويورث القلب من أعمال القلوب الشيء الكثير .

١٢- عند النظر في أدلة أعمال القلوب تفصيلا نجد أنه يجمعها عدد من الأشياء المشتركة:

أ. منها أن الأدلة في الأمر بها والحث عليها والندب إليها جاءت كثيرا في النصوص، بل تكرر ذلك بوجوه متعددة، فتارة نجد الأمر المباشر بها، وتارة نجد ذم من لم يتصف بها، وتارة نجد ثناء الله تعالى على فاعليها، وتارة نجد إخبار الله عز وجل أن العمل من صميم الإيمان.

ب. ومنها أنا نجد أن ثمرات وفضائل هذه الأعمال تجمع أصول الخيرات في الدنيا والآخرة، فتشترك من جهة ثمراتها بأنها سبب لدخول الجنة، والنجاة من النار، وأنها سبب لمغفرة الذنوب، وسبب لصلاح القلب وطمأنينته، وسبب لتيسير الأمور، وغير ذلك.

ج. ومنها أنا نلحظ التلازم الشديد بين هذه الأعمال، يأخذ بعضها بحجز بعض، فلا يُكتفى بعمل قلبي دون الآخر، فالتقوى والخوف والخشية تتقارب، والإخلاص والصدق واليقين تتشابه، والزهد والورع يجمعهما الترك لأجل الله وما عنده، والمراقبة والخوف والحياء تجتمع من جهة ملاحظة اطلاع الله على العبد، وهكذا الأمر بين الصبر والرضا واليقين.

د. في كل عمل قلبي نجد أنه سمة أنبياء الله تعالى ورسله، من جهة وصف الله لهم بذلك أولا ثناء منه تعالى عليهم، ومن جهة تطبيقهم لهذا العمل في أخبارهم وأحوالهم

ثانيا، وأكملهم في هذا وفي كل عمل صالح نبينا صلى الله عليه وسلم، وهكذا الأمر فيما يتصل بأحوال الصحابة رضي الله عنهم.

التوصيات:

١- أوصي بالعناية بهذا الباب العظيم، علما وعملا، بحثا ودعوة وتوجيها، على ضوء مسلك أهل السنة والجماعة، من غير إفراط أو تفريط، فأهميته بالغة، والحاجة إليه ماسة.

٢- وأوصي بإفراد أعمال القلوب والبحث فيها من خلال النصوص وآثار السلف، من خلال علومهم وأعمالهم، بسرد أقوالهم، وسبر أحوالهم.

٣- وأوصي أيضا -وإن كنت المقصر في الباب علما وعملا- بالاهتمام بهذه الجوانب الإيمانية، في دعوة الناس، والتنبيه عليها، لا سيما مع طغيان الماديات والملهيات.

وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه.

فهرس الآيات القرآنية

الآية	السورة ورقم الآية	الصفحة
﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴾	النساء: ١	٣
﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾	آل عمران ١٠٢	٣
﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴾	الأحزاب: ٧٠ – ٧١	٣
﴿ ...أُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ... ﴾ المجادلة: ٢٢	٥٩	٣
﴿ ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ ﴾	الحج: ٣٢	٤
﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾	الحجرات: ١٣	٥
﴿ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ	الأحقاف: ١٥.	١٩

وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِيٓ إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٥﴾ ﴾		
﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴿٣٧﴾ ﴾	ق: ٣٧	٣٣
﴿ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ﴾	الحشر: ١٤	٣٣
﴿ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ ﴿٤٦﴾ ﴾	الحج: ٤٦	٣٣
﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴿٣٦﴾ ﴾ الإسراء: ٣٦	١٢	٣٥
﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِيٓ أُمْنِيَّتِهِۦ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلْقِي ٱلشَّيْطَٰنُ ثُمَّ يُحْكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٢﴾ لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِي ٱلشَّيْطَٰنُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُواْ بِهِۦ فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾	الحج: ٥٢ — ٥٤.	٣٧
﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا	الحديد: ١٦.	٤٠

		نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ ... ﴾
٤٢	الزمر: ٢٣.	﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴾
٤٢	الحج: ٣٢ – ٣٣.	﴿ ذَلِكَ وَمَنْ يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ ﴿٣٢﴾ لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى ثُمَّ مَحِلُّهَا إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ ﴾
٤٤	الأنعام: ١٢٢.	﴿أَوَمَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا ... ﴾
٤٦	البقرة: ٦ – ٧.	﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾ خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾
٤٧	الأنعام: ٢٥.	﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا حَتَّى إِذَا جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴾
٥٥	التوبة: ٦٩.	﴿كَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلَاقِهِمْ فَاسْتَمْتَعْتُمْ بِخَلَاقِكُمْ كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِنْ

قَبۡلِكُم بِخَلَٰقِهِمۡ وَخُضۡتُمۡ كَٱلَّذِي خَاضُوٓاْۚ أُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ﴾		
﴿...إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهۡوَى ٱلۡأَنفُسُۖ وَلَقَدۡ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلۡهُدَىٰٓ ﴾	النجم: ٢٣.	٥٧
﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصۡوَٰتَهُمۡ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمۡتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡ لِلتَّقۡوَىٰۚ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٌ عَظِيمٌ ﴾	الحجرات: ٣.	٦٣
﴿ إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتۡ قُلُوبُهُمۡ وَإِذَا تُلِيَتۡ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتۡهُمۡ إِيمَٰنٗا وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ حَقّٗاۚ لَّهُمۡ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمۡ وَمَغۡفِرَةٞ وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ ﴾	الأنفال: ٢-٤،	٦٥
﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسۡتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحۡزَنُواْ وَأَبۡشِرُواْ بِٱلۡجَنَّةِ ٱلَّتِي كُنتُمۡ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحۡنُ أَوۡلِيَآؤُكُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِۖ وَلَكُمۡ فِيهَا مَا تَشۡتَهِيٓ أَنفُسُكُمۡ وَلَكُمۡ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾ نُزُلٗا مِّنۡ غَفُورٖ رَّحِيمٖ ﴾	فصلت: ٣٠ - ٣٢.	٧٢
﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدۡ جَمَعُواْ لَكُمۡ فَٱخۡشَوۡهُمۡ فَزَادَهُمۡ إِيمَٰنٗا وَقَالُواْ حَسۡبُنَا ٱللَّهُ وَنِعۡمَ	آل عمران: ١٧٣ - ١٧٤،	٧٤

ٱلۡوَكِيلُ ١٧٣ فَٱنقَلَبُواْ بِنِعۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضۡلٖ ... ﴾		
﴿ لَّا تَجِدُ قَوۡمٗا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ يُوَآدُّونَ مَنۡ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوۡ كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمۡ أَوۡ أَبۡنَآءَهُمۡ أَوۡ إِخۡوَٰنَهُمۡ أَوۡ عَشِيرَتَهُمۡۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلۡإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٖ مِّنۡهُۖ وَيُدۡخِلُهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ أُوْلَٰٓئِكَ حِزۡبُ ٱللَّهِۚ أَلَآ إِنَّ حِزۡبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴾ المجادلة: ٢٢.		٧٧
﴿ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشۡكَوٰةٖ فِيهَا مِصۡبَاحٌۖ ٱلۡمِصۡبَاحُ فِي زُجَاجَةٍۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوۡكَبٞ دُرِّيّٞ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٖ مُّبَٰرَكَةٖ زَيۡتُونَةٖ لَّا شَرۡقِيَّةٖ وَلَا غَرۡبِيَّةٖ يَكَادُ زَيۡتُهَا يُضِيٓءُ وَلَوۡ لَمۡ تَمۡسَسۡهُ نَارٞۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٖۚ يَهۡدِي ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَيَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡأَمۡثَٰلَ لِلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ﴾	النور: ٣٥.	٧٩
﴿ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ فِيكُمۡ رَسُولَ ٱللَّهِۚ لَوۡ يُطِيعُكُمۡ فِي كَثِيرٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡرِ لَعَنِتُّمۡ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِي قُلُوبِكُمۡ وَكَرَّهَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡكُفۡرَ وَٱلۡفُسُوقَ وَٱلۡعِصۡيَانَۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ٧ فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعۡمَةٗۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ﴾	الحجرات: ٧ – ٨.	٨٠
﴿ أَلَمۡ تَرَ كَيۡفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا كَلِمَةٗ طَيِّبَةٗ كَشَجَرَةٖ طَيِّبَةٍ أَصۡلُهَا ثَابِتٞ وَفَرۡعُهَا فِي ٱلسَّمَآءِ ٢٤	إبراهيم: ٢٤ – ٢٥.	٨١

تُؤْتِيٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينِۭ بِإِذْنِ رَبِّهَاۗ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾		
﴿ وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةًۙ وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ لِيَسْتَيْقِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِيمَٰنًاۙ وَلَا يَرْتَابَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمُؤْمِنُونَۙ وَلِيَقُولَ ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْكَٰفِرُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًاۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِي مَن يَشَآءُۚ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَۚ وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ ﴾	المدثر: ٣١.	٨٥
﴿ لَّٰكِنِ ٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلْعِلْمِ مِنْهُمْ وَٱلْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَۚ وَٱلْمُقِيمِينَ ٱلصَّلَوٰةَۚ وَٱلْمُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأٓخِرِ أُوْلَٰٓئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ النساء: ١٦٢.		٨٧
﴿ وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ﴿٦٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ ﴿٦١﴾ وَلَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَاۖ وَلَدَيْنَا كِتَٰبٌ يَنطِقُ بِٱلْحَقِّۚ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾	المؤمنون: ٦٠ - ٦٢.	٩٣
﴿ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ﴿١٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿١١﴾ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿١٢﴾ ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْأٓخِرِينَ ﴿١٤﴾ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ ﴿١٥﴾ مُّتَّكِـِٔينَ عَلَيْهَا مُتَقَٰبِلِينَ ﴿١٦﴾ يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ ﴾	الواقعة: ١٠ — ٢٦.	٩٤
﴿ قُلْ أَتُحَآجُّونَنَا فِي ٱللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَآ	البقرة: ١٣٩	١٠٨

١١٢	الصافات: ٦٢-٧٤	﴿ أَذَٰلِكَ خَيۡرٞ نُّزُلًا أَمۡ شَجَرَةُ ٱلزَّقُّومِ ﴿٦٢﴾ إِنَّا جَعَلۡنَٰهَا فِتۡنَةٗ لِّلظَّٰلِمِينَ ﴿٦٣﴾ إِنَّهَا شَجَرَةٞ تَخۡرُجُ فِيٓ أَصۡلِ ٱلۡجَحِيمِ ﴾
١٢١	الزمر: ٢٩	﴿ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا رَّجُلٗا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلٗا سَلَمٗا لِّرَجُلٍ هَلۡ يَسۡتَوِيَانِ مَثَلًاۚ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِۚ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ﴾
١٢٤	يوسف: ٢٤	﴿ ...وَهَمَّ بِهَا لَوۡلَآ أَن رَّءَا بُرۡهَٰنَ رَبِّهِۦۚ كَذَٰلِكَ لِنَصۡرِفَ عَنۡهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلۡفَحۡشَآءَۚ إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُخۡلَصِينَ ﴾

فهرس الأحاديث النبوية

حين يسرق وهو مؤمن ، ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن	
البيعان بالخيار ما لم يتفرقا. فإن صدقا وبينا: بورك لهما في بيعهما. وإن كذبا وكتما: محقت بركة بيعهما	١٨٧
إن شئت صبرت ولك الجنة ، وإن شئت دعوت الله أن يعافيك ، قالت : أصبر . قالت : فإني أتكشف ، فادع الله ألا أتكشف ، فدعا لها	٢٢٢
الطهور شطر الإيمان ، والحمد لله تملأ الميزان ، وسبحان الله والحمد لله تملآن ، أو تملأ ما بين السماوات والأرض ، والصلاة نور ، والصدقة برهان ، والصبر ضياء ، والقرآن حجةٌ لك أو عليك ، كل الناس يغدو فبايعٌ نفسه فمعتقها أو موبقها	٢٤٢
اللهم إني أَعوذُ برضاكَ من سَخَطِكَ ، وبِمُعافاتِكَ من عُقوبَتِكَ ، وأَعوذُ بك منك ، لا أُحْصي ثَناءً عليك ، أَنت كما أَثْنَيْتَ على نفسك	٢٢٦
ذاق طعم الإيمان من رضي بالله رباً ، وبالإسلام ديناً ، وبمحمد رسولاً	٢٣١
قد أفلح من أسلم ، ورُزِقَ كفافاً ، وقنّعه الله بما آتاه	٢٣١
أما هو فقد جاءه اليقين	٢٣٧
خشع لك سمعي ، وبصري ، ومخي ، وعظامي ، وما استقل به قدمي	٢٧٥
تلك الملائكة دنت لصوتك ، ولو قرأت لأصبحت ينظر الناس إليها لا تتوارى منهم	٢٨٤
اتقوا الله ربكم ، وصلّوا خمسكم ، وصوموا شهركم ، وأدُّوا زكاة أموالِكم ، وأطيعوا ذا أمركم ، تدخلوا جنة ربكم	٢٩٣

اللهم إني أسألك الهدى ، والتقى ، والعفاف ، والغنى	٢٩٣
يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار ، فيجتمعون في صلاة الصبح وصلاة العصر ، ثم يعرج الذين باتوا فيكم فيسألهم الله وهو أعلم بهم ؛ كيف تركتم عبادي ؟ فيقولون : تركناهم وهم يصلون ، وأتيناهم وهم يصلون	٣٠١
أفضل الإيمان أن تعلم أن الله معك حيثما كنت	٣٠٥
يقول الله عز وجل : أنا عند ظن عبدي بي ، وأنا معه حين يذكرني ، فإن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي ، وإن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منهم ، وإن تقرب إليّ شبرًا تقربت إليه ذراعًا ، وإن تقرب إليّ ذراعًا تقربت إليه باعًا ، وإن أتاني يمشي أتيته هرولة	٣٣٩
ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب	٣
إن الله لا ينظر إلى أجسادكم ولا إلى صوركم ولكن ينظر إلى قلوبكم	٤
التقوى هاهنا	٤
اللهم اجعل في قلبي نورًا، وفي سمعي نورًا، وفي بصري نورًا، وعن يميني نورًا، وعن شمالي نورًا، ومن فوقي نورًا، ومن تحتي نورًا، اللهم اجعلني نورًا	٧٩
عُرِضَتْ عَلَيَّ الأُمَمُ فَجَعَلَ النَّبِيُّ وَالنَّبِيَّانِ يَمُرُّونَ مَعَهُمْ الرَّهْطُ وَالنَّبِيُّ لَيْسَ مَعَهُ أَحَدٌ حَتَّى رُفِعَ لِي سَوَادٌ عَظِيمٌ، قُلْتُ مَا هَذَا؟ أُمَّتِي هَذِهِ؟ قِيلَ بَلْ هَذَا مُوسَى وَقَوْمُهُ، قِيلَ انْظُرْ إِلَى الأُفُقِ فَإِذَا سَوَادٌ يَمْلأُ الأُفُقَ ثُمَّ قِيلَ لِي انْظُرْ هَاهُنَا وَهَاهُنَا فِي آفَاقِ السَّمَاءِ فَإِذَا سَوَادٌ قَدْ مَلأَ الأُفُقَ، قِيلَ هَذِهِ أُمَّتُكَ، وَيَدْخُلُ الْجَنَّةَ مِنْ هَؤُلاءِ سَبْعُونَ أَلْفًا بِغَيْرِ حِسَابٍ، ثُمَّ دَخَلَ وَلَمْ	٩٣

إسرائيل كانت في النساء	
سيروا، هذا جمدان، سبق المفرِّدون.قيل: وما المفرِّدون يا رسول الله؟ قال: الذاكرون الله كثيرًا والذاكرات	٢٣٧

فهرس الآثار

فهرس الأعلام

فهرس المراجع

- تفسير القرآن العظيم، أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصري ثم الدمشقي (المتوفى: ٧٧٤هـ)، تحقيق: سامي بن محمد سلامة، الناشر: دار طيبة للنشر والتوزيع، الرياض، الطبعة: الثانية ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩ م .

- الجامع لأحكام القرآن، أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري الخزرجي شمس الدين القرطبي (المتوفى: ٦٧١ هـ) ، تحقيق: هشام سمير البخاري،

الناشر: دار عالم الكتب، الرياض، المملكة العربية السعودية، الطبعة: ١٤٢٣ هـ/ ٢٠٠٣ م

- الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي، محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية (المتوفى: ٧٥١هـ)، حققه: مُحَمَّد أجمل الإِصْلاَحي، خرج أحاديثه: زائد بن أحمد النشيري، الناشر: مجمع الفقه الإسلامي بجدة، ط دار عالم الفوائد بجدة، الطبعة: الأولى، ١٤٢٩

- فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، محمد بن علي بن محمد الشوكاني، دار النشر : دار الفكر – بيروت.

- المفردات في غريب القرآن، أبو القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهانى (المتوفى: ٥٠٢هـ)، المحقق: صفوان عدنان

الداودي، الناشر: دار القلم، الدار الشامية – دمشق بيروت، الطبعة: الأولى – ١٤١٢ هـ

- **مقاييس اللغة، لأحمد بن فارس بن زكرياء القزويني الرازي، أبو الحسين (المتوفى: ٣٩٥هـ)،**
تحقيق عبد السلام محمد هارون ، الناشر: دار الفكر، ١٣٩٩هـ .

- تيسير العزيز الحميد في شرح كتاب التوحيد ، تأليف: سليمان بن عبدالله بن محمد بن عبدالوهاب . تحقيق : أسامة بن عطايا بن عثمان العتيبي. دار الصميعي – الرياض ، الطبعة: الثانية عام ١٤٢٩

-

- **جامع الرسائل، تقي الدين أبو العَباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن عبد الله بن أبي القاسم بن محمد ابن تيمية الحراني الحنبلي الدمشقي (المتوفى : ٧٢٨هـ)، المحقق : د. محمد رشاد سالم، الناشر : دار العطاء – الرياض، الطبعة : الأولى ١٤٢٢هـ – ٢٠٠١م**

- **جامع العلوم والحكم في شرح خمسين حديثا من جوامع الكلم، زين الدين عبد الرحمن بن أحمد بن رجب بن الحسن، السَلامي، البغدادي، ثم الدمشقي، الحنبلي (المتوفى: ٧٩٥هـ)**
تحقيق، شعيب الأرناؤوط – إبراهيم باجس، الناشر: مؤسسة الرسالة – بيروت، الطبعة: السابعة، ١٤٢٢هـ – ٢٠٠١م

- إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان، محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية (المتوفى: ٧٥١هـ)، محمد حامد الفقي، مكتبة المعارف، الرياض، المملكة العربية السعودية.

- مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة، محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية (المتوفى: ٧٥١هـ)، الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت

- حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، أبو نعيم أحمد بن عبد الله بن أحمد بن إسحاق بن موسى بن مهران الأصبهاني (المتوفى: ٤٣٠هـ)، الناشر: السعادة – بجوار محافظة مصر، ١٣٩٤هـ – ١٩٧٤م.

- بدائع الفوائد، أبو عبد الله محمد بن أبي بكر بن أيوب ابن قيم الجوزية، تحقيق علي بن محمد العمران، دار النشر : دار عالم الفوائد

- عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين، محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية (المتوفى: ٧٥١هـ)، الناشر: دار ابن كثير، دمشق، بيروت/مكتبة دار التراث، المدينة المنورة، المملكة العربية السعودية، الطبعة: الثالثة، ١٤٠٩هـ/ ١٩٨٩م

- فتح الباري شرح صحيح البخاري، أحمد بن علي بن حجر أبو الفضل العسقلاني الشافعي
الناشر: دار المعرفة - بيروت، ١٣٧٩، رقم كتبه وأبوابه وأحاديثه: محمد فؤاد عبد الباقي، قام بإخراجه وصححه وأشرف على طبعه: محب الدين الخطيب.

- المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج، أبو زكريا محيي الدين يحيى بن شرف النووي (المتوفى: ٦٧٦هـ)، دار إحياء التراث العربي - بيروت، الطبعة: الثانية، ١٣٩٢
- زاد المسير في علم التفسير، جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي (المتوفى: ٥٩٧هـ)، المحقق: عبد الرزاق المهدي، الناشر: دار الكتاب العربي - بيروت، الطبعة: الأولى - ١٤٢٢ هـ

- كتاب التعريفات، علي بن محمد بن علي الزين الشريف الجرجاني (المتوفى: ٨١٦هـ)، الناشر: دار الكتب العلمية بيروت -لبنان، الطبعة: الأولى ١٤٠٣هـ -١٩٨٣م

- الجامع الكبير - سنن الترمذي، المؤلف: محمد بن عيسى بن سَوْرة بن موسى بن الضحاك، الترمذي، أبو عيسى (المتوفى: ٢٧٩هـ) المحقق: بشار عواد معروف الناشر: دار الغرب الإسلامي - بيروت سنة النشر: ١٩٩٨ م

- سير أعلام النبلاء، المؤلف: شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قَايْماز الذهبي (المتوفى: ٧٤٨هـ) الناشر: دار الحديث- القاهرة
الطبعة: ١٤٢٧هـ-٢٠٠٦م

- الكتاب: جامع البيان في تأويل القرآن، المؤلف: محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الآملي، أبو جعفر الطبري (المتوفى: ٣١٠هـ) المحقق: أحمد محمد شاكر الناشر: مؤسسة الرسالة
الطبعة: الأولى، ١٤٢٠ هـ - ٢٠٠٠ م

- الكتاب: تاريخ بغداد ، المؤلف: أبو بكر أحمد بن علي بن ثابت بن أحمد بن مهدي الخطيب البغدادي (المتوفى: ٤٦٣هـ) المحقق: الدكتور بشار عواد معروف الناشر: دار الغرب الإسلامي - بيروت
الطبعة: الأولى، ١٤٢٢هـ - ٢٠٠٢ م

- الكتاب: لسان الميزان المؤلف: أبو الفضل أحمد بن علي بن محمد بن أحمد بن حجر العسقلاني (المتوفى: ٨٥٢هـ)
المحقق: دائرة المعرف النظامية - الهند
الناشر: مؤسسة الأعلمي للمطبوعات بيروت - لبنان
الطبعة: الثانية، ١٣٩٠هـ /١٩٧١م

- شرح العقيدة الأصفهانية، المؤلف : أحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحراني أبو العباس - الناشر : مكتبة الرشد - الرياض
الطبعة الأولى ، ١٤١٥

تحقيق : إبراهيم سعيداي

- شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل ، المؤلف: محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية (المتوفى: ٧٥١هـ) الناشر: دار المعرفة، بيروت، لبنان
الطبعة: ١٣٩٨هـ/١٩٧٨م

- لسان العرب لابن منظور
المحقق : عبد الله علي الكبير + محمد أحمد حسب الله + هاشم محمد الشاذلي
دار النشر : دار المعارف
البلد : القاهرة

- سنن ابن ماجه المؤلف: ابن ماجة أبو عبد الله محمد بن يزيد القزويني (المتوفى: ٢٧٣هـ) المحقق: شعيب الأرنؤوط - عادل مرشد - محمَّد كامل قره بللي - عَبد اللّطيف حرز الله
الناشر: دار الرسالة العالمية
الطبعة: الأولى، ١٤٣٠ هـ - ٢٠٠٩ م

- التذكرة الحمدونية، لمحمد بن الحسن بن محمد بن علي بن حمدون، أبو المعالي، بهاء الدين البغدادي (المتوفى: ٥٦٢هـ)
الناشر: دار صادر، بيروت الطبعة: الأولى، ١٤١٧ هـ

- النهاية في غريب الحديث والأثر، لمجد الدين أبو السعادات المبارك بن

محمد بن محمد بن محمد ابن عبد الكريم الشيباني الجزري ابن الأثير (المتوفى: ٦٠٦هـ)

المكتبة العلمية – بيروت، ١٣٩٩هـ – ١٩٧٩م

تحقيق: طاهر أحمد الزاوى – محمود محمد الطناحي

- **تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، للشيخ عبدالرحمن بن ناصر السعدي (ت١٣٧٦) دار الميمان – الطبعة الثانية ١٤٣٦ هـ – ٢٠١٥م الرياض.**
- **تيسير اللطيف المنان في خلاصة تفسير القرآن، للشيخ عبدالرحمن بن ناصر السعدي (ت١٣٧٦) دار الميمان – الطبعة الثانية ١٤٣٦ هـ – ٢٠١٥م الرياض.**

- **القواعد الحسان لتفسير القرآن، للشيخ عبدالرحمن بن ناصر السعدي (ت١٣٧٦) دار الميمان – الطبعة الثانية ١٤٣٦ هـ – ٢٠١٥م الرياض.**

- **الدلال القرآنية في أن العلوم والأعمال النافعة داخلة في الدين الإسلامي، للشيخ عبدالرحمن بن ناصر السعدي (ت١٣٧٦) دار الميمان – الطبعة الثانية ١٤٣٦ هـ – ٢٠١٥م الرياض.**

- **المواهب الربانية من الآيات القرآنية، للشيخ عبدالرحمن بن ناصر السعدي (ت١٣٧٦) دار الميمان – الطبعة الثانية ١٤٣٦ هـ – ٢٠١٥م الرياض.**

- **تنزيه الدين وحملته ورجاله مما افتراه القصيمي في أغلاله، للشيخ عبدالرحمن بن ناصر السعدي (ت١٣٧٦) دار الميمان – الطبعة الثانية ١٤٣٦ هـ – ٢٠١٥م الرياض.**

- **فوائد مستنبطة من قصة يوسف عليه السلام، للشيخ عبدالرحمن بن ناصر السعدي (ت١٣٧٦) دار الميمان – الطبعة الثانية ١٤٣٦ هـ – ٢٠١٥م الرياض.**

- **بهجة قلوب الأبرار، للشيخ عبدالرحمن بن ناصر السعدي (ت١٣٧٦) دار الميمان – الطبعة الثانية ١٤٣٦ هـ – ٢٠١٥م الرياض.**

- **التوضيح والبيان لشجرة الإيمان، للشيخ عبدالرحمن بن ناصر السعدي (ت١٣٧٦) دار الميمان – الطبعة الثانية ١٤٣٦ هـ – ٢٠١٥م الرياض.**
- **فتنة الدجال، للشيخ عبدالرحمن بن ناصر السعدي (ت١٣٧٦) دار الميمان – الطبعة الثانية ١٤٣٦ هـ – ٢٠١٥م الرياض.**

- **توضيح معاني الكافية الشافية، للشيخ عبدالرحمن بن ناصر السعدي (ت١٣٧٦) دار الميمان – الطبعة الثانية ١٤٣٦ هـ – ٢٠١٥م الرياض.**

- مختصر في أصول العقائد الدينية، للشيخ عبدالرحمن بن ناصر السعدي (ت١٣٧٦) دار الميمان – الطبعة الثانية ١٤٣٦ هـ – ٢٠١٥م الرياض.

- الدرة البهية شرح القصيدة التائية، للشيخ عبدالرحمن بن ناصر السعدي (ت١٣٧٦) دار الميمان – الطبعة الثانية ١٤٣٦ هـ – ٢٠١٥م الرياض.

- التوضيح المبين لتوحيد الأنبياء، للشيخ عبدالرحمن بن ناصر السعدي (ت١٣٧٦) دار الميمان – الطبعة الثانية ١٤٣٦ هـ – ٢٠١٥م الرياض.

- القول السديد في مقاصد التوحيد، للشيخ عبدالرحمن بن ناصر السعدي (ت١٣٧٦) دار الميمان – الطبعة الثانية ١٤٣٦ هـ – ٢٠١٥م الرياض.

- التنبيهات اللطيفة على ما احتوت عليه الواسطية من المباحث المنيفة، للشيخ عبدالرحمن بن ناصر السعدي (ت١٣٧٦) دار الميمان – الطبعة الثانية ١٤٣٦ هـ – ٢٠١٥م الرياض.

- أصول الدين، للشيخ عبدالرحمن بن ناصر السعدي (ت١٣٧٦) دار الميمان – الطبعة الثانية ١٤٣٦ هـ – ٢٠١٥م الرياض.

- منهج الحق، للشيخ عبدالرحمن بن ناصر السعدي (ت١٣٧٦) دار الميمان – الطبعة الثانية ١٤٣٦ هـ – ٢٠١٥م الرياض.

- مجموع الفوائد واقتناص الأوابد، للشيخ عبدالرحمن بن ناصر السعدي (ت١٣٧٦) دار الميمان – الطبعة الثانية ١٤٣٦ هـ – ٢٠١٥م الرياض.

- الرياض الناظرة، للشيخ عبدالرحمن بن ناصر السعدي (ت١٣٧٦) دار الميمان – الطبعة الثانية ١٤٣٦ هـ – ٢٠١٥م الرياض.

- نور البصائر والألباب، للشيخ عبدالرحمن بن ناصر السعدي (ت١٣٧٦) دار الميمان – الطبعة الثانية ١٤٣٦ هـ – ٢٠١٥م الرياض.

- الفواكه الشهية في الخطب المنبرية، للشيخ عبدالرحمن بن ناصر السعدي (ت١٣٧٦) دار الميمان – الطبعة الثانية ١٤٣٦ هـ – ٢٠١٥م الرياض.

- الخطب المنبرية على المناسبات، للشيخ عبدالرحمن بن ناصر السعدي (ت١٣٧٦) دار الميمان – الطبعة الثانية ١٤٣٦ هـ – ٢٠١٥م الرياض.
- محاسن الدين، للشيخ عبدالرحمن بن ناصر السعدي (ت١٣٧٦) دار الميمان – الطبعة الثانية ١٤٣٦ هـ – ٢٠١٥م الرياض.

- الدين الصحيح يحل جميع المشاكل، للشيخ عبدالرحمن بن ناصر السعدي (ت١٣٧٦) دار الميمان – الطبعة الثانية ١٤٣٦ هـ – ٢٠١٥م الرياض.

- الوسائل المفيدة للحياة السعيدة، للشيخ عبدالرحمن بن ناصر السعدي (ت١٣٧٦) دار الميمان – الطبعة الثانية ١٤٣٦ هـ – ٢٠١٥م الرياض.

- وجوب التعاون بين المسلمين، للشيخ عبدالرحمن بن ناصر السعدي (ت١٣٧٦) دار الميمان – الطبعة الثانية ١٤٣٦ هـ – ٢٠١٥م الرياض.

فهرس المحتويات